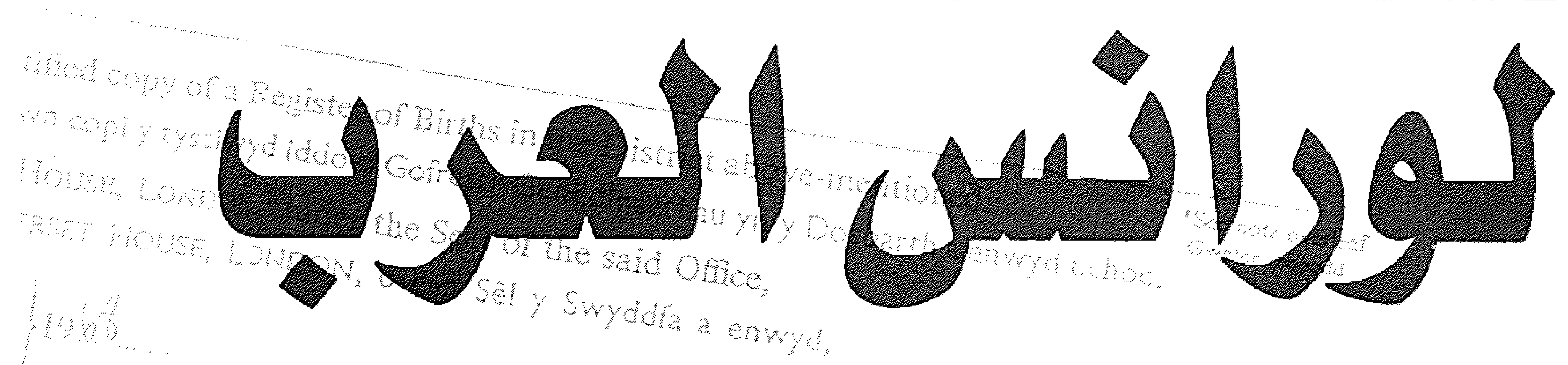
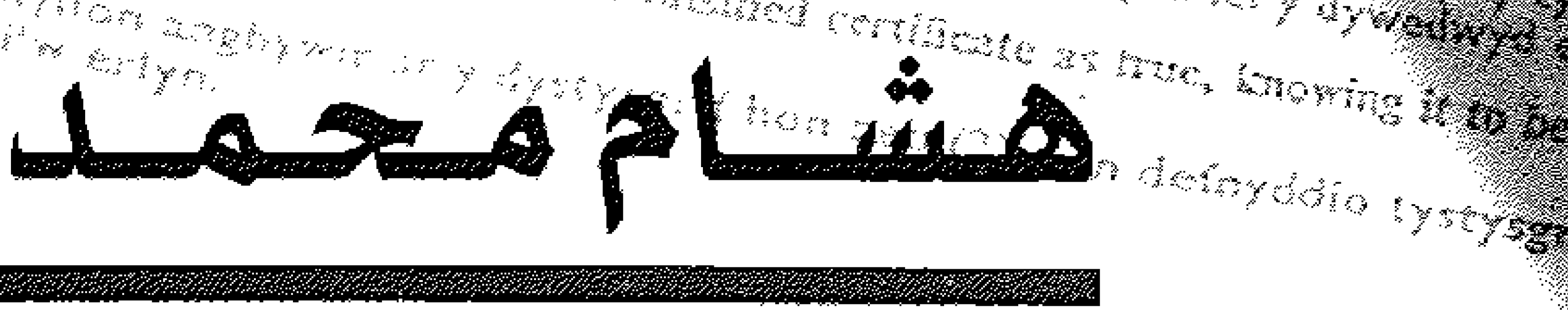
LAWRENCE OF ARABIA



لورانس العرب
ملك الجواسيس



هشام محمد

دار مشارق



لورانس العرب
ملك الجواسيس

تأليف
هشام محمد

الناشر
دار مشارق

بطاقة فهرسة

فهرسه دار الكتب الوثائق القومية

لورانس العرب: ملك الجواسيس - هشام محمد - القاهرة : دار مشارق للنشر والتوزيع ٢٠٠٧

ص ، ١٧ × ٢٤سم

١ - لورانس، توماس ادوارد، ١٨٨٨ - ١٩٣٥.

٢ - الجاسوسية - تراجم

أ - العنوان:

رقم الإيداع: ٢٦٧١١/ ٢٠٠٧

٩٢٣,٢٧١٢

دار طيبة للطباعة - الجيزة

الطبعة الأولى ٢٠٠٨

دار مشارق للنشر والتوزيع

١٥ شارع الفاروق عمر بن الخطاب - طالبية - فيصل

ت: ٣٧٢٤١٨٠٣ - ٠١٢٦٨٧٢٩٠٦ - ٠١٠٥٥٩٣٣١٧

إيميل: mshareq@hotmail.com

مقدمة الكتاب

سيظل «لورانس العرب» أشهر وأبرز وألمع جاسوس على الإطلاق في تاريخ الجاسوسية لما عرف عنه من ذكاء ومهارة واقتدار وعبقرية قلما يجود الزمان بمثلها للإنجليز الذين كانوا أول من أسس جهازًاللتخابر على مستوى العالم المعاصر.

لقد لمع نجم لورانس في في سماء العالم العربي بوصفه عراب الثورة العربية ومن خلال دعمه المطلق للشريف حسين في ثورته العربية القومية ضد دولة الخلافة الإسلامية التي عجزت عن الحفاظ على إمبراطوريتها التي شاخت بعد خمسة قرون كانت فيها مرهوبة الجانب، وانتصرت خلالها للإسلام الذي انتشر على يديها بيد أن خلفاءها وسلاطينها الأواخر قد أهدروا طاقتها وبددوا مواردها فانفرط عقدها وتناثر إلى حبات على يد لورانس ومن كان يدعمه..

لقد لعب لورانس دورًا بارزًا وأسهم بعبقريته الفذة في إشعال وإنجاح الثورة العربية لإعادة رسم المنطقة العربية وفق معاهدة سايكس - بيكو التي تمخضت في رحم الاستعمار الأنجلو فرنسي والتي كانت في حاجة لكسر إرادة تركيا حتى يتسنى للمعاهدة أن ترى النور ومن ثم كان لورانس الذي أجاد التحدث باللغة العربية وتدثر بعباءتها وارتدى عقالها أن يدق بنفسه المسمار الأخير في نعش

الخلافة الإسلامية ليتولد على أثرها القومية العربية حتى لا تقوم للإسلام قائمة، ومن ثم استحق أن يقام له تمثال في مدخل كاتدرائية سان بول ببريطانيا إلى جانب تمثال نلسون وولنجتون بوصفه أحد عظماء السياسة البريطانية ورموزها الحالية.

هشام خضر

الفصل الاول

زمن الطفولة

(لن يظهر له مثيل مهما كانت الحاجة إليه ماسة)

ونستون تشرشل

رئيس وزراء بريطانيا الأسبق

في عام ١٨٨٥ كانت الحياة تمضي بين شد وجذب مشحونة بالتوتر ، مسكونة بالتذمر ، تشهد بين الحين والآخر مباريات حامية الوطيس لا تخلو من التراشق بالألفاظ وانفلات الأعصاب بين السيد إدوارد لورانس الذي تنحدر أصوله إلى أعرق البيوت الإنجليزية وأكثرها ثراءً وبين زوجته الأرستقراطية سليلة النسب العريق الليدي تشابمان».

وبينما كانت سفينة زواجهما تمخر عباب البحر بصعوبة بين عواصف عاتية ورياح قوية اجتاحت موجة حب عارمة وعنيفة فؤاد السير إدوارد مع مخدومته سارة التي كانت ترى حال سيد القصر المتخاذل أمام زوجته المتغطرسة والمتعطشة

دومًا لتقريعه وتوبيخه.

نما الحب بين سيد القصر ومخدومته حتى فاحت رائحته وشاعت سيرته وراحت قصته وانتشرت في محيط البلدة حتى نما بأدق أسراره وتفصيلاته إلى علم سيدة القصر التي تملكها الغضب فاشتعلت نيران الكراهية بصدرها وهددت زوجها بالقتل إذا لم يضع حدًا فاصلاً لنزوته الحقيرة مع مخدومتها.

من جانبه ازداد العاشق تمسكًا بتلابيب معشوقته غير عابئ بما يتناثر من حوله بأقاويل تحط من شأنه وتلطخ من سيرته وتلوث معالم صورته.

كيف وقد عقد العزم بغير رجعة عن الانفصال عن زوجته حتى يقترن بمخدومته التي استقرت كالسهم في سويداء قلبه واعتلت عرش فؤاده وتزينت بتاج الحب المرصع بحبات الود والعطف والحنان والدفء ، ولتذهب سليلة الحسب والنسب بوعقيلة القصور والضياع إلى الجحيم فما أروع الحياة بين يدي امرأة تبثه حنانها وتغدق عليه بعطفها وتغمرها بالسعادة فتصبح له سكنًا ومودة.

وحين فاتح زوجته بشأن ترتيبات انفصالهما ثارت وفارت وأقسمت ألا يحدث ذلك أبدًا ما دامت تلك الخادمة الخائنة على قيد الحياة الأمر الذي دفع بالسير توماس بمغادرة القصر والهرب منه برفقة محبوبته سارة التي اقترن بها عاطفيًا وجسديًا بعيدًا عن الطقوس الكنسية وتعاليمها حيث تحول التعاليم المسيحية دون الجمع بين زوجتين، ومن ثم كانت العلاقة غير الشرعية هي الملاذ الأخير لكلا العاشقين فكانا أشبه بمن يستجير من الرمضاء بالنار!!

كانت مقاطعة ويلز العش الهادئ والحصن المنيع للحب الوليد بين عاشقين تلاحقهما لعنات الأمراء، ورموز العائلات وأبناء الطبقات الأرستقراطية ومطاردات زوجة تتميز غيظًا بعد أن تقزمت أمام قومها على يد من كانت لها خادمة ومطيعة وأمينة.

في نفس هذا العام الذي شهد ثورة الحب الذي جمع بين إدوارد وسارة كان الطفل مونتا جوروبرت الشهير بـ (بوب) هو ثمرة العلاقة الجسدية بينهما وقد احتفى الزوجان بقدومه وسط سعادة الجيران والأصدقاء الجدد الذبن لم يكن قد نما لعلمهم حقيقة تلك العلاقة غير الشرعية.

وفي صباح السادس عشر من أغسطس ١٨٨٨ ولد الابن الثاني غير الشرعي «توماس» محور هذا الكتاب والذي لمع نجمه والشهير بـ (لورانس العرب) والذي أضحى حتى كتابة تلك السطور أسطورة حار منها الجميع .

وفي عام ١٨٩١ ولد الابن الثالث غير الشرعي ويل ثم تبعه في عام ١٨٩٣ فرانك وفي عام ١٨٩٥ أرنولد الذي كان آخر عنقود غير شرعي حصدته تلك الأسرة.

كان والد (لورانس العرب) من أثريا القوم ووجهائها وكان يهوى ممارسة المشي والسباحة وركوب الخيل، ورعاية شؤون الأسرة لإهدار الوقت حيث كان عازفًا عن ممارسة أي أعمال تجارية أو وظيفية معللاً أنه من الطبقات الأرستقراطية التي لا ينبغي لها أداء أية مهام وظيفية ما دامت تملك من المال الوفير والخير الكثير ما يعوضها عن الانخراط مع من هم دون ذلك.

وقد توفي السير إداورد لورانس والد شخصية هذا الكتاب عام ١٩١٩ بعد أن داهمه وباء الأنفلونزا فيما بقيت والدته السيدة سارة على قيد الحياة حتى وافتها المنية عام ١٩٥٩ عن عمر يناهز الثامنة والتسعين[١] .

أما بوب فقد كان يشغل منصب الملحق الطبي بالبعثة البريطانية في الصين، وقد عاد إلى لندن عام ١٩٣٥، وقد ذهب بنفسه لخدمة والدته والسهر على راحتها بعد سنوات طويلة من الإقامة في العاصمة الصينية بكين بيد أن شقيقيه

(١) قيل إنها ابنة غير شرعية أيضًا.

ويل وفرانك قد لقيا حتفهما في ميادين المعارك الحربية التي شهدتها أوربا أثناء الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ - ١٩١٨).

أما شقيقه أرنولد أصغر أخوته فقد لفظ أنفاسه الأخيرة عام ١٩٦٢ .

طفولة لورانس العرب :

رحلت أسرة لورانس من أيرلندا إلى أسكتلندا لكنها سرعان ما رحلت بعد فترة إلى جزيرة (مان) ثم غادرتها إلى منطقة (جوسي) وقد انتهى بها المطاف في فرنسا واستقروا في مقاطعة «بريتياني».

وفي تلك المقاطعة أقامت أسرة لورانس في منزل أسرة فرنسية تدعى آل (سيفنون) وقد ترعرعت بينهما شجرة الود والمحبة بمرور الوقت إلى جانب إحدى الأسر الإنجليزية التي كانت تتبادل مع أسرة لورانس الزيارات المنزلية الأمر الذي أدى إلى اختلاط أطفال الأسر معًا لممارسة كافة فنون اللعب واللهو دون أدنى حرج.

في تلك المقاطعة الفرنسية كانت إحدى المربيات الإنجليزيات تلقي لورانس وشقيقه الأكبر بوب الدروس الابتدائية قبل أن ينهي لورانس عامه الخامس ثم التحق عقب بلوغ السادسة بمدرسة سانت ماري.

وحين بلغ لورانس الثامنة انتقلت الأسرة إلى إنجلترا بغية العيش بها والإقامة النهائية بعد حياة طويلة حافلة بالتوتر والاضطراب وعدم الاستقرار.

كانت مقاطعة أكسفورد بالعاصمة البريطانية لندن هي المكان الذي طاب لأسرة لورانس بوصفها إحدى أرقى أحياء لندن العريقة لا سيما وأنها تضم بين جنباتها أعرق وألمع وأبرز جامعات العالم الشهيرة بجامعة أكسفورد التي كانت تتصدر ولا تزال قائمة أفضل جامعات العالم.

ما من شك أن كثرة تنقلات الأسرة وترحالها المتعدد في بواكير حياته كان له

أبلغ الأثر في نشأته وتكوينه حيث تملكه رغبة جامحة فيما بعد للسفر والتنقل والترحال دون أن يتسرب إليه الملل أو تنتابه موجات من الاشمئزاز، وربما كان ذلك من أهم مقومات نجاحه وانطلاقاته وتألقه الذي سنتعرض لتفاصيله فيما بعد.

لم تكن طفولة لورانس بائسة، بل كان يعيش طفولة سعيدة تتسم بالرفاهية والنعومة والرخوة وامتلاك سبل السعادة وأدواتها، كان منزل أسرته الجديد في مقاطعة أكسفورد والكائن بشارع بولستيد واسعًا وكبيرًا وقد شيد بالطوب الأحمر الذي تشتهر به العاصمة الإنجليزية ولا سيما مقاطعة أكسفورد التي تشتهر بالأصالة والعراقة والقدم.

الشاهد أن لورانس قد ألحقه والده بمدرسة أكسفورد الثانوية مع شقيقه الأكبر بوب على أمل الالتحاق بعد الانتهاء منها بجامعة أكسفورد.

واقع الحال أن لورانس لم يكن تمليذًا نابغًا أو عبقريًا ، بل كان يتسم منذ نعومة أظفاره بالهدوء حيث كان يفتقد الرغبة في الاتصال بأقرانه حيث كان يميل إلى الانعزالية.

ورغم ذلك كان يحرص على آداء واجباته المدرسية على أكمل وجه، وإن كان قد عرف في محيط زملائه ومعلميه أنه غالبًا ما ينجو بنفسه من أي توجيه مباشر أو أمر واجب يمكن أن يكون أداؤه ضروريًا ومهمًا.

صحيح أنه كان يتخذ قراراته بشجاعة على اعتبار أنها ممارسة طبيعية ينبغي التمسك بها، ومن ثم لم يكن يتورع في توجيه سهام نقده اللاذع لمن كانوا يكبرونه سنًا وتمسكه بالحيادية وعدم الانحياز لطرف دون الآخر فضلا عن كراهيته لأي شخص مهما كانت هويته مزهوًا ومختالاً فخورًا بنفسه.

كان لورانس لا يميل إلى ممارسة الألعاب الرياضية التي تتصف بالتنظيم

والقواعد التي ينبغي الالتزام بها، وقد علق على ذلك قائلاً في مذكراته:

«لم أكن أهتم بالألعاب المنظمة لأنها كانت منظمة، ولأن لها قواعد وأحكامًا ونتائج فأنا بطبعي لا أنافس أحدًا من الناس في أي شيء على وجه الإطلاق»

كان لورانس يتمتع بالدعابة المرحة التي ميزته بين أشقائه وأقرانه فضلاً عن شجاعته وإقدامه وجرأته التي كانت محل دهشة واستغراب الآخرين رغم أن بنيانه الجسدي لم يكن متميزًا بالقامة الفارعة أو البدانة الصلبة[١] وربما كان ذلك سببًا جوهريًا في تصدره المركز الثالث لسباق الدراجات الهوائية التي كان يعشقها من بين كافة الرياضات مع غرامه وولعه بلعبة الجمباز وإدراكه لقواعدها ولوائحها.

❁ ❁ ❁

نشأ لورانس في بيئة أرادت أن تلتزم بالتعاليم المسيحية رغم ما بها من عورات ظلت تمثل طعنة غائرة في صدر الفتى الذي أحس بالفجيعة والتولة حين أخبره والده أنه غير متزوج والدته وقد روى له التفاصيل الدقيقة التي سبقت هروبه من زوجته والتمسك بمخدومته التي عاشرها معاشرة الأزواج دون أن يقترن بها وفقًا للتقاليد والشرائع.

كان اعتراف الأب صدمة مؤلمة وقاسية ألقت بظلالها الكئيبة على حياة لورانس الذي تنبه مبكرًا لكونه ابنًا غير شرعي نتاج نزوة أب ورغبة أم لم يعبأ أي منهما بانعكاسات علاقتهما وتداعياتها في أبنائهما فيما بعد.

وقد اتضح ذلك حين تسربت أنباء تلك العلاقة لجيران لورانس الذين كانوا يتجنبون لقاءه ومخالطته والارتباط به بضغوط عنيفة مارسها أولياء أمورهم.

---

(١) كان قصير القامة مثل والدته وعلى عكس أشقائه.

على أية حال كانت والدة لورانس لا تدخر جهدًا في الذهاب إلى الكنيسة صباح الأحد من كل أسبوع ربما تغسل خطاياها وأدرانها، وربما أرادت أن توحي لمن حولها مدى التزامها وتمسكها بالفضائل والقيم والتعاليم الدينية.

كانت كنيسة سانت الديت التي تواجه كنيسة كريستي (المسيح) هي التي تتوجه إليه أسرة لورانس للتعد وأداء الطقوس والصلوات والإدلاء بالاعترافات وإن كان ذلك يدفعنا للتساؤل الذي يلح بعنف على خاطرنا.. هل تسنى للسيدة سارة الاعتراف أمام راعي الكنيسة بما هي عليه أم أنها تدارت خجلاً من خطيئتها التي تمارسها ولا تكف عنها جهارًا نهارًا؟»

على أية حال كان العامل الديني عنصرًا ذا تأثير على سلوك لورانس حيث تحلى أمام الجميع بالالتزام الديني والأخلاقي والتفاخر بمعرفة وفهم بعض كافة الأناجيل والوقوف المبكر على دراسة تاريخ الأناجيل وأماكن نشأتها الأولى.

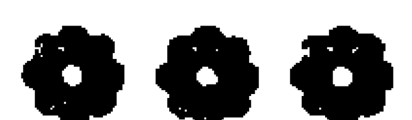
إلى جانب تعلقه بدراسة الأناجيل جغرافيًا وتاريخيًا كان لورانس يميل منذ صغره إلى مطالعة وقراءة علوم الآثار والتاريخ وهي العلوم التي استهوته وشغلته طوال حياته ، ومن ثم وجد نفسه مدفوعًا للقراءة والاطلاع عازفًا عن ممارسة الرياضات التي كان يميل إليها.

في بداية صيف عام ١٩٠٤ أدى لورانس امتحان الشهادة الثانوية بمدرسة إكسفورد وقد حصل على درجات أشارت إلى أن مستواه كان ممتازًا فضلاً عن أنه كان ضمن تسعة وسبعين طالبًا حصلوا على نتائج عالية من بين ٦٧٢٠ طالبًا في تلك المرحلة.

أما فيما يتعلق بعشقه المبكر لعلوم الآثار فقد اشترى كتابين حول علوم الآثار والحفريات والتاريخ وقد فرغ من قراءتهما عدة مرات حتى تسنى له أن يحفظ جميع العلوم الواردة في صفحات الكتابين، وكان يتردد على متحف أشمولين

بأكسفورد لمشاهدة التحف الأثرية العريقة التي يعود تاريخها إلى عصور القرون الوسطى فضلاً عن هوايته في جمع قطع الآثار والأدوات النحاسية الأثرية العريقة حتى اشتهر بين أقرانه بعشقه للآثار والحفريات.

وحين علم والده بولعه وهوسه بالآثار آثر أن يصطحبه معه إلى باريس لمشاهدة ما بها من حفريات وآثار أذهلت لورانس فضلاً عن رحلات كثيرة رافقه فيها الأب وبالتحديد في مقاطعة ويلز الشهيرة بالقصور الملكية والقلاع الأثرية، أضف إلى ذلك حرص والده على مشاهدة مختلف الجزر الإنجليزية التي تتمتع بحفريات عريقة وذات جذور تاريخية عميقة.



الفصل الثاني

زمـــن الصبــــا

في أكتوبر ١٩٠٧ التحق لورانس بجامعة أكسفورد طالبًا في كلية يسوع في حين كان شقيقه الأكبر بوب قد التحق منذ عامين في كلية سانت جون والتحق بها فرانك أيضًا.

ولأن النفقات الدراسية قد أرهقت كاهل والد لورانس ولم يعد قادرًا على تدبير المصروفات اللازمة لتعليم أبنائه الكبار وتربية الصغار فقد آثر أن يتلقى علومه من منزله بدلاً من الذهاب إلى الكلية، ومن ثم أحس لورانس بقسوة الظروف التي حالت بينه وبين التعايش اليومي مع طلاب وعلماء أكسفورد.

من هنا بدأ لورانس في تدشين علاقات قوية ووطيدة مع كوكبة من الأساتذة الأجلاء خارج أسوار جامعة أكسفورد وعلى رأس هؤلاء معلمه وأستاذه (رجينالد لان بول) الذي كان يشغل منصبًا مرموقًا كأحد علماء وأساتذة كلية سانت جون فضلاً عن علاقته المتينة المتواصلة مع أستاذ (ل - جان).

كان لورانس كما أشرنا مولعًا بدراسة علوم الآثار التي استحوذت عليه وهي ما

دفعته لاكتساب معارف وأصدقاء جدد في أشمولين تلك التي تضم بين جنباتها أشهر متاحف إنجلترا.

وكان أبرز هؤلاء الذين تعلق بهم «س. ف.. بيل» و(ي - ت ليدز) وأصدقاء عرفهم عن طريق جامعة أكسفورد مثل بيسون و(ي - ف - هول).

بمرور الوقت أدرك لورانس صعوبة تحصيل علومه الأكاديمية داخل منزله الذي يزدحم بأشقائه وبأفراد أسرته الأمر الذي اضطر معه أن ينتقل فيما بعد إلى الإقامة داخل إحدى غرف كلية (جيسوس).

كان لورانس في تلك الفترة محبوبًا لدى زملائه وأساتذته لهدوئه ورقته وعزوفه عن تعاطي الكحوليات والمخدرات كما كان حريصًا على ممارسة رياضة المشي ليلاً والتجديف في أحد القوارب الصغيرة عصر كل يوم على صفحة مياه جول تريل ميل الذي يمر تحت شوارع أكسفورد.

ما من شك أن معيشة لورانس داخل غرفة الكلية أدى إلى تعود علاقاته مع زملائه ومخالطته لهم خصوصًا داخل قاعات المحاضرات أو ممارسة رياضة التجديفة وقيادة الدراجات الهوائية .

على أية حال مضى لورانس في دراسته لا يكف عن القراءة والمطالعة والبحث والتنقيب للحصول على أية معلومات قد تساعده فيما يتعلق بعلوم الآثار وكيفية اكتشافها والوصول إليها.

وفي عام ١٩٠٨ الذي كان العام الذي شهد التحاق لورانس بجامعة أكسفورد ، وقد لاحظ أساتذته مدى نبوغه وعبقريته وقدرته الفذة على تحصيل الدروس، ولا سيما في مادة تاريخ القرون الوسطى ودراسة حملات نابليون على إيطاليا والنمسا وبرسيا وهولندا وكيفية إخضاع كل هذه البلدان الأوربية وغيرها للقائد الفرنسي الفذ نابليون بونابرت الذي كان معروفًا هو الآخر بقامته القصيرة التي

ربما لا تتجاوز قامة لورانس العرب أيضًا.

وربما كان إعجاب لورانس بشخصية نابليون بونابرت قد دفعه لدراسة الهندسة والاستراتيجية العسكرية وبحث التاريخ العسكري، وقد علق عنه أحد أساتذته ويدعى (ل - جان):

«لقد تبين لي في غضون أسبوعين أن لورانس كان شديد الاهتمام بدراسة تاريخ القرون الوسطى وكان لورانس يقرأ الكتب بسرعة لافتة وبكميات هائلة، وكان يبذل جهودًا حثيثة وشاقة تفوق طاقة أقرانه في تحصيل العلوم واكتساب المعارف».

وحين طلبت الكلية بحثًا ميدانيًا حول التاريخ العسكري والاستراتيجية اضطر لورانس للذهاب إلى فرنسا في نهاية العام الدراسية ١٩٠٨ على متن دراجته الهوائية في مغامرة غير مسبوقة أثارت دهشة وإعجاب واستغراب الجميع.

كانت الرحلة التي قام بها لورانس تعد تطورًا هائلاً في مناهج السياسة الأوربية وتغييرًا شاملاً في أدواتها وآلياتها خاصة وأنه قد قطع خلالها نحو ٢٤٠٠ ميلاً طاف فيها أنحاء أوربا من أجل أن يرى الأماكن والمزارات الأثرية والسياحية تلك التي تكتظ بالعديد من الآثار القديمة التي يفوح منها عبق التاريخ الأوربي والحضارة الأوربية.

لم تكن رحلة لورانس العجيبة ناعمة أو ممتعة بقدر ما كانت تتعرض لصعوبات وتحديات هائلة وعنيدة استطاع لورانس أن يواجهها حتى يتمكن من إنهاء بحثه الذي تنتظره هيئة ا لتدريس لتقويم قدراته ومهاراته وثقافته وتحصيله الدراسي.

أثناء رحلته التاريخية الطويلة والشاقة تلقت أسرة لورانس رسائل عدة بعث بها إليهم وقد جاء فيها:

«إنني أتولى قيادة دراجتي الهوائية بقوة هائلة.. والدي الحبيب أشعر أنني أتمتع بصحة جيدة بعد أن هيأت نفسي على الاكتفاء بتناول الخبز والحليب وثمار الفاكهة الطازجة .. إنني أبدأ رحلتي كل صباح وفي حوزتي كمية لا بأس بها من الخبز والحليب والفاكهة التي تكفيني حتى حلول الظلام..

لقد تناولت حليبًا في تلك الفترة بكثرة هائلة إلى جانب الفواكه، وعادة ما أبدأ يومي في ساعة مبكرة حيث إن درجة الحرارة تتصف بالارتفاع عند انتصاف النهار.

أعرف أنكم تتساءلون فيما بينكم عن ساعات نومي وأين أقضيها؟ لكن الأمر ببساطة يا والدي إنني أتخذ من أحد الفنادق الفرنسية العريقة مقرًا لي من خلاله أبدأ كل يوم رحلتي الاستكشافية في القصور الفرنسية الملكية..

إنني أشعر بالقلق حول قدرتي على الانتهاء من البحث الذي ينبغي أن أتقدم به إلى الكلية والذي من أجله قطعت هذه الرحلة الشاقة ومن ثم فالنوم يفارق عيوني والقلق يسكن رأسي وبات البحث هو شغلي الشاغل ومحط اهتمامي كله..

ولهذا لا تستغرب إذا أخبرتك بأنني أقوم بإعداد أوراق بحثي أثناء ركوبي الدراجة من فرط ما بي من قلق وخوف.

❁ ❁ ❁

وفي رسالة أخرى شديدة الأهمية بعث بها لورانس إلى أسرته بعد وصوله إلى شاطئ البحر المتوسط في منطقة أجيوسي - مورتز:

«لقد مارست هوايتي المفضلة هذا اليوم على صفحة مياه البحر المتوسط هذا البحر العظيم إن لم يكن في تقديري هو أعظم بحار العالم أجمع.. نعم يا والدتي لقد اشتممت قيمة مياهه الرائعة.. على أية حال أشعر يا أحبائي أنني في هذا المكان قد وصلت إلى الطريق المؤدي إلى الجنوب وبلاد الشرق الجميلة.. أقصد

أنني أصبحت قريبًا من اليونان وقرطاج ومصر وصور وسوريا وإيطاليا وأسبانيا وصقلية وكريت.. إنها جميعًا تقع هناك ومن ثم أضحى الوصول إليها سهلاً يسيرًا.

الآن فقط يجب أن أذهب إلى هناك ففي حقيقة الأمر إن وصولي إلى البحر قد أدى إلى انقلاب شامل في عقلي وفكري، ومن ثم فأنا مضطر للقيام بالتوجه المباشر إلى اليونان غدًا.

وعلى الرغم من أن لورانس أشار في رسالته الفائتة أنه يعتزم الترحال إلى اليونان بيد أنه توجه إلى جهة الغرب، وقد استقر به المطاف في مدينة (كاركسون) التي بهرته وأذهلته من فرط روعة آثارها.

وقد بعث برسالة أخرى إلى أسرته يصف من خلالها سحر هذه المدينة وعظمتها التاريخية والجغرافية قائلاً:

«أسرتي العزيزة..

ما أروع تلك المدينة التي أقضي بها أجمل أيام دراستي.. إنها مدينة رائعة في أغلب الأحيان لا سيما وأن الطابع الروماني هو أهم سماتها حيث شيدت على النمط القومي الغربي... هنا وعلى بعد خطوات يوجد برج ساركينك وهي تعود إلى القرن الرابع وهذا هو سر عظمتها وجمالها وعراقتها وهي ستكون أكثر قيمة فيما يتصل بدراستي العلمية، وهي عبارة عن لوحة طبيعية خلابة...

إنني قد أعددت خطة مدروسة للوقوف على طبيعة تلك الآثار التي تكتظ بها المدينة بغرض معرفة العصور المختلفة لتلك المواقع القديمة.. لقد اكتشفت أنها تتمتع بآثار ومواقع تاريخية تعود إلى القرن الثاني عشر ذاك العصر الذي صب في خانة حبل اهتماماتي.

أما بخصوص شوارع تلك المدينة فهي كما أرى شديدة الانحدار وشاهقة

الارتفاع وتتميز بكثرة الأرصفة ومصطبات شيدت أمام كل بيت يبلغ طولها عشرين قدمًا عند كل ممر.

لاحظت انتشار القناطر فوق الأماكن على الشوارع وهي عبارة عن أنفاق يبلغ طولها خمسين ياردة فضلاً عن وجود عشر بوابات قوية تعود إلى القرنين الخامس والسادس عشر هذا إلى جانب سور طويل يحيط بالمدينة من كل جانب، بنيت حول أكواخ وبيوت شديدة التشابك وبيوت من الحجارة يرجع تاريخ إنشائها إلى القرن الرابع عشر لها نوافذ تتميز بالزخرفة الجميلة وعلى كل واحدة منها مصباحان .. وقد قسمت بعدد من الأعمدة المائلة حيث يحيط بها أوراق الكرمة، وأوراق الزخرفة الطبيعية..

ونصف هذه النوافذ قد تزخرفت أرضيته ببلاط رائع من الرخام المكسر والملاط والجزر الأرضي منها يتضمن أبوابًا جميلة من الحديد ذات مقابض ترجع إلى زمن عصر النهضة.. وبين النوافذ وقع عيني على رسومات مزخرفة وهي في الغالب منتقاة من أشكال حيوانات ذات رؤوس بشرية أو لوحات للصيد..

ويبلغ ارتفاع سقوف المنازل هنا نحو قدمين تتدلى منها مظلات تكسو مساخة تبلغ منتصف تلك الشوارع ذات، المساحة الضيقة حيث يبلغ عرضها ياردتين فقط..

والواقع أن تلك البيوت تتكون كما لاحظت هنا - من ثلاثة طوابق وتتشابك مع بيوت عصرية وربما تكون لها نوافذ تم تقسيمها بواسطة بعض الأعمدة وأبواب منحنية الشكل أو معكوفة.. إن هذه المنازل بعضها متصدع وبعضها قد تهالك.. توجد هنا على وجه التحديد ثلاثة منازل متماسكة على عكس بقية البيوت هنا، تلك التي تحول بعضها بفعل الزمن إلى إسطبلات وزرائب.

❁❁❁

في الثامن والعشرين من شهر أغسطس رحل لورانس إلى كاتدرائية شارتريه وقد طاب له العيش بالقرب منها في أحد الفنادق المجاورة للتفرغ التام لدراسة ما بها من رسومات وزخارف وآثار وقد أرسل لأسرته خطابًا كعادته جاء فيه:

«والدتي العزيزة

ما أروع هذا المكان إنني لا أستطيع وصف ما رأيته بدقة.. إنها - هذه الكاتدرائية الرائعة لم تطولها يد ومن ثم ظلت كما هي على حالها جميلة زاهية لا سيما وأنها تتميز بفخامة لا مثيل لها في البناء ولم أكن أتخيل أن تقع عيني على مثل هذا الإبداع والسحر.

إن تاريخ بنائها يرجع إلى أواخر القرن الثاني عشر وأوائل القرن الثالث عشر.. هي ليست كبيرة في مساحتها بيد أن النقوش المنحوتة على مداخلها الثلاثة تعد من أجمل وأروع من كافة فنون البناء الإغريقية الأخرى، وحتى الأمس لم أدع أي عمل لنحات إغريقي يعود للقرن الخامس عشر دون أن أتفحصه وأدقق فيه بإمعان.

صحيح أن أعمال النحت الإغريقي التي تعود للعصور الوسطى أقل قيمة بيد أني أتصور ذلك، أنا لا أتصور ترتيب البوابات الثلاثة الضخمة المزينة بالزخارف (عمق كل مدخل منها ثلاثون قدمًا) مع ارتفاعات ضخمة ونصبت تماثيل صغيرة في كل مكان من الأعمدة على مساحات واسعة شاسعة وتماثيل أخرى صغيرة إلى جانب مظلات تتدلى على القبور..

أما الجدار الغربي للكاتدرائية فهو محصن بسور من حديد تزين وتزخرف بصفائح معدنية للإنصاف صنع بأياد لا مثيل من الابتكار والإبداع والمهارة ..

قد تظنين يا والدتي أن هذه الأشياء تبعث على الملل.. كل شيء هنا صعب وطبيعي لكن لا شيء هنا أعظم من ذلك، وهذا اعتراف مني أنه بناء من أعظم

ما شيد الإنسان وأتقن إنه باختصار أروع وأجمل أعمال القرون الوسطى، ولا يمكن أن أصفها بأي شيء آخر سوى بأنها قمة الروعة والفنون، إن الأماكن العملاقة الأخرى تتضاءل أمامها وتتقزم..

لقد أمضيت يومًا كاملاً يا أمي في داخل كاتدرائية شارتريه العجيبة أذكر أنني دخلتها في ساعة مبكرة في صباح اليوم وانتهت من مهمتي البحثية والاستكشافية عند حلول الظلام الذي خيم على المدينة، كنت بداخلها أنتقل من مكان لآخر ولم أجد سوى أنني أنتقل من مكان جميل إلى آخر أجمل منه، لذلك بذلت جهدًا غير مسبوق في إعداد دراستي العلمية حتى إن العرق كان يتصبب مني طوال ساعات النهار وكنت أشعر كثيرًا بالظمأ وقد وقعت عيناي على سبيل لم تقع عيني على مثله من قبل فأدركت عندها أن المكان يتواءم مع عبادة الله حق عبادته».

وبعد أن أنهى لورانس أبحاثه واكتشافاته الأثرية والتاريخية قرر العودة إلى بلاده لنيل شهادة النجاح على يد أساتذته الذين أثار دهشتهم بمغامراته ورحلاته المثيرة التي قام بها في سن مبكرة وعلى متن دراجته الهوائية.

الشاهد أن لورانس عاد إلى لندن في الخريف وفي حقيبته العديد من الصور التي التقطها للقلاع والمواقع والمباني الأثرية فضلاً عن الخرائط التي انكب على تجميعها من أجل ضمها إلى صفحات البحث الذي سيتقدم به للجنة الامتحانات.

وسرعان ما قدم أوراقه البحثية عقب عودته من اختبار السنة الأولى بجدارة وامتياز فضلاً عن إعجاب شديد حظي به خلال مناقشاته حيث أثنى أعضاء هيئة تدريس الكلية اليسوعية الذين تنبأ أغلبهم بأن هناك مستقبلاً مرموقًا باهرًا ينتظر هذا الفتى عندما يفرغ من دراسته.

وفي العام الثاني وأمام نبوغ لورانس ونجاحه الرائع وتصدره قائمة الطلبة المتميزين قرر والده الاعتناء به ورعايته حتى يتسنى له تصدر قائمة أوائل أكسفورد، ومن ثم قرر أن يبني له غرفتين في حديقة البيت ليعيش فيهما بمفرده بعيدًا عن جلبة المنزل وضوضائه التي لا تنتهي.

وانتقل لورانس إلى الغرفتين الملحقتين بالمنزل بعد أن تزودتا بالماء والكهرباء والهاتف وكافة الخدمات الأساسية لتوفير أقصى سبل الراحة والأمان والاستقرار والاستقلال أيضًا.

وفي صومعته الخاصة انكب لورانس على قراءة ومطالعة كتب الآثار والتاريخ سواء تلك التي كانت مقررة عليه دراسيًا أو الكتب الخارجية المتعلقة بدراسة تاريخ القرون الوسطى.



الفصل الثالث

لورانس في بلاد الشرق

كان لورانس قد أضحى مثار إعجاب أساتذته من علماء الآثار المشاهير حتى أن العالم الأثري المعروف (هو غارت) قد أغدق عليه بنصائحه وزوده بمعارفه وخبراته وتجاربه بعد أن أدرك شغف لورانس وهوسه بعلوم الآثار، ومن ثم أصبح الأب الروحي له الذي ينهل من ينابيعه العذبة ما لذ وطاب من العلوم وفنون الآثار والتاريخ والاستراتيجية.

ولأن لورانس كان يتطلع إلى زيارة منطقة الشرق لما تتمتع به من آثار وحفريات ومتاحف ومعابد وتماثيل وصناعات عريقة تعود إلى آلاف السنين فقد فاتح أستاذه ومعلمه (هو غارت) في شأن القيام برحلة إلى الشرق لعلها تكون هي جوهر بحثه للعام الدراسي الجديد بغض النظر عن تداعيات تلك الرحلة الشاقة على حياته وصحته التي أصابها الوهن.

كان الاقتراح مفاجئًا ومثيرًا للتأمل لدى الدكتور (هو غارت) الذي أشار عليه بمراسلة العالم الأثري الشهير الذي يقيم في الشرق لدراسة آثاره الدكتور (س.

م- دوفني) وقد استجاب لورانس لنصيحة أستاذه وراح يبعث بخطاب عاجل إلى دوفني يستفسر منه عن كيفية السفر والترحال إلى الشرق ويسأله المشورة والنصيحة. بيد أن الدكتور دوفني لم يكن متحمسًا لمغامرة لورانس إشفاقًا عليه من مناخ الشرق المتقلب بين درجات حرارة مرتفعة في بعض البلدان ومنخفضة في بلاد أخرى وصحارى جدباء وحياة لا تخلو من القسوة والخشونة والغلظة والجفاء وهي السمات التي لا تتوامم مع فتى ناعم الملمس لا يمكنه تحمل مشقة ومتاعب ومصاعب هذه المناطق.

كان الجواب قاسيًا وحادًا وعنيفًا حيث ظن لورانس أن الدكتور (س . م . دوفني) الرحالة الشهير يسخر منه ويتهكم عليه ويحط من شأنه وينتقص من قدراته التي ربما لا يعلم عنها شيئًا، ومن ثم ظن أن لورانس صبي تعجل مستقبله ويهرول نحو مجهول لا يدري عواقبه.

ربما كان هذا الجواب هو الذي دفع لورانس للتمسك بفكرته والإصرار على البدء في مغامرته مهما كانت تحدياتها والمضي قدمًا دون إبطاء أو توقف نحو جهة الشرق إلى فلك التاريخ الذاخر بالآثار والذي كان ولا يزال لب الأطماع وجوهر للصراع وهدف للاستراتيجيات القديمة والمعاصرة، بل والمستقبلية بغير شك.

وفي تحد واضح قرر لورانس اكتساب بعض الكلمات والمصطلحات العربية حتى يتمكن من تجاذب أطراف الحديث مع الآخرين حتى يستطيع بلوغ أهدافه ومراميه دون مشقة.

وعلى الفور راح لورانس يبحث عن معلم يعلمه قواعد اللغة العربية واستطاع في زمن قصير الإلمام بكافة القواعد اللغوية وتحصيل عبارات وكلمات ومصطلحات سيتوكأ لحين الانتهاء من تحصيل مفردات اللغة العربية بأكملها.

وعند اقتراب موعد رحيل لورانس المغامر الجرئ والرحالة العبقري إلى منطقة الشرق كان الدكتور هو غارث قد اصطحبه إلى منزل العالم (هـ - بيري جوردون) الذي كان عائداً لتوه من زيارة قام بها لمنطقة الشرق بواسطة جواده.

وبعد أن شرح لورانس أمام العالم وجودون أسباب إصراره وتمسكه بزيارة منطقة الشرق أبدى العالم الأثري جوردون إعجابه وتقديره لإصراره على تلك المخاطرة والمغامرة إزاء ذلك اضطر إلى تزويده بخريطة كاملة للمنطقة ترشد لورانس وتقوده إلى أهدافه دون أن يتكبد أية متاعب.

لم يقتصر الأمر عند هذا الحد، بل تقدم مدير الكلية اليسوعية التي يدرس بها لورانس بطلب عاجل إلى رئيس جامعة أكسفورد بضرورة القيام بالاتصال مع السلطات التركية بهدف تزويد لورانس بكتاب تاريخي وأثري يعمل على تسهيل مهمة لورانس المحفوفة بالمخاطر والتحديات.

❁ ❁ ❁

قبل أيام من موعد رحيل لورانس إلى منطقة الشرق راح يتحدث مع والدته بشأن مغامرته القادمة الأمر الذي أثار حنقها وأبدت ضيقها، وناشدته البقاء شأنه شأن زملائه وأشقائه في وطنه، بيد أن لورانس طلب منها أن تصلي من أجل نجاح مهمته حتى يتسنى له الحصول على شهادة البكالوريوس من الكلية اليسوعية.

وفي عصر الثامن عشر من شهر يونيو ١٩٠٩كان لورانس المغامر على ظهر إحدى البواخر المنغولية المتجهة إلى ميناء بورسعيد في مصر.

وأثناء رحلته البحرية استطاع أن يحفظ العديد من المفردات العربية ومطالعة الدروس التي تلقاها في بلاده حتى لا يواجه أية عواقب بسبب غياب اللغة التي تعد حلقة الوصل بينه وبين أبناء تلك المنطقة التي يجهل أحوالها وظروفها،

وعاداتها، وفي أوائل شهر يوليو ١٩٠٩ رست السفينة التي تحمله إلى بيروت أمام السواحد اللبنانية بوصفها المحطة الأخيرة في رحلتها التي بدأت من بريطانيا.

كانت الجامعة الأمريكية في بيروت تضم العديد من علماء الآثار البارزين، وهو ما دفع لورانس للبدء في الاتصال بهم للوقوف على حقيقة الأمر حيث بدا الوقت أمامه مغلقًا بالغموض ومن ثم أضحى في أشد الحاجة لمن يزوده بالنصيحة، ويمد له يد المساعدة.

والواقع أن أساتذة الجامعة الأمريكية أخبروه أنه ما دام قد استقر في لبنان عليه بأن يقوم برلحة فورية على قدمية حيث اعتاد علماء الآثار على ذلك لتسهيل مهمتهم..

راقت الفكرة للورانس ورحب بها دون تفكير أو تردد عاقدًا العزم على الشروع فيها في أقرب فرصة خاصة وأن الملحق الثقافي لبلاده في العاصمة بيروت قد شرح له كيفية القيام برحلة طويلة على قدمية شأنه شأن كل من أراد أن يقف على حقيقة الشرق ودراسة تاريخه القديم، وقرونه الوسطى وأحواله وفحص حفرياته وآثاره.

وبعد أن نال لورانس قسطًا وفيرًا من النوم والراحة في أحد فنادق العاصمة اللبنانية بيروت نهض من نومه مبكرًا مفعمًا بالحيوية مملوءًا بالقوة عامرًا بالنشاط، وقد قرر البدء في رحلته الطويلة سيرًا على الأقدام قاصدًا مدينة صيدا، ومنها إلى النبطية، وفيهما اصطحب مرشدًا سياحيًا مقابل حفنة من المال ليرشده إلى قلعة بيوفورت، وبعد أن ظل بها فترة زمنية طويلة تفحص جدرانها ودرس حفرياتها وقرأ بعناية ودقة ما ورد على جدرانها وحقيقة تاريخ بنائها، ونشأتها.

وقصد منطقة نهر بانياس ثم توجه إلى (حنين وبنين) ثم صفد وبعدها إلى

القسطل، ثم هبط إلى وادي الأردن حتى وصل إلى البحر الميت، ولم يتوقف بل مضى في طريقه الشاق الوعر الطويل بين الوديان والتلال والجبال والصخور إلى الجنوب وترجل بعدها إلى الناصرة ثم وصل إلى عتليت.

بعد ذلك عاد إلى الطريق الساحلي بهدف اوصول إلى بلدة حيفا ثم تبعها بعكا حتى وصل إلى صور ثم صيداوأخيرًا بيروت التي عاد إليها مرة أخرى في الثاني من أغسطس وهو يشعر بالألم والحسرة من تلك الرحلة الطويلة التي استمرت نحو أكثر من ثلاثة أسابيع دون جدوى حيث تأكد أن هذه البلدان تخلو من المواقع الأثرية العريقة، ومناظرها الطبيعية جدراء تكسوها الجبال والمنحدرات والهضاب والصخور.

أثناء وجود لورانس في بلاد الشام استضافه أحد الرجال العرب الذي بذل قصاري جهده لتوفير سبل راحته ونومه بعد أن أحس بعنائه وكده حين علم أنه يطوف بلاد الشام سيرًا على الأقدام الأمر الذي أثار دهشة واستغراب السكان العرب الذين أحاطوا بالفتى الأوربي لورانس حيث راح بعضهم يتساءل وهو يضرب كفًا بكف عن سر إصراره على الترحال من هنا وهناك سيرًا على الأقدام طوال الأسابيع الماضية، وما الذي سيحصده بعد كل هذا العناء.

والواقع أن لورانس استهواه هذا الأمر حيث راح يؤكد لهم أنه كان يقطع يوميًا ما لا يقل عن ثلاثين ميلاً سيرًا على قدميه لعله يثير إعجابهم بعد أن فطن لضرورة التعايش والاندماج معهم إيثارًا للسلامة، وأملاً في بلوغ مراميه التي هاجر من أجلها، وتكبد المتاعب والمصاعب أملاً في الوقوف على حقيقتها في أرض الواقع بعيدًا عما يرد في المجلدات والدراسات والأبحاث التي قد تتجاوز أحيانًا حدود الواقع والمنطق.

على أية حال قرر لورانس البدء في المرحلة الثانية من رحلته، وقد تحرك فجر السادس من أغسطس أي بعد راحة استمرت نحو ثلاثة أيام فقط، وانطلق

قاصدًا مدينة طرابلس في الثاني عشر من نفس الشهر وقد استسلم للراحة بعدها داخل إحدى حجرات المدرسة التبشيرية الأمريكية في منطقة جبيل.

وفي أثناء وجوده داخل المدرسة التبشيرية تطلع لورانس إلى معرفة مناهج تلك المدرسة، وقد طابت له تواصلها وانخراطها مع أبناء تلك المناطق التي يكثر فيها عدد المسلمين الذين تأثروا بمناهج تلك المدرسة بعد أن تسللت إليهم في هدوء، وعبقرية فكان لها أبلغ الأثر في تنصير غالبية المسلمين، وقد علق لورانس قائلاً في زهو ونشوة على هذا الأمر قائلاً:

«إن هذه المدرسة تقوم بعمل رائع للغاية في شتى مدن وقرى فلسطين»

إنها كنيسة مشيخية بروتستانتينية تضم فريقًا من الرجال الأذكياء،وقد أكدوا لي أنه كان يتعذر عليهم في الماضي تحويل أبناء سوريا من المسلمين عن دينهم، لذلك قرروا فتح مدراس من أجل أبناء الطائفتين (المسلمين والمسيحيين) في جميع مدن البلاد وقراها، وكانت اللغة الإنجليزية هي الأكثر شيوعًا في سوريا، ومن ثم لم تكون الكنيسة المشيخية البروتستاتينية في عام الفتح مدراس تبشيرية حيث يوجد في أنحاء سوريا كليات كثيرة إلى جانب انتشارها أيضًا في مناطق آسيا الصغرى والقسطنطينية، وقد تم دعمها ذاتيًا والطابع الدنيي هو الذي يسيطر على هذه الكليات التبشيرية ولذلك فإن كل مدرسة في تلك البلدان تعد في الأساس محطة تبشيرية».

❁ ❁ ❁

في السادس عشر من أغسطس وصل لورانس إلى قلعة الحصن الشهيرة في سوريا، وقد أثارت إعجابه بعد أن تبين له أنها تعد من أروع وأجمل القلاع الموجودة في العالم.

كان لورانس قد شاهد من قبل قلاعًا عديدة في أثناء طريقه إلى طرابس

لكنها لم تكن بتلك الروعة والفخامة التي لمسها بنفسه في قلعة الحصن.

ظل لورانس في داخل القلعة ثلاثة أيام لفحصها بدقة ثم اتجه على أثرها إلى منطقة صافيتا وما بعدها، وقد لاحظ أنه بدأ يتأثر تدريجيًا بالعادات والمظاهر والسلوكيات العربية بعد أن أضحى طليق اللسان فيما يتعلق بشأن اللهجات الشامية التي أجادها ببراعة، وكادت أن تصبح لغته الأولى بعد إتقانه للإنجليزية والفرنسية.

وفي نهاية المطاف بعث إلى أسرته خطابًا يشير فيه إلى أنه قد فرغ من مهامه العلمية، وأنه بات قاب قوسين أو أدنى من نيل شهادته بعد اجتيازه هذا الاختبار الرهيب الذي واجه فيه عراقيل وعقبات ما كان يتصور وقوعها في طريقه فضلاً عن المخاطر التي صاحبته في تلك الرحلة من الحيوانات الضالة المفترسة التي استطاع التصدي لها وتخويفها من خلال مسدسه الخاص به، وما ترتب عليه من تخويف بعض الناس الذين انقضوا عليه عنوة في أحراش الجبال لسلب ما لديه من أموال ومؤن.

لقد أصبح لورانس عاشقًا لمثل هذه المغامرات ، وأصبح أسيرًا لها مأخوذًا بها، مجذوبًا إليها، وربما لذلك قرر أن يقوم برحلة في داخل البلاد السورية سيرًا على قدميه على أن تبدأ من اللاذقية وحتى مدينة حلب التي قطعها في خمسة أيام بعد أن مشي نحو مائة وعشرين ميلاً حيث كان يمشي كل يوم نحو ثلاث عشرة ساعة يوميًا تبدأ من الخامسة صباحًا عند ظهور خيط النهار الأبيض وحتى يرخي بهيم الليل سدوله، ويتعذر عليه المسير ليلتمس الراحة والنوم في أي مكان يستقر فيه يلتمس في الأمان والطمأنينة.

وقد اعترف لورانس في مذكراته أنه كان يصطحب معه مرشدًا أمينًا لحمايته وإرشاده بعد أن تعرض للعديد من الحوادث الخطرة التي كادت تودي بحياته.

بعد عناء السير على الأقدام بلغ لورانس مدينة حلب وقد التمس بها الراحة عدة أيام حتى قرر مواصلة السير إلى تركيا غير أنه قرر ألا يقصدها سيرًا على قدميه، ومن ثم قرر استئجار عربة يجرها حصانان يقودها أكثر من رجل وتوجه بهم جميعًا إلى منطقة أورفة في تركيا وقد استغرقت الرحلة عشرة أيام وصل خلالها إلى المواقع الأثرية العريقة التي تشتهر بها تلك المنطقة الخاصة بتاريخ الحيثين.

الواقع أن لورانس لم يذهب إلى هذا المكان اعتباطًا أو فضولاً منه بل كان قد توجه إليه بتكليف من معلمه وأستاذه (د- ج - هو جارت) الذي أعوز إليه بضرورة ألا يغفل عن زيارة هذا المكان الزاخر بالآثار القديمة وقد نصحه بضرورة شراء إن أمكن بعض القطع الأثرية التي يحتفظ بها أهالي تلك القرية لا سيما الذين تخصصوا في بيتها وتسويقها عبر السماسرة .

وبعد أن انتهى لورانس من مهمته توجه قاصدًا بلدة سروج على متن العربة الخشبية التي يقودها رجلين بواسطة حصانًا بيد أن لورانس تعرض للابتزاز وسرقة كاميراته الخاصة التي يلتقط بيها صور الأماكن الأثرية والمواقع التاريخية الأمر الذي أثار سخطه وتذمره حيث استولى عليه شعور بالضيق والامتعاض بعد أن فطن لقلة موارده وانعكاسات ذلك على أيامه القادمة.

على أية حال كان لهذه الحوادث أبلغ الأثر في إنهاء رحلته وتقرير مصيره النهائي بعودته إلى إنجلترا للتقدم بأوراق دراسته ومهمته وبعثته لاعتماده طالبًا ناجحًا مجتهدًا وباحثًا نشطًا.

وبالفعل عاد لورانس إلى بلاده عبر إحدى السفن البحرية التي رست للتزود بالوقود في ميناء نابولي (الإيطالي) وهو الأمر الذي دفع لورانس للتجوال في المدينة والتعرف على عادات أهلها وتقاليدهم وقد استرعى انتباهه رأس تمثال برونزي معروض للبيع نظير ثماني فرنكات ، ومن غير تردد قرر لورانس شراءه

في الحال واصطحابه معه إلى جامعة أكسفورد التي قبلته على سبيل الإهداء وأودعته في جناح تماثيل البرونز داخل المتحف البريطاني.

وراح لورانس يقص على أسرته تفاصيل رحلاته التي تتحدث جميعها عن سحر الشرق وروعته وجماله، وما تعرض له من أحداث ومواقف جادة ومثيرة، وعنيفة وعلى وجه الخصوص تلك التي تعرضت لسلامته الشخصية وكادت تودي به لولا أنه استطاع بشجاعة استخدام مسدسه الشخصي الذي بث الثقة والطمأنينة في نفسه.

وحين سألته والدته عن نومه أثناء رحلته أجابها بأنه كان يطرق بيوت البدو ليلاً وكانوا يرحبون به ويحتفون بقدومه بوصفه غريبًا ينبغي إكرامه وحسن ضيافته على اعتبار أن الشهامة والجود والكرم من أهم وأبرز مزايا ومناقب البدو وخصوصًا العرب على وجه العموم.

على أية حال تقدم لورانس بخرائط وصور وأوراق دراسته إلى جامعة أكسفورد لكي يحصل على البكالوريوس وقد سمى دراسته «القلاع الصليبية» وقد أشرف الدكتور هو جارث على الدراسة بنفسه، وأبدى امتنانه وإعجابه للجهود التي قام تلميذه النشط المجتهد لورانس الذي أصبح حاصلاً على بكالوريوس العلوم من جامعة أكسفورد البريطانية في الثامن والعشرين من يوليو ١٩١٠ .

❁ ❁ ❁

كان علماء الآثار والحفريات الإنجليز قد ترددوا كثيرًا على أحد الأماكن الأثرية القديمة في مدينة طرابلس المطلة على حوض نهر الفرات والتي اشتهرت بمنطقة «كركميش» تلك التي كانت في العصورالتاريخية عاصمة الحيثيين السورية.

وواقع الحال أن أبحاث علماء الآثار الإنجليز لم تكن جادة، بل كانت تفتقد

الأسس والقواعد العلمية التي ينبغي الاعتماد عليها أمام هذه المواقع الأثرية التاريخية العريقة فضلا عن أن تلك البعثات التاريخية لم تعتمد على تسجيل ملاحظاتها وتدوينها في سجلات علمية.

وفي العاشر من ديسمبر ١٩١٠ اتجه لورانس إلى بيروت على متن الباخرة سجالين، وقد توقفت السفينة في أثينا لعطل مفاجئ أصاب محركها وعلى الفور قرر لورانس أن يقوم بجولة سريعة يتفقد فيها آثار أثينا ورؤية (الأكروبوليس) حيث كان يتوق إلى مشاهدته وراح يتوجل في معبد أثينا، وقدم بتدوين عدد أعمدته ، وقد لاحظ أن البناء مألوف لديه، ولم يكن جامدًا وإن كان يبدو معقدًا وغير منتظم لكنه يتسم بالجمال والروعة.. لاحظ أيضًا أن كل زاوية من زوايا النحت والنقوش واضحة تحت ذلك الضوء، بل ثابتة لا تتحرك، وأكد لورانس في أوراقه الخاصة أن أثينا تتمتع بثروة هائلة وذكريات قد لاحقته على جدرانها القديمة أينما ذهب.

كانت جولة رائعة شعر حيالها بالروعة والرقة والعذوبة وسمو النفس حيث أدرك أثناء وجوده في قصر الفن أو معبد أثينا العظيم أنه سابح في عالم فقد فيه مشاعره وأحاسيسه كأنه فقد جاذبيته وراح يحلق بأجنحته في فضائه الرهيب.

❁ ❁ ❁

وبعد أن أنهى جولته الطارئة وعاد أدراجه إلى السفينة سجالين التي أبحرت في طريقها إلى بيروت وكانت قد توقفت مرة أخرى في ميناء القسطنطينية فهبط منها لورانس لمشاهدة آثار المدينة ومعابدها، وقصورها الفخيمة ومعابدها العريقة، وقد سحرته القسطنطينية بسحر آثارها وروعة حفرياتها، وإن لم تكن في سحر أثينا التي أسرته وأدهشته بعبق تاريخها.

وأخيراً حطت السفينة سجالين في ميناء بيروت ليلة عيد الميلاد.

وتوجه لورانس إلى جيسل لتعلم اللهجة السورية داخل إحدى المدارس الإرسالية الأمريكية وقد تلقى قواعدها على يد الآنسة فريدة العقل التي أكسبته المزيد من قواعد ومصطلحات اللغة العربية ومدام ريدر التي ساعدته كثيرًا في الإلمام ببعض قواعد ومفردات اللغة الفرنسية.

بعد أن أتم لورانس إلمامه باللغة العربية والفرنسية اتجه إلى مدينة حلب للحاق بأستاذه (هو جارت) الذي كان يقول عنه:

(لقد كان شخصًا مهمًا للغاية في حقيقة الأمر لا سيما فيما يتصل بشأن معرفته بالجغرافيا العربية.. وهو يعرف جميع أنحاء سوريا عبر ما تردد على مسامعه، وما قرأه في مختلف الكتابات،وقد ساعدنا ذلك على معرفة كافة القمم الجبلية والوديان، والطرق الرئيسية).

كانت المنطقة كلها معرضة طوال ساعات النهار لأشعة الشمس وقد تناولنا معًا فطارًا فرنسيًا في مطعم المحطة، وأعجبني السيد هوجارت حين لاحظت أنه يجيد ببراعة وطلاقة التحدث باللغات التركية واليونانية والفرنسية والإنجليزية والألمانية والإيطالية.

المهم أننا بعد أن تعرضنا لصعوبات وعقبات أثناء رحلتنا بسبب تدهور الأحوال الجوية وصلنا إلى طرابس في الحادي عشر من شهر مارس.

كـــان لورانس يبدي قدرًا هائلاً من الاهتمام عقب وصوله إلى كركميش وذلك لفحص خزفيات القرون الوسطى على غرار ما كان يجري في أكسفورد والواقع اهتمام لورانس بالفخاريات التي تم اكتشافها حديثًا كان يتواءم مع ميوله وأهوائه.

في تلك الأثناء كان لورانس يتحدث العربية بطلاقة وبشكل دائم مستمر، وقد

راح يبعث لأسرته خطابًا يشرح فيه برنامجه في كركميش قائلاً:

«إن العمل هنا يبدأ في تمام الساعة السادسة صباحًا حيث إننا نبدأ في تناول طعام الإفطار قبل أي شيء ثم سرعان ما نترجل بضع دقائق.. كان ثومبسون يقوم بعمل مسح شامل للمكان وسوف ينتهي من مهمته في غضون أسبوع أما بخصوص السيد هو جارت فهو يتولى تدوين وتسجيل النتائج أما أنا فأقوم برسم النقوش والتماثيل وأتولى توجيه شؤون العمال.

ثم تواصل العمل طوال ساعات النهار باستثناء ساعة للراحة من أجل تناول طعام الغذاء، ثم نعود أدراجنا لمواصلة العمل حتى ساعة مغيب الشمس بعدها نتوجه إلى البيت، ونقوم بكتابة التقارير وعمل الكتالوجات، وبعد أن نفرغ من تلك المهمة نتناول طعام العشاء ثم نذهب إلى الفراش نلتمس مجيء النوم..

بالمناسبة يا والدي.. لقد شغلنا أنفسنا أثناء وجودنا في البيت حيث استطعنا القيام بعمل عدد من الرفوف وتركيب بعض الأبواب والنوفذ وأشياء أخرى... في الواقع كنت أقوم بأداء هذه الأعمال من خلال استخدام الطرق والوسائل البدائية واليدوية وقد تسبب ذلك في إهدار العديد من الألواح الخشبية التي شوهت عملية الرسم حتى التقاط الصور حيث كثيرا ما كنت أبذل قصارى جهدي للقيام برسم مساحة أكبر بهدف إعادة الانتاج، وكان هذا في الواقع يعد عملاً ضخما ذلك لأن ترميم رأس أسد مثلا يعتبر عملا رائعاً ومثيرا من الناحية الفنية وذلك ينطبق أيضا على ترميم أحد الآلهة القديمة أو تمثال لأحد الملوك القدامى،

المنطقة هنا ذات طبيعة ساحرة وخلابة فما أروع الينابيع المائية كنهر الفرات، وسهل تل الأحمر وجبال طوروس التي يكسوها الثلج.

كان لورانس يشعر بالسعادة والبهجة طوال وجوده في تلك الأماكن الساحرة وكان لا يمل من كتابة الخطابات التي يبعث بها إلى أسرته والتي كانت تحتوي

على حكايات نادرة وقصص مثيرة وكان يصف حياته بقسوتها وغلظتها التي يعيشها مع رفاقه وقد كتب في هذا الشأن لأسرته قائلا: «إن البيت الذي نعيش فيه قد بني من الحجر وأما سقفه فهو مرفوع بمواد طينية وكانت أجزاء صغيرة تتساقط من السقف طوال ساعات النهار.. والمثير أن الطيور تعشعش فيه إلى جانب العديد من القطط التي كانت تدخل بواسطة ثقوب في السقف والجدران وتهاجمنا بعنف.

وكان هوجارت يقوم بقذف حذائه باتجاهها فيصيب ثومبسون.. أو يصيب المصباح ويطرحه أرضا، وعندما يقوم بإصلاح الخراب ويعود إلي فراشه ليفاجأ بوجود قط يتمدد عليه.. هذا بخصوص القط.. أما القطة فقد تكون كئيبة وسخيفة فهي تموء بصوت مرتفع من أجل الطعام وفي أغلب الأحيان يكون ذلك في الساعة الثانية صباحا.

أما إذا كنت ساهرا فإني كثيرا ما أشفق عليها وإذا أيقظتني أنياب مخالبها في وجهي فإنها توقظ بقية أعضاء البعثة (الذين ينامون جميعا في مكان واحد ومعهم مسدساتهم مليئة بالرصاص) بسبب صراخي المرتفع والذي لا يتوقف طوال الليل ثم سرعان ما تهرب بواسطة النوافذ.. أما إذا كنت نائما فيتغلب عليها طابع التسامح غير أن بقية أعضاء البعثة يستيقظون عدة مرات في الليلة وقد أشهروا مسدساتهم في كل مرة!!

وبمرور الوقت وجدو لورانس نفسه يميل بقوة إلى النظام الذي اتخذه سبيلا له في كركميش حيث كان نشاطه العملي متوافقا مع نزعاته الأدبية لاسيما الانكباب على المطالعة والقراءة فضلا عن ميوله نحو سكان سوريا الذين انجذب إليهم وأبدى قدرا لا بأس به من الاهتمام يفوق اهتمامه بعلوم الآثار!!!

حتى أنه حرص على مرافقة (السلابين الرحل) أو الغجر وقد تحدث حول ذلك قائلا «إن السلابين المتنقلين ليسوا من الغجر بل إنهم لا يملون من تكرار

نفيهم المستمر بأنه لا توجد أية رابطة بهم بل هم وثنيون من سكان منطقة الجزيرة العربية الأصليين وهم يشتهرون بالتنقل والترحال سيرا على الأقدام وبعضهم يمتلك ثروة وقوافل هائلة من الجمال فضلا عن أنهم يجيدون صيد الغزلان ويتميزون بسخائهم لضيوفهم كما ليسوا متشددين رغم احتقار العرب الشديد لهم وتبرؤهم منهم.. إنهم بدائيون في حياتهم.. ما أروع قصائد الشعر التي يصوغها شعرائهم في الحياة هنا فقط أقصد في بلاد العرب لاتزال تتضمن الشعر القديم الذي يسهل قراءته.

إن قضاء فصلي الربيع والصيف برفقة عرب الصحراء سوف يضاعف من خبراتي رغم أني لا أعتزم تأليف كتاب عن ذلك الأمر.. ولن أتوغل كثيرا في الحياة العربية فأنا بطبعي لا أميل إلى تشويه الأساطير وتحريفها بحجة دراسة علم الإنسان».

في الثامن من شهر أغسطس غادر لورانس بصحبة عالم الآثار ثومبسون إلى مدينة طرابلس للراحة والاستمتاع بمناخها بعيدا عن قسوة العمل في كركميش وبهدف القيام بفحص الآثار في منطقة تل الأحمر.

وقد قام لورانس خلال تلك الرحلة ليشاهد القلاع الصليبية المتناثرة في مناطق أورنة وحران وبيريدجيك ورم قلعات وقد أبدى العديد من الملاحظات التي تتعلق بالعمل الإبداعي والفني والبناء الهندسي في مفكرة كان يحتفظ بها في نهاية شهر يوليه عاد إلى طرابلس لإنهاء أحد الأعمال الحفرية التي كانت تنتظر مجيئه رغم أنه قد أصيب بالدوسنتاريا آنذاك وقد أدرك بعد أن داهمته أنه لن يستطيع القيام بأداء مهام عمله كما ينبغي..

وحين اشتدت الآلام على لورانس تعذر عليه مغادرة فراشه حتى أن رئيس العمال الذي كان يدعى الشيخ حمودي هو الذي تولى العناية به وبمراعاته حتى يتماثل للشفاء.

وقد علق لورانس على تلك الوعكة الصحية في دفتر يومياته قائلا: [إن الشيخ حمودي كان رجلا رائعا حيث أبدى بالغ اهتمامه بي في أثناء تلك الوعكة والتي ألمت بي طوال الأيام الفائتة حيث قد منحني وقته وسعة صدره ورحابة صدره من أجل مساعدتي ومؤازرتي في محنتي.. كان هذا الرجل المسكين كثيرا ما يضاعف من جهده ووقته حتى يتمكن من تكريس فكرة ما في رأسي!!

المهموم وكنت في أغلب الأحيان أتفهمها قبل أن يدور بحديثه حولها.. كان الرجل يحاول جاهدًا إطعامي في الليل قمحا مسلوقا مع الحليب المغلي بشكل رائع ثم جاء داحوم ليعودني.

وفي تعليقه على أوضاع المنطقة يقول لورانس في إحدى رسائله التي اعتاد أن يبعث بها إلى أفراد أسرته طوال فترة وجوده خارج انجلترا..

«لحسن الطالع لم يكن يوجد بعد أية مؤثرات خارجية (أجنبية) في تلك المنطقة رغم أنك هنا مضطر قسرا لمشاهدة الدمار والخراب الذي كان وراءه النفوذ الفرنسي والأمريكي بدرجة أقل ومن ثم ستجد نفسك راجيا ألا يتوسعا ويمتدا.. وكانت سوقية العرب شبه الأوربية مروعة.. حيث كان من الأفضل ألا يتصل أحد أو يصطدم بالعرب حيث إن الأجانب قد جاءوا هنا للتعليم دائما في حين كان عليهم اكتساب العلوم بصورة أفضل.. حيث إن العرب كانوا هم الأفضل بصورة عامة في كل شيء خصوصا فيما يتعلق بشأن الذكاء والمعرفة».

كان لورانس قد وثقت علاقته الإنسانية بالشيخ حمودي الذي كان ملازما له أثناء محنته الصحية والفتى دوحان الذي استضاف لورانس في بيته خلال فترة مرضه وكان دوحان يتردد عليه بانتظام خلالها للاطمئنان عليه خاصة وأن لورانس كان النموذج والمثل الذي يتطلع إليه الصبي الذي لم يبلغ الرابعة عشرة من العمر.

لقد كان موقف الشيخ والصبي ذا تأثير بالغ على مشاعر لورانس الذي أحس أنه لولا مساندتهما له في وعكته لكان قد لقي حتفه ومن ثم ظل لورانس بداخله امتنان وعرفان ومحبة بالغة لهما.

وتجمعت تلك المشاعر التي كان يحملها لورانس في صدره إزاءهما بأن أغدق بالمال على الشيخ حمودي وراح يرعى الصبي دوحان حتى يتمكن من اكتساب العلوم والمعرفة وقد قرر أن يبعث به إلى مدرسة الإرسالية الأمريكية في مدينة جيسك لمساعدة دوحان والنهوض به وذلك عبر رسالة بعث بها لورانس إلى المدرسة قال فيها:

«لقد بدأ الفتى (دوحان) يجيد استخدام عقله ومواهبه الفطرية ومن ثم لاحظت أنه تمكن من أن يعلم نفسه قليلا من القراءة رغم أنه لم يكن يعرف شيئًا من المواد التعليمية باستثناء بعض المعلومات البسيطة للغاية،

الواقع أنني بذلت قصارى جهدي معه حتى يستطيع أن يقرأ ويتمكن من الإلمام بقواعد الكتابة وأصولها... وربما أنكم تعلمون أنه لا تستطيعون صنع الكثير من خلال استخدام العصا والجلوس على الأرض التي لا تخلو من التراب والغبار لتلقي العلم.. وأنا أتوجه إلى الآنسة فريدة من أجل تقديم عدد لا بأس به من الكتب المسلية والبسيطة بالنسبة (لدوحان) حتى يبدأ أن يتعلم من خلالها وأرجو منكم أن تضعوا في اعتباركم أنه شخص مسلم».

وفي رسالة أخرى بعث بها لإدارة مدرسة الإرسالية راح لورانس يقول:

«إن ما أصبو إليه بخصوص الفتى (دوحان) هو كتاب في التاريخ أو الجغرافيا مطبوع باللغة العربية يعتمد على القراءة السهلة والبسيطة ولا يتضمن أية مفردات أو أساليب أو زخارف أفرنجية فأنا لا أتمنى لدوحان سوى إتاحة الفرصة له من أجل أن يساعد نفسه أما بشأن التعليم فلدي الكثير منه..

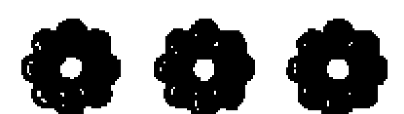
ويمكنني القيام بذلك دون الحاجة لحضوركم»

بعد أن أنهى لورانس دوره في خدمة (دوحان) قرر العودة إلى بلاده لقضاء إجازة طويلة بجوار أسرته حتى يستطيع أن يسترد عافيته التي فقد الكثير منها أثناء اصابته بداء الدوسنتاريا لاسيما وأنه لايقوى على مواصلة أعمال الحفر والتنقيب في شهور الصيف.

وفي الثالث من شهر أغسطس توجه لورانس إلى مدينة طرابلس ثم انطلق منها إلى بيروت فدمشق ثم عاد منها إلى بيروت في ١٢ أغسطس متوجها على متن إحدى السفن التي أبحرت به إلى ميناء مرسيليا ثم مضى إلى انجلترا بواسطة المواصلات البرية

كان لورانس يشعر بالوهن والضعف حيث افتقر إلى الرعاية الصحية والغذائية ومن ثم رأى أن بقاءه بجانب عائلته سوف يستعيض به الأيام التي مرت عليه كأنها دهر لما حفلت به من الآلام مبرحة وتحديات جسيمة ومناخ شديد القسوة والغلظة

أثناء تلك الاجازة قرر لورانس أن يتفرغ لطباعة كتابه الرائع والخطير الذي صدر تحت عنوان «القلاع الصليبية» وقد احتوى هذا المجلد الضخم على مخطوطات نادرة وصور فوتوغرافية رائعة ودراسات موثقة برهنت على إجادته وبراعته ونجاحه في كيفية البحث والفحص والتنقيب في عالم الحفريات والآثار..



عودة لورانس

في أغسطس عام ١٩١١ عاد لورانس إلى طرابلس غير عابئ بوعكته الصحية التي لا زال يشكو منها،وقد نصحه البعض بزيارة مصر على متن إحدي السفن لمشاهدة آثارها الفرعونية والمومياء المحنطة التي تشتهر بها المقابر الفرعونية القديمة، وقد توجه فور وصوله ميناء الأسكندرية إلى القاهرة، ومنها إلى قرية كفر عمار المكتظة بالآثار والحفريات الفرعونية.

في أعقاب وصول لورانس إلى كفر عمار راح يشارك (بيترسيه) عالم الآثار الشهير في أعمال التنقيب والبحث التي يقوم بها بيد أن الأعمال في كفر عمار لم تكن تطيب له لا سيما وأنه كان يمقت حفريات المقابر، ومن ثم كان يقول معلقًا على ذلك الأمر:

«إنه مشهد غريب حيث ترى الرجال يجبرون على فتح التوابيت الخشبية لاستخراج المومياوات المغلقة والمحنطة التي تكون في الغالب جثثًا لأناس غير مشهورين، وذات بشرة قاتمة اللون تنبعث منها رائحة كريهة ثم يبدؤون بتقطيع هذه الجثث إلى قطع صغيرة وينتهي بهم الأمر بتمزيق رأس المومياء بهدف الوصول إلى الجمجمة لتتساقط الأعضاء والأطراف، وما أفظع الروائح التي تصدر خلال ذلك ، وما أبشع مشهد تقطيع الجثث».

ويواصل لورانس تعليقه على ذلك بقوله:

«إن الحفريات هنا تختلف عن تلك التي في كركميش حيث إنها هنا تتسم بالبساطة والسهولة، ومن ثم لا توجد لديهم أية عوائق أو تعقيدات في الحفر

عميقًا أو على المستويات الأرضية وسأكون سعيدًا حال عودتي إلى سوريا، وكان هوجارت بارعًا حين أعد الإجراءات اللازمة لعودتي السريعة إذ إنني لا أهوى سرقة المومياوات فلدينا الآن كومة هائلة من الجماجم كأننا أصبحنا أحفاد السفاح جنكيز خان»!

قضى لورانس أسبوعًا كاملاً بمصر وقد ضاق ذرعًا من البقاء بها حيث شعر حيالها بالضيق وعدم الارتياح رغم سعادته بالعمل تحت إشراف العالم الشهير بييتريه الذي كان يحمل له حبًا كبيرًا لبراعته ونبوغه وعبقريته في علوم الآثار والحفريات.

على أية حال غادر لورانس كفر عمار في أواخر شهر يناير وهو يشعر بالسخط من مصر وأهلها، وهو مالا يستقيم مع العقل والمنطق حيث قلما أن يمقت مصر وأهلها كائن من كان إلا إذا كان هذا المرء شاذًا وغريب الأطوار فضلاً عن أنه كان شخصيًا يصعب قبوله ومحبته وفقًا لآراء الغير.

لقد حبا الله مصر سحر طبيعتها وعبق تاريخها وروعة مناخها، وطيبة أهلها، وحسن ضيافتهم، وفرط نخوتهم، ومرونتهم، وشجاعتهم .

ربما كان لورانس لا يطيب لأحد من أهل مصر رؤيته أو مخالطته، أو العمل معه لسبب أو لآخر أدى إلى نفور لورانس واستيائه من البقاء بمصر أو التآلف مع أهلها.

وفي الخامس من فبراير كان لورانس يهبط من درجات سلم السفينة الراسية على شاطئ طرابس بعد رحلة غير شاقة قطعها من ميناء الأسكندرية.

وفور وصول لورانس إلى مسكنه تلقى خطابًا يفيد رفض قائمقام منطقة بيريدجيك منحه تصريحًا كان قد سبق أن طلبه بالموافقة على بناء منزل يضم علماء الآثار بيد أن لورانس اكتشف أن القائمقام كان في حاجة إلى رشوة الأمر

الذي دفعه للتذمر والشكوى من هذا السلوك حيث بعث إلى القسطنطينية التي أرسلت لومًا وتوبيخًا شديد اللهجة للقائمقام الذي رضخ واستجاب للتعليمات التي وردت من القسطنطينية.

وفي أوائل شهر أبريل شرع لورانس ومعه العالم الأثري وولى في بناء بيت علماء بعثات الآثار، وقد شيد البيت على طراز رفيع المستوى وضم العديد من الغرف المخصصة لاستضافة الباحثين وأخرى خصصت لتحميض الأفلام والأثريات.

كان لورانس في تلك الأثناء قد أضحى بارعًا في التحدث باللغة العربية ولهجاتها المختلفة فضلاً عن تشعب علاقاته التي امتدت إلى جميع القرى وسكان القرى المجاورة، وقد تعمد البقاء في شهري يوليو وأغسطس رغم توقف العمل من أجل اكتساب المزيد من اللغة العربية ومفرداتها ثم قرر بعدها العودة إلى بلاده لحضور الاحتفال بأعياد الميلاد.

في أثناء فترة توقفه عن العمل تمكن لورانس لتبديد الوقت واستخراج أكثر من ألف قطعة أثرية ، وقد تولى آنذاك جميع مراحل تلك العمليات التي استغرقت وقتًا طويلاً.

كما استطاع لورانس نقش قرص الشمس على باب عتبة باب غرفة الطعام بواسطة مفك وسكين وقد بدا الشكل الذي نقشه لورانس قديمًا قدم الآثار التي خلفها الحثييون، وكثيرًا ما كان يزعم بأن هذا النقش من الأزمنة القديمة، وقد لاقت دعابته قبولاً لدى زوار المكان الذين لم يكن من بينهم حاذق يستطيع كشف مزحته إلا بعد أن يكشف هو النقاب عنها طواعية.

أثناء ذلك نما إلى علم لورانس أن الألمان بصدد تدشين خط حديدي ضخم يربط بين بغداد وبرلين، وقد فطن لورانس لخطورة هذا الخط الاستراتيجي

وتداعياته الخطيرة على إنجلترا عسكريًا واقتصاديًا، ومن ثم راح لورانس يفكر في حيلة تعرقل امتداد هذا المشروع الخطير الذي يصب في مصلحة الألمان.

وعلى الفور أصدور لورانس أوامره إلى عماله بنقل الأنابيب الضخمة على ظهور الجمال إلى التلال الرملية التي تجاور المنشآت التي يتولى تشييدها الخبراء والعمال الألمان.

عقب وصول الأنابيب التي تميزت بفوهاتها الواسعة قرر لورانس تصويبها نحو المنشآت الألمانية وكأنها فوهات مدافع نصبها الإنجليز بهدف بث الرعب في قلوب الألمان .

الغريب أن هذه الفكرة التي لاقت قبولاً لدى الدكتور (وولي) والعمال العرب قد حققت أهدافها على النحو المراد والمنشود حيث ظن الألمان بالأمر سوءًا وراح رؤساؤهم يبرقون إلى القسطنطينية لإطلاعها على ما يجري من حولهم وما قد تسببه هذه المدافع أو الأنابيب التي ظنوا أنها مدافع!!

كان لورانس كثيرًا ما يتندر بتلك الحكاية التي خلعت قلوب الألمان وسط ضحكات وتهكمات وقفشات ساخرة وضاحكة كانت تتساقط بينه وبين العمال الذين شاركوه في تلك اللعبة.

كان لورانس يستشيط غضبًا من بناء هذا الخط الحديدي حتى إنه قد حزم أمره، وتوجه إلى القاهرة حين علم بنبأ تدشين الخظ بموجب موافقة بريطانية وروسية وفرنسية وألمانية وتركية منحه حق الإشراف على ميناء الأسكندرية لإطلاع اللورد كتشنر على المخاطر الناجمة عن هذا الأمر.

وخلال الحديث الطويل الذي دار بينه وبين اللورد كتشنر راح لورانس يستفسر منه متسائلا عن الدوافع التي اضطرت بلاده للموافقة على منح الألمان هذا الحق لاسيما وأن رئيس وزراء بلاده بنجامين درزائيلي أكد في خطابه الذي تلاه مؤخرا

حول السلام العالمي «أن الذي يبسط نفوذه على ميناء الأسكندرونة هو الذي يستطيع أن يحدد مصير السلام في كافة أنحاء العالم».

من جانبه أجاب اللورد كتشنر في لهجة لا تخلو من الشعور بالمرارة قائلاً: [لقد سبق لي أن وجهت محاذيري لرؤسائي في لندن عدة مرات ولكن كانت تحذيراتي تذهب أدراج الرياح دون أن يعبأ بها أحد هناك وأظن أن هناك حربا شاملة وعنيفة سوف تقع بعد عامين من تلك اللحظة المثيرة والخطيرة ذات الأهمية القصوى لكن ماذا أصنع يا عزيزي الشاب الوطني لورانس إذا لم يكن هناك من يرهف السمع إليّ وإنذراتنا رغم خطورتها؟!

وما من شك أن اللورد كتشنر قد كان كمن يرجم بالغيب حيث اندلعت الحرب العالمية الأولى بعد عامين بالتمام والكمال في عام ١٩٧٤ وكانت حربا ضروسًا حصدت أرواح الملايين وأصابت أضعافهم طوال سنواتها الأربع.

الحاصل أن لورانس قد عاد لتوه من القاهرة بعد هذا اللقاء الذي ألقى بظلال كئيب على لورانس حيث أصابه القهر عقب سماعه كلمات اللورد كتشنر التي دلت على أن اليأس قد استبد بالرجل وأن بلاده تمضي نحو مجهول ولا تدري ماذا يراد لها على يد أعدائها الذين يتربصون بها في تلك المنطقة ويدفعونها لخوض غمار حرب شاملة حامية الوطيس قد تهدر طاقتها وتقضي على مواردها وثرواتها وتسدل الستار على نفوذها وسيادتها في تلك المنطقة التي بسطت نفوذها عليها منذ سنوات مضت.



الفصل الرابع

لورانس .. ضابط مخابرات

في إحدى ساحات مدينة دمشق السورية احتشدت جماهير غفيرة لمشاهدة لحظات تنفيذ حكم الإعدام الذي أصدرته السلطات التركية إزاء بعض المناضلين والمجاهدين السوريين الذين ضحوا بأرواحهم فداءا لتحرير وطنهم من أغلال البطش التركي العنيف.

في تلك الأثناء كان الأمير فيصل [١] قد تقدم الصفوف الأولى برفقة الحاكم التركي جمال باشا الذي بدا لمن حوله سعيدا مبتهجا لا يعبأ بمشاعر الجماهير المحتشدة وبكائها وصراخها حزنا وأسفا على أبطالها الذين تدلت أجسادهم على حبال المشانق كأوراق الشجر.

والحاصل أن الأمير فيصل قد ساءه ابتهاج الحاكم التركي وأحزنته بكائيات وآهات الشعب السوري حتى بدا كمن سقط في بحر هائج مضطرب لا يدري أين المفر ولولا ضحكات جمال باشا لمضي الأمير فيصل على حاله متماسكًا صابرًا، صامتًا، أو متظاهرًا بكل ذلك.

() أحد أبناء الشريف حسين

لكن جاءت الرياح بما لا تشتهي السفن حين وقعت عين الأمير فيصل على صبي لم يكن قد تجاوز الحادية عشرة من عمره وهو يتقدم بخطى بطيئة نحو المشنقة الأمر الذي أثار حنق فيصل حتى التفت نحو جمال باشا الذي لم تكن الابتسام قد فارقت وجهه الأحمر بعد ليقول له في غضب بعد أن ضاق صدره ، وجف صبره واعتصر الألم قلبه، واستحوذ الهم رأسه وكسا الحزن وجهه فترقرق الدمع من عينيه قائلاً بصوت جهوري:

إن أعمالكم الوحشية وتصرفاتكم المشينة ستحملكم ما لا تطيقون.. ألستم على يقين بأن الله سيصب عليكم جام غضبه لينتقم لهؤلاء ، أم أنكم ظننتم ألن يقدر عليكم أحد؟!»

وصاح جمال باشا الذي باغتته كلمات الأمير فيصل قائلاً في لهجة حادة وقاسية:

إن تغفل عن ارتدائك البزة العسكرية التركية لم تكن تدري وأنت تتحدث معي هكذا بكلمات من شأنها أن تقودك لتلحق بهؤلاء المجرمين!!

وعلى الفور أشار جمال باشا بأصبعه إلى قائد حراسته لإلقاء القبض على الأمير فيصل الذي تم اقتياده مكبلاً بالأغلال إلى أحد السجون السورية عقابًا له علي ما تفوه به أمام جمال باشا، وظل الأمير فيصل يترقب لحظة إبلاغه بتنفيذ حكم الإعدام أو الإفراج عنه، حيث كان قد ضاق ذرعًا بالزنزانة الانفرادية التي احتجز بداخلها.

ونظرًا لأهمية الأمير فيصل ورفعة مكانته بين الجميع راح بعض الضباط الأتراك الذين تربطه بهم أواصر صداقات عميقة يتوسطون لدى الأستانة بهدف إطلاق سراحه تفاديًا لغضب عارم إذا ما واجه حكمًا بالإعدام بناء على رغبة جمال باشا وما يمكن أن يؤثر على حالة الاستقرار والهدوء بفعل السياسة

القمعية التي تمارسها قوات جمال باشا.

وعلى ضوء الوساطة التي قام بها أصدقاء فيصل قامت السلطات التركية بالإفراج عنه بعد أن قضى في محبسه بضع أسابيع.

والواقع أن هذه الفترة التي قضاها سجينًا ضاعفت من كراهته للنظام التركي، وزادت من حب الشعب السوري له حيث كان البعض تساوره الظنون حول موقف فيصل من القوى الوطنية السورية باستثناء بعض رموز تلك القوى الذين كانوا على يقين من وطنية فيصل بيد أنم رفضوا الإفصاح عن ذلك حرصًا على حياته من البطش التركي ولكي يسترق دعم الثورة الوليدة سرًا دون أن ينكشف دوره.

على أية حال خرج فيصل من محبسه ، وقد أرسل لوالده كما كان معتادًا عدة تقارير تدور حول الأوضاع السياسية والعسكرية في سوريا ومستقبل الثورة الوطنية التي يتطلع إيها لإنهاء الحكم التركي إلى الأبد.

كانت مراسلات فيصل التي تحتوي على تقاريره يبعث بها سرًا عبر بعض خدمه الذين يدينون له بالولاء حيث كان هؤلاء الخدم يتميزون بالبراعة في إخفاء هذه لمراسلات داخل أغماد سيوفهم أو بين نعلي أحذيتهم أو في داخل صناديق الكعك السوري وأحيانًا كان يكتب تقاريره على أغلفة الطرود بالحبر السري.

❁ ❁ ❁

في تلك المرحلة كان لورانس يشعر بأن دوره قد حان لوقت لممارسته على الوجه الأكمل لخدمة بلاده لا سيما وأن تركيا قد أعلنت الحرب على بريطانيا العظمى وأن زمن الخلافة الإسلامية الذي تقوده تركيا منذ قرون طويلة قد أوشك على الاندثار بوصف ذلك أمنية تداعب أحلام جميع سادة أوربا على مختلف معتقداتهم وآرائهم حيث كانت تركيا هي الشوكة التي تقف في حلق هؤلاء

لجسارتها وقدراتها، وصلابتها وامتداد وتوسع إمبراطوريتها.

والواقع أن تركيا هي التي أطلقت الرصاص على صدرها وأسدلت الستار بيديها بفعل سياستها الفشيمة مع رعاياها في مختلف الأقطار الإسلامية فضلاً عن انكفاء سلاطينها على ملذات الدنيا، ومحاسنها ، ومباهجها، وزينتها، وزخفرفها حتى ترنحت دولة الخلافة على أيديهم الناعمة ومن ثم تهيأت الأجواء أمام حركة تركيا الفتاة المعادية للإ«لام، والمدعومة من البلدان الأوربية.

والثابت أن الممارسات القمعية المشينة التي مارستها السلطات التركية في جميع البلدان الإسلامية، ولا سيما العربية قد دفع القوى الوطنية التي أيدتها الشعوب إلى ضرورة التخلص من براثن هذه الوصاية التي جاوزت حدود العقل والمنطق.

وما من شك أن الشعوب الإسلامية كانت ولا تزال تتطلع إلى زمن الخلافة الإسلامية التي ينضوي الجميع تحت لوائها شريطة أن تتحلى بالعدل والحرية والمساواة بدلاًمن السياسات العنيفة التي تخلت عن أسمى مبادئ الإسلام فأجمعت الشعوب على ضرورة التخلص منها.

من هنا ظهر غلاة العلمانية يقودهم كمال أتاتورك مؤسس ما اصطلح عليه (بتركيا الحديثة) التي لا تعترف بالإسلام ديناً لتتهاوى دولة الخلافة بيد أن أحداً لم يبك على هذا الصرح الذي تساقط من عل كما بكى أبو عبد الله الذي سقطت الأندلس على يديه حيث راحت والدته تدخره بقولها:

«ابك يا أبا عبد الله بكاء النساء عل ملك لا يضيع من أيدي الرجال».

نهايته .. نعود إلى سيرة ورحلة صاحبنا لورانس الذي بلغت شهرته الآفاق كعالم آثار مع كوكبة من العلماء الذين رافقهم طوال سنوات بحثه واستغراقه في عالم الآثار والحفريات من أمثال لوبري هربرت وكورنواليس ومارك سايكس ونيو

كويس حتي وصلت شهرته إلى السير جليبرت كلايتون.

لم يتردد السير كلايتون بحسه الاستخباراتي من استدعاء لورانس إلى مكتبه بمقر القيادة العليا للجيوش البريطانية في القاهرة.

كان كلايتون قد تلقى معلومات تشير إلى معرفة لورانس للمنطقة العربية من خلال رحلاته الاستكشافية ومدى ارتباط الوثيقة مع سكانها ومعايشته لحياة أهل البادية والحضر معا دون أن يتململ لاختلاف البيئة التي ترعرع بها ونشأ فيها مع البيئات البدوية في المنطقة العربية.

لقد أدرك كلايون أن لورانس هو الكنز الثمين الذي عثر عليه وذلك لثرائه الشديد في العلاقات التي استطاع تكوينها مع رموز ومشايخ وقادة القبائل ورؤساء المدن في تركيا وسوريا وفلسطين، ولبنان والعراق، والسعودية، فضلاً عن إجادته التامة للغة العربية ولهجاتها المختلفة ودرايته بعادات وتقاليد سكان تلك المناطق.

في أعقاب اللقاء الذي جمعه مع السير كلايتون تلقى لورانس نبأ تعينه في دائرة الخرائط إحدى الأقسام التابعة لرئاسة القوات الإنجليزية في الشرق الأوسط لمعرفته الوثيقة بجغرافيا الشرق الأوسط، وقد اعتبره ضابط قسم الخرائط مرجعهم الوحيد للوقوف على حقيقة ما لديهم من خرائط ومعرفة إذا كانت دقيقة أم لا؟

كان لورانس لا يتردد أيضًا في إبداء رأيه في الخطط التي يرسمونها، وكانوا يتقبلون آراءه بصدر رحب نظرًا لذكائه المتميز والملحوظ حيث كثيرًا ما أرشدهم إلى أخطائهم التي تتعلق بالجغرافيا العسكرية، بل الأجواء السياسية و المناخية والاجتماعية التي ينبغي وضعها في الاعتبار عند اتخاذ القرار المناسب.

لقد تمكن لورانس من إبراز دوره وسط الضباط الذين أشادو بعبقريته وعلومه العسكرية وإلمامه بكافة الحصون والمواقع العسكرية التركية المنتشرة في المناطق النائية.

على أثر أداء لورانس المتميز ومعلوماته المتدفقة تلقى قرارًا جديدًا من السير كلايتون يقضي بنقله من دائرة قسم الخرائط إلى قسم المخابرات السرية في المواقع التي يحتلها الأتراك ويحفظها لورانس عن ظهر قلب، الأمر الذي أدى إلى تنصيبه رئيسًا لأحد فروع الدائرة .

بدأ لورانس مهام عمله بالانكفاء على الخطط والخرائط والرسومات للوقوف على حقيقة الموقف العسكري بين بلاده وتركيا ومن ثم كان لورانس قد بدأ في جمع المعلومات المتعلقة بتحركات الجيش التركي وتزويد القائد العام بها أولاً بأول، وذلك من خلال توظيف علاقاته مع شباب البدو الذين كان يرتبط بعلاقات وثيقة معهم.

❁❁❁

كانت الحرب العالمية الأولى لا تزال مشتعلة وقد توحدت خلالها أهداف لورانس وآماله مع أحلام العرب وأمانيهم في القضاء على دولة الخلافة الإسلامية وتصفية الحلم الألماني في السيطرة الكاملة على جميع أنحاء العالم.

ورغم ذلك فقد كان لورانس يرى بدهائه أن فرنسا هي العدو الأول لبلاده لا سيما وأنه يدرك مدى الأطماع الفرنسية لبلاد الشام التي يحلم بضمها إلى مستعمرات بلاده، وتحريرها من قبضة الأتراك، ومن ثم راح لورانس يضع خطة دقيقة لاحتلال سوريا من خلال دعم الشريف حسين أمير مكة المكرمة، وذلك قبل أن تتمكن القوات الفرنسية من الوصول إليها .

كان لورانس في تلك الفترة قد غادر إلى القاهرة للتفاهم مع القادة الإنجليز في كيفية التحرك العاجل نحو بسط النفوذ البريطاني، وقد قضى لورانس نحو ثلاثة شهور في القاهرة استطاع خلالها إقناع القادة العسكريين بضرورة دعمه من إزاحة النظام التركي بموجب التعاون مع الشريف حسين الذي رأى لورانس

أنه الشخص الوحيد المناسب لتلك المرحلة الدقيقة والخطيرة.

وأثناء وجوود لورانس في القاهرة تلقى أمرًا عاجلاً يقضي بسرعة السفر من القاهرة إلى بلاد ما بين النهرين بهدف تجهيز بعض الخرائط ومقارنتها ببعض الصور التي قامت طائرات سلاح الجو الملكي البريطاني بالتقاطها جوًا..

وعلى الفور حزم لورانس أمتعته لتنفيذ الأمر وقد اجتمع من قبل مع السير كلايتون رئيس قلم الاستخبارات حيث أبلغه بالبيانات والمعلومات التي في حوزته، والمتعلقة بضرورة البدء في إشعال ثورة عربية في العراق ضد الأتراك على أن تمتد بعد ذلك إلى طرابلس وسوريا والجزيرة العربية من خلال رموز وطنية يتستطيع لورانس والمخابرات الإنجليزية مؤازرتهم.

والواقع أن كلايتون قد أبدى إعجابه وانبهاره بذكاء الشاب الصغير لورانس الذي يشتعل حماسًا لنهضة وطنه ورفعته ويحترق أعصابه خوفًا من المد الفرنسي الذي يرقب تقدمه وزحفه نحو بلاد الشام لإدراكه مدى التداعيات الخطيرة التي ستنعكس على بلاده حال بسط النفوذ الفرنسي على بلاد الشام.

وفي صباح الحادي والعشرين من شهر مارس ١٩١٦ انتقل لورانس إلى مدينة البصرة العراقية، وقد التقى فور وصوله مع أصدقائه الذين ارتبط بهم زمن استكشافاته الأثرية في منطقة (كركميش) وقد التقى أيضًا مع الآنسة (جروتزهردبل) بوصفها مستشارة سياسية للسير «بيرسي كوكس» رئيس المكتب السياسي في الشرق الأوسط.

لم تكد الآنسة جروتز هرد بل أن تصافح لورانس حتى أخذت تشرح له على عجل خطتها التي تهدف إلى ضرورة تجهيز حكومة تنطوي على أعضاء يمثلون جميعًا كافة بلدان الشرق الأوسط.. وقد استمر الحديث بينهما نحو ثماني عشرة ساعة كاملة تخللها تناول طعام الغذاء والعشاء واحتساء بعض المشروبات

الباردة والدافئة .

ظل لورانس بعد ذلك ثلاثة أيام فقط في البصرة حتى غادرها عبر سفينة تجارية بصحبة مجموعة من الجنود الذين كانوا يشاركون في إحدى المعارك الحربية التي نشبت في نهر دجلة.

كانت الأنباء قد ترددت إلى مسامع لورانس حول أوضاع الجيش البريطاني التي تدهورت إلى حد خطير ولا سيما وأن الإنجليز قد أرهقهم نزيف الخسائر الفادح في أرواح الجنود والمعدات ونفاد الذخيرة والمؤن لدى بعض الوحدات العسكرية المحاصرة بالتحديد في منطقة (كوت العمارة) حيث كثيرًا ما أرسل قائدها الجنرال ناونسندالعديد من إشارات الإغاثة ، ولم تستطع القوات البريطانية إجابة إشارته حيث أخفقت في فتح ثغرة في المناطق المحاصرة نظرًا لشدة الحصار التركي الرهيب المضروب على الوحدات والمواقع البريطانية.

ونظرًا لخطورة أوضاع الإنجليز في العراق فقد التقى لورانس مع الكابتن أوبري هربرت في التاسع عشر من أبريل للتباحث بشأن تدهور الأوضاع العسكرية للجيش الإنجليزي وتردي موقفه وقد روى لورانس ما جرى له أثناء وجوده في البصرة حيث تعرض لوعكة صحية شديدة ألمت به.

وبعد أن استعرض لوارنس أحواله الخاصة مع الكابتن هربرت الذي كان قد سبق ه خوض العديد من المعارك العسكرية في العراق الذي وانتقل معه إلى الحديث عن ا لشأن العسكري حيث أبدى سخطه وانزعاجه من الخطط التي كانت تقوم القوات البريطانية بتنفيذها على أرض المعارك فضلاً عن الفوضى العارمة والإهمال الجسيم الذي لاحظه في قسم الخرائط.

وفي أعقاب هذا اللقاء الذي جمع بين لورانس والكابتن هربرت تلقى الأخير أمرًا عاجلاً يدعوه إلى ضرورة التوجه إلى تركيا لإجراء مفاوضات ثنائية مع

الأتراك تسمح برفع الحصار عن القوات البريطانية التي جرت من قبل.

كانت إنجلـــترا قد قررت البـــدء في مفاوضات مع قائد القوات التركية لرفع الحصار نظير دفع مبلغ من المال تجاوز المليوني جنيه، وتسليم جميع الأسلحة والذخائر بيد أن الموقف التركي كان يتسم بالصلابة والعناد الأمر الذي اضطرت معه القيادة الإنجليزية بتكليف الكابتن هربرت بضرورة المضي قدمًا في خوض مفاوضات شاقة وعاجلة مع الساسة والقادة الأتراك داخل حدود بلادهم.

من جانبه كان الكابتن أوبري هربرت رئيسًا لبعثة التحقيق في أوضاع الجيش الإنجليزي بالعراق فضلاً عن أنه كان محاربًا قديمًا يشغل الآن عضوًا لامعًا في مجلس العموم البريطاني ومعروفًا لدى الجميع بإلمامه بالعديد من اللغات الحية كالفرنسية والألمانية والإيطالية والألبانية والتركية، وهو ما أدى إلى ترشيحه للقيام بمثل هذه المهمة الخطيرة.

واستجاب هربرت على الفور، وقرر اصطحاب الكولونيل بيتش أحد الضباط المرموقين في قسم الاستعلامات ولورانس على اعتبار أنه يجيد التحدث باللغة الفرنسية، ويملك قدرًا لا بأس به من مفردات اللغة التركية.

وانطلق الرجال الثلاثة في عصر التاسع والعشرين من شهر أبريل إلى خلف ميدان المعركة في منطقة كوت العمارة وهم يحملون الرايات البيضاء كإشارة للرغبة في السلام وطلب الأمان.

وفي أثناء رحلتهم الطويلة استوقفتهم دورية تركية للاستفسار عن الجهة التي يقصدونها، والهدف من وراء ذلك تقدم الكابتن أوبري هربرت من قائد الدورية وأخبره أنه يحمل رسالة خاصة إلى الفريق خليل باشا لتسليمها له على وجه الخصوص بيد أن قائد الدورية التركي قد رفض قبول هـــــذه الذريـــعة، وقـرر

استبقاءهم لحين إبلاغ القيادة العامة بالأمر، ووصول الرد بشأن هذا الموقف.

وفي غضون ساعات تلقى قائد الدورية إشارة تفيد بإطلاق سراح الضباط الثلاثة والسماح لهم بالتوجه إلى مركز القيادة مع ضرورة وجود قوة حراسة لمرافقتهم مع ضرورة تعصيب أعينهم خلال رحلة السير حتى لا يشاهدون المواقع والوحدات العسكرية التركية المنتشرة في تلك المناطق الحساسة.

وبعد أن اجتازوا تلك المنطقة التي تتمركز فيها القوات التركية امتطى الضباط الثلاثة ظهور الجياد، وقد حدث أن سقط لورانس من على ظهر جواده حيث كان معصوب الأعين الأمر الذي لم يكن إزاءه قادرًا على التحكم في قيادة جواده، وهو ما سبب له جروحًا خطيرة في ركبتيه كاد على أثرها أن يعود إلى حيث أتى.

وبعد أن تماثل لورانس للشفاء بفعل تضميد جراحه على يد الضباط الأتراك قرر مواصلة رحلته سيرًا على الأقدام، ومن ثم التحق بزميليه بعد وصولهما بعدة ساعات إلى مقر خليل باشا الذي لم يكن قد تجاوز الخامسة والثلاثين من العمر، وقد سبق أن التقى من قبل مع هربرت خلال الحفلات التي كانت تقيمها السفارة البريطانية بتركيا.

❁ ❁ ❁

على أية حال بدأت المباحثات بين الجانبين بعد أن تصافحا حيث تصدرت اللغة الفرنسية المباحثات بوصفها اللغة الشائعة والمتداولة في تلك المناطق خصوصًا بين الساسة، و قادة الجيش والدبلوماسيين.

كان الكابتن هربرت يشعر باليأس من مفاوضاته مع خليل باشا وما عرف عنه من صلابة وعناد، ورغم ما دار في رأس أوبري هربرت فقد بات خليل باشا لطيفًا ودودًا رقيقًا حيث أظهر ارتياحه لضيوفه واحترامه محاولاً إظهار مودته لهم....

بدأت المفاوضات بين الجانبين حول مسألة البدء في تبادل الأسرى الإنجليز والأتراك وبموقف التركي المنتظر من العرب الذين انضموا إلى الجيش الإنجليزي لمحاربة الأتراك، وقد علق خليل بأن مسألة العرب الموالين للإنجليز لا ينبغي التباحث حولها كثيرًا لعدم أهميتها.

مضت المباحثات بين الفريقين في جولتها الأولى دون الوصول إلى حل يقضي بتوقيع معاهدة سلام بين الدولتين ومن ثم طلب خليل باشا من ضيوفه الانتقال إلى خيمة أخرى لكي يتناولوا طعام الغذاء، وقد تلقى الكابتن هربرت أثناء تناوله الطعام نبأ استسلام الجنرال تاونستد قائد الحامية البريطانية بمنطقة كوت العمارة دون إبداء أية شروط أو قيود!!

الواقع أن الخبر نزل كالصاعقة على الضباط الثلاثة حيث إنهم أدركوا مدى الضعف والخزي الذي اتصف بهما ذلك الجنرال الأحمق الذي أساء إلى سمعة وسيرة وصورة الجيش الملكي البريطاني المشهود له بالقوة والصلابة والكفاءة والجسارة بين جيوش العالم.

لم تقف الأمور عند حد احتجاج هربرت وذهوله على الاستسلام غير المشروط، بل أثار هذا الاستسلام عاصفة من الغضب اجتاحت الشعب الإنجليزي الذي أحس بالمهانة والإهانة بعد أن كان يتطلع إلى الدفاع عن شرف الجندية البريطانية حتى آخر جندي إنجليزي وهو ما أدى إلى انقسام البلاد إلى فريقين بين مؤيد ومعارض لخطوة الجنرال ناونسند المفاجئة.

لكن من جانبه كان لورانس يرى أن العسكرية البريطانية تستحق ما تعرضت له على يد ناونسند وأمثاله من القادة العسكريين البريطانيين الذين واجهوا معاركهم بفوضى لا نظير لها، وعدم مبالاة بالسمعة التي كان يتحلى بها الجيش البريطاني منذ القدم، فضلاً عن ملاحظته للمخاوف التي اجتاحت القادة الإنجليز الذين فقدوا شجاعتهم ومهارتهم في ميادين الحرب الدائرة.

وراح من جانبه يتنبأ بأن الثورة العربية الكبرى في طريقها للانفجار ، قد ترددت أنباء تفيد قيامه بزيارة سرية إلى ليبيا لإجراء المشاورات مع شيوخ السنوسيين تمهيدًا لما هو قادم ومنتظر.

ثم قام بعدها برحلة إلى بلاد اليونان وسرعان ما عاد أدراجه إلى مصر التي كان يشعر فيها بالطمأنينة والسلام والأمان على حد ما ورد في مؤلفاته حتى إنه قد وصف القاهرة بأنها أهم موقع استراتيجي في منطقة الشرق الأوسط بأسره، وأن القاهرة تتمتع باستقرار قلما يشهد له مثيلاً في أي دولة أخرى شرق أوسطية.



الفصل الخامس

ميلاد الجاسوس لورانس

ما من شك أن لورانس استطاع بمكره ودهائه إيهام العرب الذين توطدت علاقاته بهم أنه صديق مخلص وفي لهم يشعر بمحبة أوطانهم واحترام عقيدتهم ويأمل لخلاصهم من الظلم الذي مارسه آل عثمان والذين يديرون إمبراطوريتهم المترامية من القسطنطينية..

والحاصل أن لورانس نجح في إشاعة هذه الفكرة ومن ثم وجد الأيادي العربية تمتد إليه تطلب معاونته ومساعدته في إنهاء الحكم التركي الذي فرض نفسه عليهم منذ خمسة قرون مضت وتوالت بما لها وما عليها.

ويمكنني أن أقول إن لورانس كان يعمل ضمن فريق عمل عنيت به أجهزة الاستخبارات البريطانية والوكالة اليهودية من أجل زعزعة الاستقرار في الإمبراطورية العثمانية وتصفية نفوذها إلى الأبد من خلال تأليب الشعوب العربية نحوها في الخارج ودعم جمعية تركيا الفتاة بزعامة مصطفى كمال أتاتورك داخلها.

من هنا لم يكن مستغربًا لدى الباحثين مما ورد في التقارير السرية التي كان يبعث بها لورانس للمخابرات الإنجليزية، وقد تم الكشف عنها بعد انتهاء مدة الحظر القانونية، ومنها على سبيل المثال لا الحصر ما جاء في أحد تقاريره:

«مهما كانت نتائج تلك الحرب المجنونة فينبغي أن تكون محصلتها الختامية تصفية وإنهاء السيادة الدينية للسلطان التركي إلى الأبد وبغير رجعة»[1].

وفي رسالة بعث بها لورانس إلى صديقة كانت تربطه بها علاقة وطيدة كتب يقول لها حول نوايا نحو منطقة العالم العربي:

«لقد بذلت قصارى جهدي لرسم وتنفيذ تلك المؤامرة وجازفت بحياتي رغم الشدائد والأخطار لأنني كنت على يقين لا يضاهيه الشك إزاءه بأن مساندة العرب ووقوفهم بجوارنا هو من أهم المقومات الأساسية والعناصر الحيوية لتحقيق ما نصبو إليه من خلال إحراز انتصار ساحق وسريع بأقل الخسائر والنفقات وبالطبع كان من المفيد لنا أن ننتصر وننكث وعودنا من أن ننكسر وتنقصم ظهورنا إلى الأبد..».

وللتدليل على كراهية لورانس الشديدة للإسلام راح يبعث إلى المخابرات البريطانية تقريرًا مؤرخًا في الثامن عشر من أبريل ١٩١٩ورد فيه:

«إذا تخلى عبد العزيز بن عبد الرحمن بن سعود عن الوهابية وأطماعها فسوف نتبع معه سياسة اللين، أما إذا تمسك بموقفه وصمم على المضي قدمًا في انتهاج المذهب الوهابي فإننا لن نتردد في شن هجوم ساحق عليه بواسطة وحدات الجيش الهندي الإسلامية من أجل استرداد مكة وسحق وتدمير وتصفية الحركة الوهابية.. لقد سبق لي أنني في عام ١٩١٨ وخلال الاحتفال بأعياد

(١) تقرير لورانس بعث به إلى المخابرات البريطانية بعنوان «احتلال سوريا» بتاريخ ١٩١٦ .

الميلاد اقترحت عليكم أن نفعل ذلك من خلال عشر دبابات فقط لا غير!!».

وفي تقرير آخر كتب لورانس إلى المخابرات البريطانية يقول تحت عنوان «سياسات مكة» في يناير ١٩١٦ :

«إن مرامينا الرئيسية:

تفتيت الوحدة الإسلامية.

ودحرا لإمبراطورية العثمانية وتدميرها، وإذا عرفنا كيف نعامل العرب وهم الأقل وعياً للاستقرار من الأتراك فسيغرقون في دوامة من الفوضى السياسية داخل دويلات صغيرة حاقدة ومتنافرة غير قابلة للتماسك بيد أنها على استعداد دائم لتشكيل قوة موحدة ضد أية قوة خارجية».

وفي تقرير سري أرسله بعنوان «احتلال سوريا» راح يقول في تأكيد واضح علي مقته الشديد للإسلام:

«إن كنا نريد أن نضمن تكريس سبل السلام في جنوبي سوريا والاحتلال على جنو بلاد ما بين النهرين وجميع المدن المقدسة فينبغي أن نحكم دمشق مباشرة أو بواسطة حكومة صديقة غير إسلامية».

وفي تقرير بعث به تحت عنوان «سياسات مكة» لم يتردد لورانس في كشف وجهه القبيح قائلاً:

«لو تمكنا من تحريض العرب على انتزاع حقوقهم من تركيا فجأة وبالعنف لقضينا على خطر الإسلام إلى الأبد ودفعنا المسلمين إلى إعلان الحرب على أنفسهم فنمزقهم من داخلهم وفي عقر دارهم وسيقوم نتيجة ذلك خليفة للمسلمين في تركيا وآخر في العالم العربي ليخوضا حرباً دينية فيما بينهما، ولن يخيفنا

الإسلام بعد ذلك أبداً!!!»

إذن لم يكن لورانس كما حاول هو ومن وراءه أجهزة الاستخبارات الإنجليزية أن يرسم لنفسه صورة القديس لورانس أو مبعوث العناية الإلهية أو المنقذ والمخلص للعرب والإسلام، بل كان على النقيض من ذلك أفعى في ثياب إنسان ـومه وأحقاده وكرهه ومقته الرهيب للإسلام الذي كان يرتعد من

المباشر دون تردد راجيًا ألا يعود مرة أخرى وأن يلقى حتفه بعيدًا عنهم.

ولأن لورانس أوشك عى نفاد ما في نفسه من صبر فقد توجه من فوره إلى الكولونيل (كلايتون) لكي يبث له همومه وآلامه ومتاعبه عقب إحالته للتقاعد حتى رق قلب كلايتون الذي كان شديد الإعجاب بذكائه فأبرق إلى وزارة الخارجية البريطانية من مقر مكتب الإقامة البريطانية مطالبًا بنقل لورانس إلى المكتب العربي، وبالفعل تولت وزارة الخارجية إتمام رغبة كلايتون دون علم القيادة العامة بالقاهرة لحين صدور الأمر المباشر بنقل لورانس الذي رافق ستورز إلى جدة وهو يكاد يرقص طربًا ويطير فرحًا من فرط سروره وبهجته بعد أن تخلص من العمل تحت رئاسة هوليتش.

❁ ❁ ❁

على متن السفينة العسكرية (لاما) الراسية على صفحة مياه قناة السويس لورانس بعد أن أبحرت إلى جدة وقد تصادف وجود الضابط (عزيز علي المصري) الذي كان من أشهر ضباط الجيش التركي والقدوة التي يتطلع إليه جميع الضباط العرب، حيث كان قاصدًا مكة المكرمة من أجل إجراء مفاوضات مع الشريف حسين فيما يتصل بشأن إمكانية تسليح الجيش النظامي.

وبالطبع كان قد جرى حديث مطول بين الرجلين دار باللغة الألمانية حيث كان عزيز المصري المتعاطف مع الألمان يجيد التحدث باللغة الألمانية بطلاقة لا نظير لها.

بعد مرور بضعة أيام لاحت معالم مدينة جدة في الأفق البعيد أمام أعين ركاب السفينة الحربية عبر بيوتها البيضاء والسوداء.

وفي حين كانت السفينة تقترب رويدًا رويدًا من رصيف الميناء باغتتها أحد اليخوت ا لملكية الخاصة بالكولونيل (ولسن) الذي كان ضمن من حملتهم السفينة على متنها حيث اشتهر آنذاك بممثل بريطانيا لدى الدول العربية.

وفي لمحة رقيقة ولفتة كريمة أشار الكولونيل ولسن على الضابط عزيز المصري وعلى الكولونيل ستورز ولورانس بمرافقته إلى ظهر اليخت الخاص.

وبعد أن رسى اليخت بالضباط الثلاثة كان روحي بك عبد الهادي المستشار الشرقي في انتظارهم على رصيف الميناء حيث راح يصافحهم ستورز بحرارة شديدة بوصفه رئيسه السابق فيما كان البوليس السوري قد جهز بعض ضباطه لأداء التحية العسكرية من خلال حرس الشرف للضابط عزيز المصري تقديرًا لمكانته وفقًا للتقاليد العسكرية.

في تلك الأثناء نما إلى أسماع الكولونيل ستورز أن الأمير عبد الله[1] في طريقه إلى حيث يقيم حيث كان قد غادر مكة على متن جواده ا لأبيض وسط حراسة كثيفة ومشددة وهائلة من حراسه العبيد المدججين بأقوى وأحدث الأسلحة.

وبعد عدة ساعات وصل الأمير عبد الله وسط موكبه حتى إنه بدا مختالاً فخورًا بما حققه من انتصار ساحق مؤخرًا في معركة الطائف .

كان عبد الله لم يتجاوز الخامسة والثلاثين من العمر رغم ملامحه التي تكبر سنوات عمره الحقيقي حيث كان قصير القامة سمين الجسد ضخم الجثة ذا لحية رقيقة حسن المظهر، وثياب فاخرة تبرهن على سمو مكانته وعلو قامته.

والواقع أن لقاء الأمير عبد الله مع ستورز لم يكن الأول حيث ربطت بينهما علاقات وطيدة ومتينة ودافئة وحميمة منذ سنوات مضت فيما كان هو اللقاء الأول الذي جمعه مع لورانس الذي لاحظ أن الأمير عبد الله يختلف اختلافًا جذريًا عما جال في خاطره.

كان الأمير عبد الله يتميز برقة الطبع، وعذوبة الحديث، وخفة الظل وروح المرح التي لم تفارقه وإطلاق الدعابات والتعليقات الساخرة واللطيفة أثناء حواره،

(١) الابن الثاني للشريف حسين.

ومن ثم كان معروفًا لمن حوله بقدرته الفذة على كسب الصداقات وتكوين العلاقات على نحو سريع، ومثير نظرًا لشخصيته الجذابة والساحرة.

وبعد أن تصافح ستورز وعبد الله راح ستورز يقدم لورانس إلى عبد الله بوصفه أحد زملائه العسكريين الذين يحملون في رؤوسهم أفكارًا خلاقة لأسرة الشريف حسين وللدول العربية التي باتت على وشك الانفجار ضد الأترك، وعقب التعارف راح الثلاثة يتناولون مختلف المسائل والقضايا الشائكة والخطيرة، وقد تحول عبد الله إلى رجل آخر يختلف عما بدا عليه في بادئ اللقاء حيث غلب على حديثه انتهاج الحذر والمناورة عند اختيار كلماته التي كان يحرص على اختيارها بدقة شديدة ومتناهية.

في تلك اللحظات المرتقبة والمثيرة راح لورانس الداهية يرصد خلجات الأمير عبد الله ويحصد نبضات قلبه ربما يعثر من خلاله على ضالته التي يبحث عنها لإتمام أهدافه وتحقيق أحلامه، بيد أن لورانس أدرك عبر هذا اللقاء أن الأمير عبد الله ليس هذا الرجل الذي يستحق قيادة ثورة على وشك الاندلاع.

واقع الحال أن لورانس باغتته شخصية عبد الله حيث بدا له أنه مجرد شخص لطيف المعشر ، خفيف الروح، دمث الخلق لكنه لا يرقى إلى مستوى زعيم يقود أمة إلى ثورة تاريخية تتلوى وتوشك على أن تولد من رحم الظلم والاستبداد، ومن ثم فهي في أشد ما تكون إلى خطيب مفوه ، صلب وقوي ومشاكس، وعنيد لا يميل إلى المزاح ولا يرتكن في حديثه إلى إطلاق النكات.

كان لورانس يرى أن الثورة العربية الكبرى التي يخطط لها مع الشريف حسين الذي يقودها في حاجة إلى رجل يحمل مشاعل متوهجة مضيئة تحرق يابس الأتراك وأخضرهم، تعصف بأركانهم وتطيح بأعمدته، وتهدم صروحهم، وكان لورانس يزداد يقينًا برأيه كلما مضى عبد الله مسترسلاً أمامه في حديثه مع ستورز.

واستمر الحديث بين عبد الله وستورز يدور حول الأوضاع المعيشية في مكة وجدة وكيف أن الحرب قد تمخضت عنها العديد من المشكلات التي شغلتهم عن تصريف قضية الحكومة ذات الطابع المدني حيث أشار عبد الله إلى أنهم قد ورثوا عن الأتراك كيفية إدارة شؤون البلاد ، وقد اعترف بأنه نظام يتسم عن غيره بالسهولة والبساطة.

أشار عبد الله في حديثه الثاني مع ستورز أن جيش المحاربين الذي يعمل تحت قيادة والده الشريف حسين هم جميعًا من أبناء القبائل والعشائر وهم وقود الثورة وحطبها ومستقبلها وأملها وقد تولى الشريف حسين دفع مرتباتهم إرضاء لهم وضمانًا لولائهم وحرصًا على الاستبقاء عليهم فضلاً عن حرصه الشديد على رعاية شؤون عائلاتهم في زمن المعارك علاوة على قيامة باستئجار جمالهم وخيولهم ومختلف وسائل النقل التي خصصها لدعم قواته العسكرية، وربما كان ذلك أحد أهم عناصر التنمية والرخاء التي شهدها الحجاز في تلك الفترة رغم صعوباتها.

❁ ❁ ❁

مضى الحديث بين ستورز وعبد الله يدور حول كافة الشؤون العسكرية والاقتصادية والسياسية والاجتماعية ثم سرعان ما تحول إلى الشأن العسكري وهو ما دعا ستورز إلى إشراك لورانس في تبادل الآراء حيث كان لورانس طيلة الحوار مجرد مستمع ومراقب لا يدلي بدلوه ولا يطرح رأيه متفحصًا ومفترسًا ملامح عبد الله أثناء حديثه.

في تلك الأثناء وعقب الخوض في الشأن العسكري لاحظ لورانس أن ملامح الجدية لاحت على وجه الأمير عبد الله حتى إن الحزن قد ارتسم بصورة مباغتة على قسماته، وقد راح يقول في نبرة لا تخلو من الندم والاستياء:

«إن إهمالنا لمسألة قطع سكة الحديد قد أدى إلى مضاعفة فرص الأتراك في إمكانية دعم قوة حاميتهم في المدن وتزويدها بالأسلحة والمواد الغذائية وهم الآن يجهزون وحدات مسلحة بأحدث المعدات العسكرية لغزو رابغ».

وأضاف عبد الله في معرض حديثه لستورز ولورانس:

«إن العرب الذين احتموا في الجبال تزداد أوضاعهم ضعفًا وسوءًا يومًا بعد يوم بعد أن عجزنا عن إمدادهم بالسلاح لا سيما المدافع الرشاشة.. والواقع أننا اكتشفنا أن آل حرب قد انضموا إلى صفوف الجيش التركي وأعتقد أنهم الآن على أتم الاستعداد لدعمهم في غزو رابغ.

وأشار عبد الله إلى أن الأتراك إذا استطاعوا احتلال رابغ وتقدموا بقواتهم نحو مكة فلن يبقى أمام الشريف حسين سوى الدفاع والقتال والبذل في سبيل الدفاع عن تلك المدينة الطاهرة المقدسة، وفيما كان عبد الله يتحدث بإسهاب حول موقف الشريف حسين إزاء تطورات الموقف وتصعيد حدته كان أحد الحراس قد تقدم منه ليبلغه أن الشريف حسين ينتظر سموه على الهاتف.

تقدم عبد الله نحو سماعة الهاتف وراح يبلغ والده بمسار المفاوضات من خلال عبارات رصينة معبرة تجسد حقيقة الحوار، وما تمخض عنه.

وفي أعقاب انتهاء المحادثة عاد عبد الله يواصل حديثه قائلاً:

«أيها الكولونيل ستورز إننا علينا أن نبذل قصارى جهدنا لمنع وقوع مثل هذه الكارثة على أن نبدأ من الآن وفورًا بضرورة إعداد وتكوين وحدة بريطانية تتألف من جنود مسلحين تنطلق من ميناء السويس مدعمة بكافة وسائل القتال على أن تظل تلك الوحدة متأهبة للتقدم إلى رابغ إذا تقدم العدو من المدينة إلى احتلال مكة.



كان لورانس يفكر بإمعان فيما يرد على لسان الأمير عبد الله الأمر الذي اضطر معه أن يعقب على ما ذكره بعد أن ظل صامتًا ساكتًا طوال ساعات المباحثات، ومن ثم راح لورانس يقول للأمير عبد الله ردًا على اقتراحه السابق:

«الواقع يا سمو الأمير أن اقتراحكم رغم تقديري له تحيط به الصعاب وتحاصره العواقب من كل جانب».

نظر الأمير عبد الله إلي لورانس كأنه يستنكف ما يقول ولا يعبأ بوجوده حتى تدخل ستورز ليذكره بحقيقة لورانس قائلاً:

«بالمناسبة يا سمو الأمير إن الضابط لورانس من ألمع وأبرز وأكفأ عناصر الجيش البريطاني، وهو محط تقدير كافة القيادات العسكرية والسياسية على السواء، وإن إرادته كثيرًا ما تلقى قبولاً واستحسانًا ».

وربما كانت لتلك الكلمات وقعها على صدر الأمير الذي لاحت ابتسامة عذبة على وجهه عبر بها عن امتنانه وقبوله لرأي لورانس مؤكدًا أنه ينصت إليه باهتمام.

واستأنف لورانس حديثه الذي كان قد قطعه ستورز قائلاً:

«إن مسألة النقل عبر البحار باتت شددة الأهمية ونحن على أية حال لا نستطيع أن نقي السفن الخاوية في وقت غير محدود فضلاً عن أن الجيش الإنجليزي لا يضم في صفوفه أي من الجنود المسلمين، ومن ثم أرى وجوب الارتكاز في تلك المسألة على العرب فقط».

وأضاف لورانس قائلاً:

«إن الجنرال عزيز المصري يبذل ما في وسعه لتكوين وحدات عسكرية من المتطوعين العراقيين والسوريين بهدف تأسيس فرقة نظامية تتمركز في رابغ وإذا نحن فكرنا في أن نزود هؤلاء المتطوعين بما في حوزتنا من أسرى الحرب من

العرب الذين ما زالو حتى هذه اللحظة رهن الاعتقال في الهند ومصر فإنني أرى ولا مجال للشك في ذلك أنه سيكون لدينا العدد اللازم والمطلوب للهدف الذي ننشده ونتطلع إيه».

وقبل أن ينهي لورانس حديثه قاطعه عبد الله قائلاً:

«كلا .. كلا هذا أمر يتعذر حدوثه في الوقت الراهن والوقت يداهمنا فعلق لورانس من جانبه بقوله:

«على أية حال دعني أنقل اقتراحك إلى القيادة العليا في القاهرة، وعندها سوف يكون لكل حادث حديث.

ونهض ستورز من مقعده وقد راح يقول بصوت متحشرج:

«من الأهمية بمكان أن تجمع فكرة عامة وكاملة حول المستجدات والتطورات في رابغ ولهذا أراني مضطراً للانتقال إلى هناك من أجل تحقيق هذا الهدف.

وعلى غير ما هو متوقع تقدم عبد الله نحو سماعة الهاتف ليجري محادثة مطولة مع والده يضع فيها بين يديه ما تمخضت عنه المباحثات ولكي يحصل على موافقة ضمنية منه من أجل أن يأذن لقيام لورانس في أن يتجول داخل البلاد.

كان الشريف حسين قد ارتاب في أمر لورانس حيث أدى امتعاضه من تلك الرغبة المفاجئة والتي استغرب حدوثها الأمر الذي دعا ستورز إلى أن يطلب من الأمير عبد الله أن يتحدث مع الشريف حسين لإقناعه بالأمر.

وراح ستورز يسهب في حديثه مع الشريف حسين بعد أن أثنى عليه وقد بالغ في مدحه وتعظيم شأنه بأعذب الألقاب والكلمات الجذابة، والعبارات الساحرة وانتقل إلى عرض الهدف من وراء تجوال لورانس وانعكاسات ذلك على البلاد.

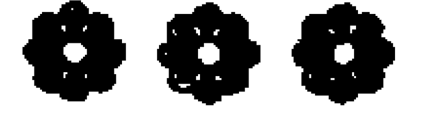
في نهاية المكالمة وافق الشريف حسين على سفر لورانس وتجواله داخل البلاد دون أية عوائق أو مضايقات، وقد أمر ابنه الأمير عبد الله أن يبعث بخطاب إلى

شقيقه علي يتعلق بهذا الأمر، وأن ترافق لورانس مجموعة من الحراس المخلصين الأوفياء للشريف حسين.

في عصر ذلك اليوم قطع لورانس وستورز جولة تفقدية في شوارع جدة التي بدت خالية ساكنة هادئة نائمة لا تدري ما يجري من حولها، وحينما أرخى الليل سدوله عليها أقبل الأمير عبد الله إلى دار القنصلية لكي يتناول معهما طعام العشاء مع الكولونيل ولسن وقد أحاطه عبيده وحراسه وخدمه ورجال يحملون طبول نحاسية وأبواق نحاسية يتبعونه أينما ذهب.

في ساحة القنصلية التقى ولسن عبد الله وراح يصافحه بحرارة ومودة ثم سرعان ما قدم له لفائف من التبغ تعبيرًا عن محبته وتقديره، ثم صعد ولسن وعبد الله وستورز ولورانس إلى قاعة الطعام وقد أشار عبد الله إلى رجاله بالبدء في العزف على الأوتار الموسيقية.

وفي الحال انبعثت نغمات موسيقية شرقية لم تكن بالطبع تلقى قبولاً وترحابًا من الضيوف الأجانب الذين كادو يضعون أصابعهم في آذانهم من وحشية العزف وقسوته وعنفوانه لولا الحرج والحرص على مشاعر الأمير واحترام ذوقه، لكن لورانس كان أثناء ذلك يزداد إيمانًا بأن هذا الرجل لا يصلح إطلاقًا أن يقود الثورة ليبدأ في البحث عن آخر يقودها ويشعلها.



لورانس في رابغ

قبل أن تنتهي السهرة الموسيقية الصاخبة التي أجهدت ضيوف الأمير عبد الله استأذن لورانس لكي يخلد إلى فراشه مبكرًا للسفر إلى رابغ.

وفي ميناء رابغ استقل لورانس إحدى السفن الهندية وتدعى (نورث بووك) التي كانت تحمل على ظهرها الكولونيل باركر ضابط الاستخبارات والمسؤول عن الاتصالات بين الحكومة الإنجليزية والأمير علي بن الشريف حسين.

كان لورانس يحمل معه خطابًا موجهًا من الأمير عبد الله إلى شقيقه الأمير علي يطلب بواسطته تسهيل مهام حامله وتوفير كافة سبل الراحة ووسائل الأمان للوصول إلى معسكر الأمير فيصل.

استجاب الأمير علي لما جاء في الرسالة وأهدى جواده الخاص إلى لورانس بعد أن قام عبيده بسرجها بسرج متميز ورائع إمعانًا في الاحتفاء بلورانس نزولاً عن رغبة وأمنية شقيقه الأمير عبد الله وزاد من فضله أن ألزم ابنه مرافقة لورانس بصحبة جند يدعى «طقس الرشيد»

في تلك الأثناء كان لورانس قد التقى مع الضابط المعروف نوري السعيد أحد ألمع وأقوى وأشهر ضباط الجيش العراقي والذي كان قد تولى فيما بعد شؤون العراق بوصفه المحرك الرئيسي لساستها وقادتها حتى لقي مصرعه على أيدي الثوار العراقيين.

ولم يكن هذا اللقاء بينهما هو الأول من نوعه، بل سبقه العديد من اللقاءات في القاهرة أثناء تلقي نوري السعيد العلاج في إحدى مستشفيات القاهرة، كما

التقى لورانس مع السيد (فايز الغصين) شيخ إحدى قبائل حوران، وكان من قبل يشغل منصبًا مرموقًا في الحكومة التركية، وقد لاذ بالفرار من مقر عمله وقصد أرمينيا حتى وصل بغداد.

على أية حال كان لورانس قد تجاذب أطراف الحديث مع الأمير علي الذي كان قد أضحى محل إعجاب لورانس، حيث بدا علي متوسط القامة واسع العينين دقيق الأنف، رقيق الشفتين، ويداه ناعمتان إلى حد لافت فيما رأى لورانس أن الأمير علي يتحلى بالرصانة وهدوء الطبع ملمًا بأحكام القانون وعلوم الدين الإسلامي مولعًا بالاطلاع والقراءة، وإن كان قد اشتهر بالتهور وحدة المزاج أحيانًا.

لقد كانت كل هذه السمات مجتمعة من أهم المقومات التي أدت إلى إيمان لورانس وويقينه بأن الأمير علي هو الأجدر والأحق بدور القائد إذا ما كانت سمات الأمير فيصل لا تختلف عن أشقائه عبد الله وعلي وزيد، ثم إن لورانس لقد أدرك للوهلة الأولى أن زيدًا يتميز بالحياء والخجل وهما لا يتماشيان مع قائد وزعيم، وحامل مشعل التحرر والاستقلال فضلاً عن أن والدته كانت تركية الأصل وهو ما لا يستقيم مع ما يدور في خاطر لورانس في إشعال ثورة على الأتراك علاوة على أن زيدًا كان حديث السن حيث لم يكن قد تجاوز التاسعة عشر آنذاك..

والواقع أن لورانس ما زال يبحث عن ضالته في الجزرة العربية ربما يتحقق على يديه الحلم المستحيل، ومن ثم قرر مغادرة معسكر الأمير علي الذي رفض أن يغادره جهارًا نهارًا حرصًا على سلامته وأمنه الشخصي حتى إنه تعمد إخفاء أمر مغادرته عن عبده..

بعد أن دقت ساعة مغادرة لورانس للمعسكر عقب حلول الظلام الدامس راح الأمير علي يهدي لورانس ثيابًا عربيًا كانت عبارة عن عباءة بدوية وعقال عربي

وشدد على مرافقه (طفس الرشيد) أن يعتني به بتخزين الطعام والماء من «منطقة (بئر الشياخ) البعيدة عن منطقة رابغ حوالي ٦٠ ميلاً ثم أمره ألا يجيب على أي سؤال قد يلقيه عليه لورانس أثناء سفرهما وشدد على توخي الحذر في الحديث معه، وتجنب الاقتراب من مواقع العشائر والبدو والقرى حتى لا تقعوا في أياديهم كصيد ثمين.

بدأت رحلة لورانس وسط الجبال بمرافقة (طفس الرشيد) وقد اجتاز حدائق النخيل الشامخ والمنحني والرابط والشاهد على ما يجري أمامه ثم سرعان ما دخل الرجلان معًا إلى منطقة (ساحل تهامة) الصحراء الجرداء، والجدباء .

كان لورانس غارقًا حتى أذنيه في أكفار بدأت كالموج الهادر والثائر المنهمر فيما كان (طفس الرشيد) كالأخرس امتثالا لأوامر سيده، وبعد عدة ساعات من السير على ظهور الجمال راح لورانس عند منتصف ا لليل ينزل من على ظهر ناقته وقد تدثر بالعباءة وألقى بنفسه في داخل حفرة رملية واستسلم لنوم عميق حتى لاحت تباشير صباح اليوم الجديد.

بعد أن استيقظ الرجلان انطلق في طريقهما عبر إحدى الروابي البركانية وبصورة مفاجئة راح طفس يفك عقدة لسانه ويقول مخاطبًا لورانس:

«على بعد ساعتين من التلال الصوانية توجد إحدى القرى التي تسمى «خريبة» وهي التي تتميز دون غيرها بوفرة المياه حيث إن سكانها من ذوي البشرة السوداء الداكنة من الأحرار الطلقاء الذين يعتمدون في حياتهم علي الري والزراعة.

بذكائه الفطري فطن لورانس لأهمية قرية (خريبة) ومدى تأثيرها الاستراتيجي على موقع رابغ حيث إنها تعد أحد أهم أماكن التزود بالماء للأترك لا سيما وأن المدافع البحرية تعجز عن الوصول إلى مداها البعيد.

وردًا على سؤال ألقاه لورانس على مسامع (طفس الرشيد) أجاب طفس بطلاقة تخالف أوامر سيده وتقفز على توجيهاته إنه في موقع الحجر القائم بين التلال الشرقية ينبثق موقع آخر للماء تحت إمرة وسيطرة آل المصروع، وهو ما يتيح للقوات التركية التوجه والتحرك السريع من المدينة إلى مكة مطمئنين على رابغ بعد أن أدركوا أن القوات العربية ستعجز عن إلحاق الضرر بها، وهو ما اعتبره لورانس سرًا خطيرًا ومعلومة شديدة الأهمية ينبغي الوقوف أمامها طويلاً وإمعان النظر في وضعها لإيجاد مخطط عبقري للتعامل معها إذا دعت الضرورة لذلك.

مضى الركب يحمل الرجلان تحت أشعة شمس صحراوية وليدة من رحم ليل طويل وقد عبروا التلال الرملية حتى بلغ بهما المطاف الوصول إلى بئر المستراح ثم وصل بعد ساعات إلى بئر يطل على الضفة الشمالية لبئر المستراح.

تقدم طقس الرشيد بالركب إلى البئر ليسقي الجمال وليروي ظمأه هو وابنه ثم راح يزود لورانس بزجاجة ماء تناولها كمن كان على وشك الموت عطشا ثم سرعان ما ألقى بنفسه على الأرض مستمتعاً بالهواء الذي يتطاير من البحر في نسمات ساحرة هادئة كاد يسترخي من رقتها للنوم.

وفيما كان لورانس مستلقيا على الأرض متأملاً ما سوف تأتي به الساعات المقبلة لاحظ قدوم رجلين يقتربان من البئر حيث ظن أنهما قادمان لسقاية خيلهما بيد أن أحدهما قفز برشاقة وسرعة على الأرض متجها نحو لورانس وقد ألقى عليه السلام مصافحا بيديه ثم سرعان ما قدم له سيجارة وهو يقول والابتسامة لا تفارق شفتيه برغم علامات الإجهاد التي ارتسمت على ملامح وجهه الأسمر:

هل أنت قادم من سوريا الآن؟

فأجابه لورانس بسؤال بأسلوب مخابراتي:

لا من المؤكد أنك من أبناء مكة..

كان واضحا أن كلا الرجلين تجاهلا الرد على سؤاليهما وإن كانا قد تطرقا بعد ذلك إلى التحدث حول أنباء الحرب وتطوراتها على كافة الأصعدة حتى حان موعد مغادرة الرجلين.

بعد قليل انطلق لورانس وطفى إلى هدفهما وبمحاذاة هضبة النبي أيوب التي تتصف بالانحدار الشديد مضى الرجلان في بداية الانطلاق من سلسلة الجبال المترامية بين نجد والمدينة المنورة.

بعد ذلك توجه لورانس صوب طريق الحج المعروف وظلا على ظهره حتى حل موعد مغيب الشمس حتى اقتربا من مزرعة تسمى «بئر الشيخ» الذي طلب فيه لورانس قطع قسط من الراحة وتناول بعض الفطائر التي قام بتجهيزها بعض سكان المزرعة الذين رحبوا بالركب كما هي عادة العرب جميعا.

في أعقاب تناول لورانس لشرائح الفطير احتسى كوبا من الماء وراح يتمدد على الأرض مستغرقا في سبات عميق حتى يتمكن من استرداد عافيته وحيويته بعد عناء ومشقة كادت تسلب منه طاقته وقوته وصحته التي بدت واهنة من حرارة الجو ورمال الصحراء التي لفحتها وألهبتها أشعة الشمس.

واستيقظ لورانس بعد زهاء ساعات ثلاث يجتاز «وادي مارد» في أثناء سير لورانس وطفس التقى بهم رجل يدعى «خلاف» راح يقدم نفسه لهم وهو ما أدى إلى امتعاض طفس الذي بدا حذرا محتاطًا فيما راق الرجل للورانس الذي تجاذب معه أطراف حديث حول تطورات الحرب حيث أخبره خلاف أن فيصل نجل الشريف حسين قدتعرض لهزيمة ساحقة ومروعة وعلى أثر ذلك تم طرد قواته من موقع «الحيف» وأنه يتمركز وفق أنباء (خلاف) في منطقة تسمى (حمرا).

راح «خلاف» يسترسل في حديثه مع لورانس حيث أخبره أنه سبق له القيام بزيارة القاهرة ودمشق والأستانة وأنه يرتبط بصداقات عميقة ومتينة مع العديد من الشخصيات اللامعة والمرموقة في تلك المدن.

كان خلاف لا يعرف جنسية لورانس وهل هو من سوريا أو من مكة أو من مصر بيد أن لورانس راح يجيب على تساؤلاته واستفساراته بلهجة أهل حلب الأمر الذي دعا خلاف إلى أن يطرح عليه بعض أسماء معارفه وأصدقائه في سوريا وانتقل الحديث بين لورانس وخلاف إلى الشريف حسين وأولاده ومصير فيصل وما ينوي أن يقوم به وما ستؤول إليه الحرب

كان لورانس قد بدأ يشعر بالتململ والسأم من حديث خلاف حيث كان لورانس قد توخى الحذر والحيطة خوفا من أن يكتشف خلاف أمره ويخفق في مهمته قبل أن تبدأ .

وقد نما إلى علم لورانس فيما بعد أن «خلاف» كان جاسوسا يعمل لصالح القوات التركية.

تقدم ركب لورانس بعد أن تخلص طفس من خلاف الذي عاد أدراجه حيث كان يقيم وقد قصد الركب منطقة وادي صفرا ثم عرج إلى قرية الواسطة وطرق باب أحد البدو وطلب منه أن يستريحا بضع ساعات لحين غروب الشمس الحارقة حيث كاد جسد لورانس أن يحترق.

كان العبيد ذوي البشرة السوداء والشفاة الغليظة ينتشرون في تلك القرية وما حولها من قرى صغيرة تجاورها وهو الأمر الذي أثار دهشة لورانس والتفت نحو طفس متسائلا عن وجود هؤلاء العبيد بكثرة في هذا المكان.

من ناحيته أخبره طفس أن الأتراك هم الذين جلبوا هؤلاء العبيد من أحراش أفريقيا لخدمتهم حيث اعتاد العرب من أصحاب المواشي والمراعي للخروج بضعة

أشهر ومن ثم يتطلب الأمر وجود هؤلاء الأشداد لصد هجوم بعض قطاع الطرق واللصوص والسفاحين

❁ ❁ ❁

مع غروب الشمس وبعد أن فرغ لورانس من تناول الطعام برفقة طفس وولده تحرك الركب بمحاذاة جدول صغير داخل القرية مرورا بالسوق الرئيسي بها.

وصل الركب إلى واحة «خرما» ثم بعدها واحة (حمرا) المعروفة بصخورها العجيبة.

في تلك الواحة وقعت عين لورانس على أعداد غفيرة وكثيفة من قوات الأمير فيصل وبينهم قطيع من الجمال التي تتثاقل بهدوء لتناول المرعى.

كان لافتا للنظر تحية الجنود لطفس حيث أحس لورانس أن رفيقه قد طالت قامته واسترد عافيته نظرا للحفاوة التي قوبل بها على يد رجال فيصل.

في اطمئنان تقدم لورانس برفقة طفس الذي علت مكانته إلى أحد البيوت التي يقف على بابها عبد ضخم الجثة شاهرا في يديه سيفا من الذهب الخالص وقد همس طفس في أذنه ففتح له الباب على الفور ليتقدم طفس ومن ورائه لورانس نحو ردهة تقودهما إلى قاعة فسيحة وضخمة وقد لاحظ لورانس وجود رجل تميز بقامة طويلة فارعة وبشرة بيضاء واقفا ملتصقا بالقرب من باب أسود يتطلع إلى لورانس في شوق ولهفة أثارت دهشته واستغرابه.



الفصل السادس

لورانـــــس وفيصـــــل
وجـــــها لوجــــه

تقـدم لورانس نحـو الشـاب الذي يقف بالقـرب من البـاب الأسـود وقـد شـهق لورانس وصاح قائلا لنفسه بعد أن تهللت أساريره.......

أوه يا إلهي ذاك الرجل الزعيم الذي أبحث عنه.

كان لورانس أشبه بالعالم أرشميدس الذي صرخ مهللاً وجدتها.. وجدتها.

وها هو لورانس بدوره يكاد يصـرخ في أنحـاء الدار زاعـقـا بأعلى صـوته وجدته.. وجدته أما هذا الزعيم أو الشاب الذي كان لورانس قد عقد عليه آماله واشرأبت نفسه للعثور عليه فلم يكن سوى الأمير فيصل ابن الشريف حسين.

بدا فيصل أمام لورانس أشبه بالمارد لما له من قامة فارعة وقوام رشيق حيث تميز بالنحافة وعينان واسعتان تشعان ذكاءً حادا وبريقا لامعا وملامح حازمة صارمة تشير إلى زعيم في انتظار اللحظة.

كان فيصل في تلك الأثناء يرتدي عباءة سوداء فخيمة تغطي ثيابا حريرية

ناصعة البياض وعلى رأسه كوفيه رمادية اللون يعلوها عقال مشغول بخيوط من الذهب.

بالطبع لم يكن اللقاء مجرد لحظة عابرة بل كان تاريخيا مفصليا مثيرا خطيراً له انعكاساته وتداعياته على تاريخ العالم العربي حيث أن لكلا الرجلين أدواراً وبصمات جلية ستظل محفورة ومرسومة ومنقوشة على جدران السياسة العربية.

❁ ❁ ❁

الشاهد أن لورانس ألقى بالتحية على الشاب الفارع فيصل ابن الشريف حسين وقد راحت عيناه تتفرس ملامحه وتتفحصه كميكروسكوب عالم فيزياء.

أبدى فيصل ترحابا بضيفه وقد دعاه في هدوء وبصوت خافت لمشاركته الجلوس على حصير مفروش على الأرض وسرعان ما التفت فيصل إلى لورانس متسائلاً وهو يعبث في جراب خنجره:

إلى أين ستذهب بعد ذلك؟!

أجاب لورانس أنه لن يتوقف في مكان ما حيث إنه في حاجة لاستكشاف العالم العربي بأسره وراح يتحدث عن وعثاء السفر ومشقة الترحال بين التلال وسخونة الرمال حتى قاطعه فيصل قائلاً:

هل طابت لك وادي صفرا؟

أجاب لورانس: بالفعل هو وادي رائع وجميل ويثير الإعجاب بيد أنه بعيد للغاية عن دمشق.

فعلق فيصل وقد رسم شبح ابتسامة على وجهه قائلاً:

لكننا على أية حال نحمد الله لأن هناك أتراكًا أقرب إلينا من دمشق.

بعد تناول أقداح القهوة العربية تطرق الحديث إلى الثورة العربية التي أشعلها

الشـريف حسين وكيـفيـة العمل على النفخ فيهـا حتى لا تبقي ولا تذر وتحـقق مراميها وأهدافها.

وقد شارك أحد العرب الذين اشتهروا بالحدة والعصبية والتطرف في الحوار بين فيصل ولورانس وقد كان هذا الرجل يدعى «مولود مخلص» وهو عـراقي الأصل من أبناء بلدة تكريت وقد عمل طويلاً في صفوف الجيش التركي ولولا عصبيته وطباعه الحادة لكان قد تدرج حتى أرقى المناصب.

بدا مولود مخلص يتحدث في حماس عن الثورة العربية وكيفية تصعيد حدتها من خلال تكثيف الدعم حيث تعاني الثورة من سوء أحوال السلاح وترديه مؤكدا أن الشـريف حسين يدفع للجيش شهريا نحو ثلاثين ألفا من الجنيهات نظيـر شحنات قليلة من الدقيق والشعير والأرز وأعداد ضئيلة من الذخيرة والبنادق وأمام حالة الفوران والحماس التي تميز بها حديث مولود مخلص راح لورانس يقاطعه بقوله:

إن من أهم أسباب مجيئي إلى هنا هو الوقوف على معرفة ما تحتاجون إليه على أن أعود حاملا معي تقريرا مفصلا وشاملا إلى قادتي.. وأنا على استعداد تام من أجل أن أتعـاون مـعكم بيـد أن تعـاوني مـعكم يتطلب بادئ ذي بدء أن تطلعوني على تفاصيل الحالة بصورة عامة وجلية.

كان الرجال الثلاثة يترجلون داخل معسكر القوات المصرية التي كانت تتمركز في بستان أخضر واسع وكبير حيث كان السير ريجالد وينجيت قد أرسلهم من السودان رأسا إلى وادي صفرا بهدف دعم الثورة العربية.

وأبدى الأمير فيصل قبوله وترحيبه بما عرضه لورانس حيث استعرض بدوره ميلاد الثورة والتي قامت على يد أبيه الشريف حسين ومراحل تطورها ومحطات إخفاقها.

وأكد فيصل في حديث عاجل أن الهجوم الأول الذي شنته قوات الثورة على المدينة كان عملا أحمق حيث كانت درجات التسليح لدى القوات العربية تثير الشفقة والدهشة لرداءة الأسلحة وتخلفها وأضاف فيصل أن القوات التركية كانت تتسم بكثافة عددية رهيبة لاسيما وأن فرقة الجنرال فخري باشا التي تولت مهام مرافقة دفون سنتاتسنتجين إلى جهة اليمين كانت ولاتزال محتشدة في المدينة وقد تجاوزت الخسائر حدود الممكن والمعقول في مثل هذه الأحوال حتى أن مدفعية القوات التركية قد ألقت بالرعب في نفوس أبناء الثورة العربية.. أضف إلى ذلك و(الحديث موصول للأمير فيصل) - أن الأتراك قد أرتكبوا أبشع وأشنع وأفظع الجرائم الوحشية التي تشيب منها رؤوس الرضع بعد هزيمة القبائل وانسحاب القوات العربية من منطقة السهل الممتد حول المدينة إلى التلال عند الطريق (السلطاني) وتمركزوا حول قرى «عار» «ورحا» وبئر عباس.

بعد أنهى أن فيصل حديثه العابر انتقل إلى بعض الضربات التي تلقتها الثورة الوليدة على يد بعض القبائل العربية التي طعنتها بخناجر غادرة وقاصمةوقاتلة.

وبادره لورانس قائلا: هلا حدثتني عن مشاريعك وتصوراتك المستقبلية؟

فأجابه فيصل وهو ينظر إلى الأفق البعيد:

إنني سأظل موجوداً هنا في الحجاز لحين إعادة المدينة المنورة وسوف أقود المجندين الذين انضموا إلينا مؤخرا لكي أتقدم بهم ناحية الشرق صوب الخط الحجازي خلف المدينة على أن يتقدم عبد الله بجيشه في داخل الصحراء البركانية مهاجما المدينة من ناحية جهة الشرق على أن يتولى زيد إلهاء القوات التركية في بئر عباس وذلك من أجل عرقلة اشتراكها في المعركة الرئيسية.

على ضوء ذلك تصبح المدينة كما يقول الأمير فيصل وفقا للخطة المرسومة خاضعة للحصار المضروب من ثلاث جبهات ومهما بلغت نسبة نجاح هذه العملية فإن الجيوش المحتشدة سوف تسحق الهجوم التركي المرتقب ومن ثم يتسع المجال

للجنوب من أجل استرداد عافيته وصلابته ويبدأ في إعادة تسليح جنوده وتدريبهم على خوض القتال بكافة خططه ومناوراته وأشكاله من جانبه راح مولود مخلص الذي كان يصغي إلى شرح فيصل يصرخ مقاطعا وقد وجه حديثه إلى لورانس:

اسمع يا لورانس أننا لسنا في حاجة إلى مؤرخ يكتب لنا تاريخ ثورتنا ونتائج معاركنا وحروبنا ولكننا في حاجة ماسة إلى الحرب.. أكرر على مسامعك نريد الحرب حتى نتمكن من تصفية وجودهم، أعطني بطارية من مدافع شايدر الجبلية ومجموعة من الرشاشات وأعاهدك أن أكتب بيدي نهايتهم.

❁ ❁ ❁

بمرور الوقت ومع تكرار اللقاءات وتداول الحديث بين فيصل ولورانس كان إعجاب الأخير بفصيل يتزايد ساعة بعد أخرى ويتضاعف يوما بعد يوم حتى أن أنصار فيصل كانوا يقصون على مسامع لورانس حكايات كان بطلها فيصل تبرهن على سعة أفقه وجلادته وذكائه وقوة شخصيته وتأثيره الطاغي على أنصاره ومن يتعبونه مما أدى إلى تعاظم فكرة إخراج الزعيم على مسرح الجزيرة العربية وتألق نجمه وبروز دوره وتوسيع هامش حركته.

وفي مساء ليلة جمعت فيصل مع لورانس وجوقة من القوميين العرب من أبناء سوريا راح لورانس يتحدث بلهجة أهالي حلب معبرا عن سخطه واستيائه من قيام السفاح جمال باشا بتنفيذ الإعدام على رموز العمل الوطني.

نال حديث لورانس استحسان الجميع الذين لم يرتب أي منهم في شخصيته أو خالجه الشك في حديثه الذي أسهب فيه عن ضرورة التصدي ومواصلة النضال ضد الأتراك لإنهاء حكمهم البغيض بيد أن أحد الحضور قد علق قائلا إن هؤلاء الذين أعدمهم جمال باشا كانوا على علاقة وثيقة ببعض الجهات

الأجنبية وهو ما يعني خيانتهم للقومية العربية.

كانت هذه العبارة قد عبرت كسكين غرسه صاحبه في صدر لورانس الذي ألجمته وأسكتته قليلا حتى تذكر من هو وماذا يصنع في هذا المكان وفي تلك الساعة بالتحديد؟

أثناء ذلك لاحظ فيصل أن لورانس قد تقوقع وانكمش فألقى إليه ابتسامة ذات معنى بعد أن أشار له بعينيه وهو يقول:

هل تظن أن الضرورة تقودنا للمضي قدما نحو بريطانيا؟

صحيح أننا قد نكون أصدقاء لهم نشاركهم المساعدة لكننا لسنا من الرعايا الانجليز واعتقاداتنا ستكون أكثر ابتهاجا لو كان هناك توازن في القوى بيننا وبين انجلترا.

فأجاب لورانس على استفسار الأمير فيصل:

لكن ماذا بعد أن تنتصر الثورة.. من الذي سيحكم ويتولى مقاليد السلطة دمشق أم الحجاز؟

لم يكد لورانس يكمل سؤاله الذي طرحه على الأمير فيصل حتى بادر الحضور في جلبة واضحة بأن هذا الأمر لا مكان له من الإعراب في اللحظة الحالية وأنه سؤال قد سبق زمنه ولم يحن الوقت للاجابة عليه بعد.

❁ ❁ ❁

في صباح اليوم التالي نهض لورانس من فراشه وراح يتفقد قوات الشريف التي كانت متمركزة في منطقة (الخيف) وقام بمحاولات عديدة لاختبار كفاءة هذه القوات حتى يستطيع أن يستجمع معلوماته التي سيجلبها في تقريره الذي سيتولى تقديمه حال عودته إلى القيادة العامة في القاهرة.

كان لورانس مبتهجا ومسرورا حول الشعور الوطني الجارف الذي يسكن النفوس المحيطة به حيث تأكد من خلال المناقشات التي دارت مع من حوله في الأيام المنصرمة أن الثورة العربية التي يقودها الشريف حسين تخلو من النزعات العقائدية ولا علاقة لها بالإسلام من قريب أو من بعيد حيث أن الثورة كما يرى تتسم بالطابع القومي العروبي وهو الأمر الذي أطرب مشاعر لورانس الذي كان يحمل كرها وحقدا دفينا في صدره نحو الإسلام والمسلمين.

كان القوميون العرب بالطبع قد حازوا على اعجاب ورضا لورانس بعد أن تبين لهم مناصبتهم العداء لتركيا المسلمة ومناصرتهم لبريطانيا المسيحية وتهميش الخطاب الإسلامي وتجنب استخدام العبارات الدينية والمصطلحات الحماسية التي ترتبط بجوهر الدين الإسلامي كالجهاد والاستشهاد وغير ذلك من المفردات المتداولة على ألسنة من يسكنهم الإسلام ويتمدد بداخلهم.

كان لورانس شديد الإيمان بالحركة العربية والعداء للنزعة الإسلامية وكم تاق إلى أن تلحق مصر بركاب القومية العربية بوصفها أهم وأكبر البلدان العربية والإسلامية وأن إيمانها بالقومية والعروبة على حساب الإسلام قد يدفع بالمشروع الثوري إلى الأمام على أكمل وجه.

❁ ❁ ❁

وعلى الرغم من إعجاب لورانس بالجنود العرب وما أظهروا من كفاءة ومهارة وشجاعة وجسارة وحرص على الموت في سبيل التحرر والاستقلال والدفاع عن عروبتهم وقوميتهم بيد أنه كان مأخذواً ومستغرباً للمخاوف الشديدة التي استقرت في نفوسهم من هول المدفعية التركية التي كانت تحصد أعداد غفيرة منهم بصورة ألقت بظلال كثيبة على نفوسهم أثناء المعارك نظرا لجهلهم وافتقارهم طبيعة المدافع وكيفية عملها وأدائها.

وراح لورانس يبذل قصارى جهده لنزع هذه المخاوف من قلوبهم حتى يتسنى له القيام بثورته ضد الأتراك حيث أبلغ العرب أنه اتفق على جلب العديد من مدافع هاوتزر لاستخدامها في المعارك القادمة وهو الخبر الذي أثار موجة من الفرح والابتهاج بين صفوف القادة والجنود العرب.

خلال تلك الفترة تمكن لورانس من جمع المعلومات التي دونها في تقرير شامل ومفصل ودقيق حول أحوال القوات العربية وقدراتهم التسليحية والتنظيمية وامكاناتهم التموينية وما في حوزتهم من خطط وتصورات مستقبلية وانعاكسات ظهور الثورة العربية على الإسلام ودولة الخلافة التي حان اندثارها من الوجود إلى غير رجعة حتى لا يقوم للإسلام قائمة كما كان يتطلع لورانس ومن معه.

كما أشار لورانس في تقريره أنه قد التقى مع قائد الثورة العربية وأهلها ومستقبلها وزعيمها وكشف النقاب عن حقيقة فيصل الذي وصفه وصفا دقيقا من حيث مظهره وجوهره والآمال المعقودة عليه وما يمكن أن يصنعه لد حر الأتراك وتصفية وجودهم في العالم العربي حتى يتهيأ المسرح لأبطال جدد توشك الستار أن تزاح لكي يبدأوا في ممارسة أدوارهم المرسومة والتي تم إعدادها وتجهيزها.

وقبل أن يغادروا صفرا قرر لورانس أن يلتقي مرة أخيرة مع الأمير فيصل لوداعه قبل عودته إلى القاهرة وفي هذا اللقاء أبدى لورانس إعجابه الشديد بشخصية وسياسة الأمير فيصل الذي وجه له الدعوة للعودة مرة أخرى للقاء ومواصلة الحوار بينهما ثم راح فيصل يبدي شكره وثناءه وتقديره للورانس الذي تعهد له قائلاً:

إننا سوف نبني قاعدة في (ينبع) [١] من أجل تخزين المواد الضرورية والاستراتيجية والتي ستكون رهن إشارتك

(١) مدينة تطل على ساحل البحر الأحمر من جهة الشمال لميناء رابغ.

وأضاف لورانس موجها حديث الأماني لفيصل قائلا:

أعاهدك أننا سوف نبذل ما في وسعنا لكي نبعث إليكم عددًا من الضباط العرب ولاسيما الأسرى الذين وقعوا في أيادينا أثناء معارك قناة السويس والعراق على أن نجهز لكم وحدات وكتائب للمدافع وأيضا فرقا للمدافع الرشاشة مكونة من الأسرى العرب.. وأكد لورانس لفيصل أنني سوف أعمل على تزويد قواتكم بما لدينا من مدافع جبلية ورشاشة على حد سواء واختتم حديثه بأن قال له: أعاهدك على أن أحرص على توجيه النصح للقيادة البريطانية بضرورة التحرك العاجل من أجل إرسال العديد من الخبراء من الضباط البريطانيين لكي يلعبوا دوراً بارزاً في عمليات الاتصالات بيننا وبينكم.

وبالطبع كان لحديث لورانس وقع السحر على أحاسيس ومشاعر فيصل الذي أبدى تمسكه وإصراره على ضرورة اللقاء بينهما مرة أخرى وأنه سوف ينتظره على جمر الشوق في الأيام القادمة.

وللتأكيد على مشاعره الصافية والمتدفقة بالحب والمودة نحو لورانس أمر فيصل كبير حراسه بتأليف مجموعة مكونة من نحو أربعة عشر رجلا من أشداء قومه لاسيما الذين ينتسبون إلى عائلة محمد علي بن بيضاوي أمير قبائل جهينة لحراسته في طريق عودته إلى القاهرة إيثارًا لسلامته من أخطار الطريق وتعبيرا عن فائض مودة فيصل ومحبته له.

وغادر لورانس بصحبة حراسه الأشداء وادي صفرا عائدا إلى مقر القيادة العامة البريطانية بالقاهرة لعرض ما استطاع الحصول عليه من معلومات وتفاصيل لوضعها تحت مجهر الاستخبارات البريطانية حتى يمكن دراسة اتخاذ الخطوة القادمة في رحلة لورانس وثورته الوليدة

وفي منطقة ينبع قامت حراسة لورانس بتسليمه إلى حاكمها عبد القادر العبد

لاتخاذ الإجراءات اللازمة لضمان وصول لورانس إلى القاهرة سالما شاكرا مقدرا ما بذله الأمير فيصل من جهد محمود لسلامته.

ونزولا على أوامر الأمير فيصل ظل لورانس مقيما في بيت حاكم ينبع لحين وصول السفينة «سيوي»

وعقب وصول السفينة إلى ميناء جدة كانت بالقرب منها ترسو السفينة «يوريال» التي كانت تحمل على ظهرها الأميرال «ويمس» الذي كان في طريقه إلى السودان للقاء مستر «ريجالد وينت» سرادار الجيش المصري والمسئول عن إدارة الشئون العسكرية لاسيما التي ترتبط بصلات عميقة بالثورة العربية.

ولأن لورانس كان يرى أهمية التحدث إلى السير وينجيت حول أوضاع الثورة ومن ثم راح مسرعا إلى الأميرال «ويمس» لإفادته بشأن عقد مثل هذا اللقاء من خلال السماح له بالسفر على متن السفينة المتجهة إلى الخرطوم.

ولأن الأدميرال «ويمس» كان يعرف مهام لورانس وأهمية دوره داخل القيادة العامة البريطانية فقد أبدى ترحابه لسفر لورانس بعد أن استفسر منه على بعض الهواجس التي راودته وفي معرض الحديث المتبادل بين لورانس والأدميرال أكد الأخير أنه شديد الاهتمام بمجريات الثورة العربية وأنه يتطلع إلى نجاحها وانطلاقها واشتعالها حتى تقضي على يابس الأتراك وأخضرهم وبرهن على اهتمامه بها بالتدليل على قام بزيارة مدينة جدة مرات كثيرة بهدف مد يد المساعدة اللازمة للعرب حيث أقسم أن عدد زيارته لجدة بلغت نحو عشرين زيارة رغم أن ذلك كان من أهم واجبات والتزامات الجيش البريطاني والبحرية معاً

أكد الأدميرال «ويمس» أيضا أنه قام بتزويد وإمداد العرب بقطع المدفعية والرشاشات فضلا عن بعض دعمهم بالموؤن والخطط العسكرية وقطع الغيار.

وفي أعقاب وصول السفينة يوريال إلى السودان تقدم لورانس إلى مقر السير

ويجنيت لمفاتحته في شأن الثورة العربية واطلاعه على التقارير التي فرغ لورانس من تسجيلها والتي تتعلق بتطورات الأوضاع في الحجاز وما يمكن أن يترتب عليها مستقبلاً على المنطقة بأسرها.

وراح لورانس يتحدث بإسهاب حول الحاجات الضرورية التي يتطلع إليها الشريف حسين لضمان نجاح الثورة لاسيما وأن المساعدات الفنية بكافة أشكالها وأنواعها كانت من أهم وأبرز العناصر التي تفتقر إليها الثورة والثوار وذلك من خلال تزويدهم بالخطط العسكرية والضباط الانجليز الذين يجيدون التحدث باللغة العربية.

في ختام المقابلة أظهر وينجيت من جانبه قدرًا لا بأس به من الارتياح لما أورده لورانس وعرضه أمامه من آخر مستجدات الوضع في الحجاز حيث إن وينجيت كان شديد الاهتمام أيضا بالثورة ومصيرها وقدكان لحديث لورانس أكبر الأثر في إحياء الآمال لدى وينجيت الذي كان قد تولى قبل ساعة من لقاء لورانس المنصب الذي كان يشغله السير مكمامون الذي عاد لبلاده نزولا على رغبة وزارة المستعمرات في لندن.

❁ ❁ ❁

وحال عودة لورانس إلى القاهرة لاحظ أن قيادته العامة العسكرية غارقة حتى أذنيها في قضية (رابغ) حيث كانت القوات الانجليزية قد ذوتها ببعض الطائرات

في تلك الأثناء كان رئيس البعثة العسكرية الفرنسية في جدة «بريموند» كان متمسكا بضرورة العمل على إنزال القوات الصديقة في الحجاز وقد أحضر معه إلى ميناء السويس مدافع ورشاشات وعددًا لا بأس به من جنود الخيالة والمشاة وهم من الجزائرين المسلمين الذين يعملون تحت تصرف وأوامر الضباط الفرنسيين.

مامن شك أن ما أورده «بريموند» قد كان شديد التأثير على وينجيت الذي أحس بالقلق والرعب بعد أن استشعر من خلال آراء بريموند أن الأوضاع هناك لا تبعث على الاطمئنان بيد أن لورانس قد أدرك لخبرته أن ما جاء عبر حديث بريموند الذي كان ينطوي على مبالغات شديدة لا أساس لها من الصحة على الاطلاق.

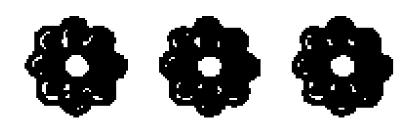
وقد أكد لورانس بعد أن استأذن في عرض وجهة نظره بصفته قريب الصلة ومراقبًا ومتابعًا ومهمومًا بشأن الثورة أن آل العشائر والقبائل العربية يمكنها أن تصمد وتقاوم وتقاتل ضد الأتراك بشجاعة وصلابة إذا استطعنا تزويد هذه القبائل بالأسلحة والمعدات والمدافع والرشاشات والخطط الفنية وقطع الغيار والخبراء.

بعد أن قدم لورانس رأيه في موقف العشائر والقبائل العربية أبدى القادة الحضور عظيم إمتنانهم لما جاء على لسانه حيث بادر رئيس أركان القوات البريطانية الجنرال «ليندت بل» باستدعاء لورانس إلى مكتبه حيث أشار إلي إعجابه الشديد بما ذكره حول الموقف الراهن في الجزيرة العربية ومن ثم عبر تقريره التفصيلي الذي فرغ من قراءته ومن ثم فقد قرر ضرورة عودته الفورية إلى الجزيرة العربية بعد أن تعهد له بتلبية كل مطالبه التي أبداها في تقاريره وأحاديثه.

بعد هذا اللقاء توجه لورانس إلى مكتب «كلايتون» بناء على طلب الأخير الذي أبدى استعداده التام لدعم لورانس لعودته إلى الجزيرة العربية للعمل بجانب الأمير فيصل حيث قررت الاستخبارات البريطانية أن فيصل أضحى في أشد الحاجة إلى وجود مستشار يتحمل مسئولية قراراته وتوجيهاته وذلك لضمان الدفع بعجلة الثورة إلى الأمام من خلال نصائح وتوجيهات لورانس المخابراتي الكفء القدير.

كان لورانس سعيدا لتلك الثقة التي أبدتها القيادة العسكرية البريطانية بمختلف مناصبها ودرجاتها وهو ماصادف هوى في قلب الشاب لورانس الذي استشعر مدى أهميته ومكانته لدى عظماء القيادة العامة البريطانية بعد أن كان مجرد باحث آثار يسعى جاهدا للحصول على درجة علمية تؤهله للعمل داخل إحدى الوظائف الحكومية.

الآن قد أضحى لامعا متألقا مرموقا مثار إعجاب واهتمام الجميع بل وأصبح رمزاً من رموز الثورة الوليدة المتفجرة التي تنتظر قدومه للمساهمة في إطلاق سراحها من عقال الضعف والخوف والانكماش.



الفصل السادس

عودة لورانس

إلى الجزيرة العربية

لم يكن مستغربا مظاهر العداء الشخصي التي تجلت في علاقة لورانس وبريموند حيث إن لورانس كان قد أبدى قدراً كبيرا من امتعاضه ورفضه القاطع لفكرة إيفاد قوات أجنبية إلى الجزيرة العربية وهو الاقتراح الذي كان قد طرحه بريموند على ويجنيت.

لوح لورانس بأسباب رفضه مؤكدا أن وجود القوات الحليفة في منطقة الجزيرة العربية لن تتمخض من رحمة سوى المتاعب والآلام والمواجع التي نحن في غنى عنها وحذر في معرض رفضه أن عواقب وخيمة تنتظر قدوم هذه القوات فيما يتصل بشأن المعارك العسكرية والانعكاسات الخطيرة على الثورة العربية حيث أن وجود قوات أجنبية سيدفع أبناء العشائر والقبائل لالقاء السلاح والعودة إلى أسرهم والتوقف عن مواصلة القتال والكفاح والعمل من أجل الثورة .

وكما هو معروف عن البدو تعذر الانضمام والعمل مع قوات أجنبية ضد إخوانهم المسلمين وراح فيصل بذكائه المعهود وقدرته الفذة في طرح آرائه لإماطة

اللثام عن حقيقة المشاعر العربية وما يدور في داخلها.

كان الجنرال وينجيت ينصت في اهتمام بالغ إلى حديث لورانس رغم أن وينجيت كان في بادئ الأمر يبدي تعاطفا محمودا مع «بريموند» رافضا ما يقترحه لورانس بيد أن شروح لورانس واستفاضته الرصينة الحكيمة في عرض رؤيته دفعت وينجيت للإصغاء إليه من أجل الوقوف على حقيقة الأمر فضلا عن إعجاب كان يتملك وينجيت بشخصية لورانس قبل أن يستمع إلى اقتراح بريموند الذي نجح في التشويش على شخصية لورانس وكاد يطيح به.

المهم أن لورانس راح يدلي بدلوه لإظهار حقيقة الأمر مؤكدا أن الأمير فيصل يتطلع إلى الدعم من الإنجليز لاسيما فيما يتصل بشأن الأسلحة والأموال والمساعدات الغذائية وقطع الغيار والتجهيزات الفنية وبعض الخبراء المرموقين الأكفاء من أبناء الجيش البريطاني الذين يجيدون التحدث باللغة العربية حرصا على مشاعر أبناء القبائل والعشائر.

الشاهد أن رأي لورانس كان هو الذي استحق أن يجد صدى وقبولا لدى القيادة العامة ومن ثم راحت بدورها تؤكد رفضها القاطع لإرسال أية قوات حليفة في شاطئ الجزيرة العربية.

كانت الأوضاع العسكرية لا تسمح بالاستغناء عن بعض قواتها في مغامرات محفوفة بالمخاطرة وقد يترتب عليها خسائر رهيبة في الأرواح لاسيما وأن رئيس الحكومة البريطانية «لويدجورج» كان كارها للقضية العربية وعلى استعداد للتخلي عنها إذا لزم الأمر ومن ثم حرصت القيادة العامة على عدم الانزلاق في أية حماقات قد تطيح بها.

في تلك اللحظات الحرجة والدقيقة كان لورانس قد تمكن من تدشين قاعدة تحالف وترابط بينه وبين السير موراي والجنرال ليندون بيل رئيس أركانه وقد

أبدى الأخير موافقته الضمنية على فكرته التي يهدف إلى الاكتفاء بإرسال شحنات من السلاح والمعدات والمؤن إلى الأمير فيصل.

الحاصل أن لورانس قد تلقى إشارة تفيد بأن القيادة العامة قد أصدرت قرارا بتعيينه ضابط اتصال بين القوات البريطانية وقوات الأمير فيصل بعد أن تلقت القيادة العامة توجيهات عاجلة من جهاز الاستخبارات البريطاني توصي بأهمية الموافقة على تعيين لورانس وحثه على المزيد من الاهتمام بقضية الثورة نظرا لدوره المرتقب في الأيام المقبلة والتي سوف تشهد تقلبات وتطورات وتغيرات حادة وعنيفة تشبه الإعصار الذي سيقتلع ما حوله وما يمكن أن يعوق تقدمه.

❁ ❁ ❁

عقب تسلم لورانس لهذا القرار أظهر تبرمه وسخطه متذرعًا بأنه غير جدير بالمناصب والدرجات العسكرية في محاولة ماكرة لإظهار زهده وامتعاضه من أية ترقيات قد يتلقاها مستقبلاً لإيهام قادته وزملائه أنه مجرد باحث لا هم له سوى الانكفاء على دراسة علوم الآثار وحفرياتها.

كان واضحًا أن لورانس الذي أراد تضليل من حوله بأنه لا يتلهف إلى أية مناصب قد تعلي من شأنه يواجه سخطًا عامًا وغمزات ولمزات من زملائه ورؤسائه الذين كانوا على يقين لا يخالجهم الشك فيه مثقال خردلة أن لورانس يطمح ويطمع ويتطلع إلى أعلى المناصب ولا يتوانى في القفز على كل من حوله في سبيل الارتقاء وتبوأ المكانة الأعلى.

لكن الواقع الذي لا يكن يخفى على أحد أن لورانس كاد يطير فرحًا من فرط نشوته وبهجته.

في الثالث من نوفمبر عاد لورانس إلى ميناء ينبع الذي أصبح أهم قواعد قوات جيش الأمير فيصل وقد فوجئ لورانس حال وصوله أن الأمير فيصل

تعرض لهزيمة منكرة وقاسية ما زالت آثارها العنيفة منعكسة ومرسومة جلية على وجوه رجاله الذين كانوا قد تجمعوا هربًا والتماسًا للنجاة في ميناء ينبع.

علم لورانس من الجنود المنسحبين أن هجوم الأتراك وقع بصورة مفاجئة بيد أن فيصل قد قرر التراجع إلى خطوط ميناء ينبع وفقًا لما كان مخططًا من قبل.

أما الأمير زيد أصغر أبناء الشريف حسين فقد توجه من ميناء رابغ إلى منطقة وادي صفرا من أجل العمل على تهدئة وبريد الوقت المأزوم الذي يواجهه الأمير فيصل.

ورغم الهزيمة المبكرة إلا أن لورانس قد أطريته أعمال المقاومة الرائعة التي قامت بها القبائل وعشائر آل حرب التي كبدت الأتراك خسائر جسيمة ومروعة في العتاد وخطوط المواصلات التي تعرضت للتخريب والتدمير بفعل جنود المقاومين لاستخدام الديناميت، ولكن نجح الأتراك في تشتيت قوى الأمير فيصل بفعل الضربات المؤلمة التي وجهتها إليهم عبر طائراتها التي استطاعت إنهاء الحصار الذي كان قد بدأ في خنق القوات التركية في المينة المنورة لعرقة وصولهم إلى أية منطقة مطلة على ساحل البحر الأحمر.

من هنا نجح الأتراك في الخروج بكل قواتهم ومعداتهم من الحصار وملاحقة قوات فيصل لإرغامها على الانسحاب حتى منطقة ميناء ينبع فيما أرغمت القوات التركية الأمير علي بالبقاء في منطقة ميناء رابغ قبل أن يشرغ في تنفيذ خطة الحصار وفقًا لما هو موكول إليه.

أما الأمير زيد فقد وردت أنباء أشارت إلى وقوعه في الأسر فيما باغتت الضربة ذاتها قوات الأمير عبد الله فاضطر إلى وقف تحريك قواته حرصًا على سلامتها وأسلحتها التي باتت معرضة للخراب والدمار..

كان الموقف عصيبًا ومثيرًا ومرهقًا والأجواء باتت غير صافية ونقية والنفوس مشحونة بالتوتر ومسكونة بالرعب والأعصاب على وشك الانهيار والعقول باتت مزدحمة بالهواجس والظنون والقلوب تنبض بالأسى والعيون أوعزت لمدامعها ألا تستكين حزنًا على ما جرى وما سوف يجري مستقبلاً والفرائص ترتعد من هول ما حدث.

❁ ❁ ❁

لم تكن الأمزجة لدى الأمراء أقل حدة وعصبية وغضبة وفورة من رعاياهم حيث كانت للمعارك الأخيرة آثارها وعواقبها الوخيمة التي ألقت بظلالها الكئيبة على نفوس السادة الأمراء.

كان الأمير فيصل غارقًا في ذهوله مما وقع له حيث لاذ بالصمت والسكوت لا يستطيع فهم أو تفسير هذه الهزيمة النكراء فيما كان الأمير علي يهدد ويتوعد وهو مستسلم لثورته الغاضبة مؤكدًا لمن حوله أنه أقسم على ألا يمضي مرة أخرى في طريق اثورة مهما كانت العقبات.

أما الأمير عبد الله فقد راح يتهم باقي أشقائه بالنكوص والانكماش والاستسلام فيما ألقى زيد باللوم على الجميع مؤكدًا فشل الثورة وإجهاضها.

في تلك الأثناء الملدة بالغيوم قامت السفن الحربية الإنجليزية ترسو في ميناء ينبع وعلى متنها شحنات هائلة من الأسلحة والمدافع والمؤن والإمدادات والذخيرة، وفي مقدمة كل هذا عدد لا بأس به من الضباط والجنود الذين أرسلتهم القيادة الإنجليزية من أجل تدريب الجنود العرب على كيفية استخدام الأسلحة بكفاءة ومهارة.

ربما كان لهذه الشحنة تأثيرًا بالغًا في إعادة بناء النفوس التي تهدمت وترميم العقول المتصدعة بعد أن عصف اليأس بالجميع وأوشك الستار على أن يسدل

سريعًا على خشبة المسرح الثوري الذي كان يعجب الثوار وأصبح خاويًا على عروشه بعد أن لاذ الجميع بالهرب والفرار.

كان لورانس أمام هذا المشهد الدامي والمأساوي الذي باغته عاجزًا عن الحركة حيث أحس أنه لا يستطيع أن يستوعب ما يجري من حوله، ولولا شحنات الأسلحة التي شاهدها وسط جنود فيصل لكاد أن يفقد أية بادرة من بوادر الأمل والحلم نحو إنجاح الثورة الوليدة التي تكافح وتناضل من أجل التحرر من عبودية الأتراك.

لم يكن لورانس مهمومًا سوى بالبحث عن الأمير فيصل وكيفية مقابلته لمعرفة ما الذي حدث؟!

ولماذا استبد اليأس هكذا بقواته وتملكت الهزيمة منهم رغم أن الأمر مجرد معركة والحروب انتصارات وانكسارات، والعبرة لمن يصمد والنصر لمن يسكنه الأمل، ولا تتنازعه المخاوف والهموم.

ولورانس على يقين كما حدث نفسه أن فيصل سيظل صامدًا ، صابرًا ، صلبًا، عنيدًا لا يلين، وأن الرجل الذي وقعت عليه عيناه للمرة الأولى لا يمكن بحال من الأحوال أن يكون من طراز الضعفاء والجبناء والدهماء والبؤساء، بل هو كما يعلم من الشوامخ والعمالقة والأفذاذ الذين لن تعصف بهم عاصفة كالتي عصفت بأفراد عائلته وجنودهم.

راح لورانس يبحث عن فيصل وفي رأسه حشد وزحام هائل من التساؤلات التي تتراقص أمام عينيه وسرعان ما التقى لورانس مع فيصل حيث لاحظ لورانس أن فيصل كما كان يظنه صلبًا قويًا مفعمًا بالأمل عنيدًا ذا إرادة قوية الأمر الذي ألقى بنسمة هادئة رقيقة عذبة نفحت وجه لورانس في حنان بالغ وطابت نفسه بعد أن كانت ثائرة ثورة العبيد الجياع.

كان فيصل أثناء ذلك يتحرك بين رجال جيشه يستمع إلى شكاياهم ويعمل جاهدًا على تصحيح المفاهيم الخاطئة التي استقرت في نفوسهم بعد أن غذتها الشائعات التي أطلقها الأتراك وعملاؤهم أثناء الانسحاب.

كما حرص فيصل على تبديد اليأس الذي اجتاح جنوده، وراح يلقي ببذور الأمل في أراضي قلوبهم لعلها تبث بثمار الشجاعة والقومة والحماسة والجسارة والبذل والفداء والعطاء بعد أن اندثرت تلك الفماهيم وأصبحت أفئدتهم كالأرض الجدباء القاحلة السوداء.

لاحظ لورانس أن معنويات جنود فيصل قد ارتفعت مرة أخرى إلى عنان السماء وأن الأمر أضحى في حاجة إلى الارتكاز على الخطط العسكرية المدروسة بدلاً من الاعتماد على خطط تتسم بالفوضى والعبثية وضيق الأفق والعلوم العسكرية الحديثة.

وراح لورانس وفيصل يتبادلان أطراف حديث طويل ومثير وخطير ومهم حول الأوضاع التي طرأت على الأرض بعد الهزيمة الشنيعة والنكراء.

لم يكن أمام لوراتس سوى تعضيد موقف فيصل أمام أشقائه وجنوده حتى يسترد عافيته مرة أخرى قبل أن تلتهمه هزيمة الأتراك له، وما يمكن أن يصيب الثورة بمقتل من جراء ذلك.

لم يتوان الرجلان في إعادة تأهيل الجنود وتدريبهم على استخدام أحدث الأسلحة التي وردت مؤخرًا وكيفية التعلم على تفجير الديناميت وحفر الخنادق عبر خبرات الضباط الوافدين من مصر فضلاً عن رحابة صدر الأمير فيصل في تبادل الحديث معهم والرد على تساؤلاتهم واستفساراتهم التي تلح على خواطرهم وتؤرق نومهم وتثير أعصابهم.

كان فيصل رقيقًا عذبًا مع جنوده إلى أقصى حد للتخفيف عنهم والتهوين من

هول ما حاق بهم ومحاولة إحياء رجولتهم وشهامتهم التي دفنت تحت رمال الصحراء وخلال الحرب الأخيرة والهزيمة البشعة التي وقعت على أيد الأتراك وأغلب الظن أن فيصل قد نجح بدعم من لورانس في إعادة البسمة إلى الوجوه والأمل إلى النفوس والنور إلى العيون والحب إلى القلوب، والروح عادت بعد أن بلغت الحلقوم بين جنوده وضباطه وكل من حوله.

لم يكن فيصل يستسلم للنوم كما كان من قبل وبالطبع لم يكن لورانس أسعد حالاً منه حيث جافى النوم عيونهما حيث إن المخاوف التي تساورهما بين الحين والآخر من التحركات المريبة للقوات التركية التي توشك على شن هجمات جديدة وكثيفة لكي تقصم ظهر بعير فيصل وتلقي بقواته إلى جوف البحر الأحمر وتصفيتها بصورة نهائية فيتعذر عليها بعد ذلك أن تعود مرة أخرى أو تقوم لها قائمة..

وبالفعل كان الأتراك من جانبهم لا يكفون عن رصد تحركات قوات فيصل لإعداد خطة ناجعة تعرقل نموها وإعادة هيبتها واسترداد قوتها.

وفي مساء إحدى الليالي صرخت أجراس الإنذار في ينبع حيث أشار نبأ عاجل أوردته مراكز الاستطلاع والرصد يؤكد أن القوات التركية تقترب من ميناء ينبع، ولم يعد يبعدها عنه سوى ثلاثة أميال فقط، وأنها كانت في سبيلها للمدينة.

بالطبع كان لهذا النبأ الخطير وقعًا سيئًا على لورانس وفيصل وبقية القوات الذين لم تجف دماؤهم ولم تتوقف دموع بعضهم بعد، وقد خيم الصمت على العسكر وتظلل بالسكينة والهدوء والسكون الرهيب في انتظار الأوامر التي ستنطلق في الحال من الخيمة التي اتخذها فيصل ولورانس مقرًا لهما لاتخاذ القرارات اللازمة والضرورية لمواجهة مثل هذه التحركات الطارئة والمفاجئة.

وفي غضون دقائق من صفارات الإنذار أصدر فيصل أوامره بالتوجه إلى المواقع الدفاعية والنزول إلى الخنادق وفع الأياد على البنادق في أتم وأكمل استعداد انتظارًا لصدور الأمر الأخير الذي يقضي بإطلاق النار مع إنهاء أية مظاهر تبرهن على وجود أية قوات الأمر الذي أثار عاصفة من الرعب في قلوب الأتراك الذين اعتادوا على سماع طبول الحرب وأناشيد النصر الحماسية لدى الجنود العرب مما كان يساعدهم على تتبع أماكنهم واصطيادهم والانقضاض عليهم.

لم يكن الخوف الذي سكن نفوس القادة الأتراك يتعلق بحالة السكون التي سادت معسكر قوات فيصل فحسب، بل اختباء جميع مظاهر الحياة العسكرية في ينبع هو الذي كان مثيرًا للدهشة وباعثًا للرعب فضلاً عن الأضواء الساطعة التي تنبعث من المدرعات البريطانية البحرية التي كانت قد كشفت وفضحت المواقع والحشود التركية وباتت في مرمى القوات العربية.

والواقع أن كل هذه الحيل مجتمعة أصابت القادة الأتراك بالشلل في اتخاذ قرار الحب خوفًا من إلحاق هزيمة منكرة قد تؤثر على مجريات الأمور في منطقة الجزيرة العربية الأمر الذي دفع بقادة الترك لاتخاذ قرار فوري دون إبطاء بالانسحاب في الظلام إيثارًا للسلامة، وتجنبًا لهزيمة على وشك الوقوع.

❁ ❁ ❁

والواقع أن انسحاب القوات التركية طوال ساعات الليل كان بمثابة انتصار تحقق على يد فيصل ولورانس وجنودهما حيث لاحت تباشير الصباح لتتكتشف أجهزةالرصل والتنصت والاستطلاع أن الأمر لم يعد خطيرًا بعد أن انقشعت الغمة، وأن المسألة أصبحت رهن التحلي بالحكمة والحذر بدلاً من اللجوء إلى الصخب والضجيج والفوضى وإطلاق الصيحات والأناشيد.

بالطبع كان لورانس قد ساهم على نحو أو آخر في دغدغة أعصاب الجنود الأتراك من خلال وضع خطة ماكرة عبقرية كان لها الفضل في إرباك حسابات وخطط القوات التركية التي ابتلعت الطعم وآثرت العودة في سلام خوفًا من مجهول ينتظرها لا تعرف ماهيته ومردوداته وعواقبه الوخيمة.

وكانت لتلك الواقعة المثيرة تأثيرًا إيجابيًا رائعًا على قوات فيصل التي تبادلت التهاني والدعابات والضحكات واستردت ثقتها وأدركت أنها تستطيع أن تلقن الأتراك درسًا قاسيًا فضلاً عن أن الأتراك لم يكونوا كما كان مفهومًا وشائعًا بالقوة الجبارة التي تطيح بكل ما أتيت من صلابة وإرادة فولاذية، وعلى أثر ذلك التطور الكبير في أوضاع الميدان العسكري راح فيصل بقامته الفارعة ووجهه الطليق يتفقد أحوال جنوده بصحبة لورانس ويتبادل معهم الحديث الضاحك والداعم لموقفهم مهنئًا ما صنعوه بدقة متناهية أدت إلى تقهقر الأتراك وفرارهم بعد أن احتموا خلف أستار بهيم الليل الطويل.

❁❁❁

من ناحيته فطن لورانس إلى الوضع الخطير والمتردي الذي تعيشه القوات التركية المنسحبة لاسيما وأن هناك حالة من التخبط تواجه انسحاب القوات وهي فرصة ذهبية يمكن توظيفها واستغلالها، والإمساك بها للانقضاض عليها، ووأدها ودفنها في رمال الصحراء أو الإلقاء بها في باطن البحر الأحمر قبل أن تبتعد عن سواحله..

ولأن الفكرة قد اختمرت في رأس لورانس وتجلت فقد أطلق ساقه للريح متوجهًا إلى مكتب الكولونيل ويلسون لمفاتحته في الأمر والاستماع إلى رأيه بوصفه عسكريًا مخضرمًا عليمًا ببواطن الأمور.

لكن لم تكن رياح ولسون تشتهيها سفن لورانس حيث فوجئ بأن غريمه وعدوه

اللدود الكولونيل بريموند يجلس بصحبة الكولونيل ولسون الذي رحب بضيفه لورانس ثم عاد ينصت باهتمام بالغ لحديث بريدموند الذي استأنف حديثه قائلاًفي ثقة وثبات متظاهرًا بعدم الاهتمام بوجود لورانس.. إنه قد حان الوقت لبريطانيا وفرنسا للبدء في تطهير الأراضي الحجازية من القوات التركية والتوجه بعدها إلى سوريا.

كان بريموند يسعى إلى إتمام رغبة بلاده الجامحة في احتلال سوريا مقابل احتلال إنجلترا للعراق ومكافأة الشريف حسين بمنطقة الحجاز ثم راح يشن هجومًا عنيفًا على القوات العربية منتقصًا من شأنها قائلاً:

«لا أظن يا كولونيل ويلسون أنك مثلي لا تؤمن إيمانًا راسخًا ومتينًا بأن هؤلاء العرب الغلاظ القساة يملكون القدرة والإرادة علي تسيير شؤون أحوالهم.. إنني بالفعل أعرفهم معرفة وثيقة حيث قضيت في بلاد المغرب بضع سنوات توليت خلالها منصب قائد لفرقة ضخمة من هؤلاء العرب».

ولأن لورانس لم يكن يطيق رؤية هذا الجنرال الفرنسي المتغطرس فقد انتهز الفرصة لمهاجمته وتقريعه ولومه متذرعًا بمحبته ووفائه للعرب ومتظاهرًا بإيمانه العميق بأهميتهم في إنجاح الثورة المتفجرة ضد الأتراك حيث قال بالنص في ثورة غضب مفتعلة:

«اسمع يا كولونيل بريموند وأصغ إلى ما سوف أردده على مسامعك.. إن بمقدور هؤلاء العرب الذين لا تكف عن التهوين من شأنهم أن يواصلوا النضال والكفاح والقتال ضد الأتراك بشجاعة قلما أن تراها في غيرهم، وهم جديرون بالثورة التي يرفعون مشاعلها ضد الأتراك لكنهم فقد في حاجة للدعم والمؤازرة واللحظة المناسبة لتحقيق أهدافهم».

لقد كان لورانس صادقًا فيما يقول حيث رأى ببصيرته أن العرب هم الأحق بإشعال ثورتهم ضد الأتراك، وذلك لاعتبارات دينية وتاريخية وحضارية، ومن ثم

لا ينبغي لأية قوات أخرى أن تقوم بما ينبغي على العرب القيام به وإلا كان مصير ذلك الفشل الذريع وإطفاء مشعل الثورة إلى الأبد.

والواقع أن هذه الرؤية ليست مجرد محصلة اجتهاد وجهود باحث آثار أو منقب حفريات أو مهموم بالشأن العربي أو عسكري محترف، بل كانت نتاج استنتاج ضابط استخباراتي قلما أن يجود التاريخ بمثله لأوربا.

لم يكن رأي لورانس المتعاطف أو بمعنى أدق الذي يتظاهر بالتعاطف مع العرب مقتصرًا على إعلان ولائه ومحبته وتقديره وامتنانه وتعويله عليهم لتحقيق الحلم الذي يراود ساسة بلاده والذي يتمثل في القضاء على دولة الخلافة الإسلامية لينفرط العقد الإسلامي إلى حبات متناثرة يتعذر تجميعها وتكوينها وإدخالها إلى حبل سميك ومتين.

بل كان يحرص على ارتداء العقال العربي ويتدثر بعباءة البدو ويتنقل بنعالهم ويتزين بخواتمهم ويحتسي أقداح القهوة ويردد أشهر مفرداتهم وعباراتهم وكلماتهم بوصفه سوريا من حلب!!

❁ ❁ ❁

واحتد الجدال العنيف بين لورانس وبريموند اللذين تمسكا برأيهما ولم يكن بوسع أي منهما أن يتراجع قيد أنملة عما تعشش في رأسه من أفكار وآراء ومقترحات حتى علا صوتيهما، وكاد أن يتشابكا بالأيدي بعد أن تطايرت العبارات العصبية والكلمات النابية والمصطلحات القاسية الحادة المقززة في تعبير لا تخطئه الأعين يبرهن على جبال الكراهية الراسية في قلب الرجلين إزاء بعضهما بعضًا.

أما الكولونيل ويلسون فقد راق له رأي لورانس حيث رأى أنه الأقرب إلى الصواب وإلى تصورات القيادة العامة البريطانية في القاهرة ولندن والواقع الذي

يلمسه عن كثب.

بيد أن المفاجأة التي أذهلت لورانس وألجلمت ويلسون حملتها برقية سرية عاجلة من القيادة العامة بالقاهرة تشير إلى أن السير موراي قد وافق منذ لحظات على أن يستبقي في القاهرة إحدي الفرق المتآلفة من البريطانيين والفرنسيين من أجل تدعيم العمليات لاعسكرية في الحجاز إذا ما لزم الأمر..

أشارت البرقية المثيرة أيضًا في ختام سطورها أن السير موراي قد قرر إرسال مجموعة من الضباط إلى الحجاز للعمل على التنسيق الميداني، وأن الضباط في طريقهم الآن إلى الحجاز!!

بالطبع كانت البرقية كالقنبلة التي تطايرت شظاياها لتصيب ويلسون ولورانس معًا ولتنتصر لرأي ريموند الذي قاتل وناضل من أجله، وكاد يشتبك مع لورانس بسببه لولا انحياز ويلسون للأخير.. وهو ما أدى إلى استكانة ريموند وسكوته ورفضه المضي في نقاش عقيم قد يسفر عن أزمة لا معنى لاندلاعها الآن لا سيما وأن ويلسون أبدى رفضه صراحة لاقتراحه وهو ما يدعو للتوقف عن الاسترسال في الحديث.

لقد أصيب لورانس بهستيريا أوشك أن يتعرض لمس من الجنون إزاء تلك البرقية القاتلة التي بددت آماله وتبخرت منها أحلامه، وكادت فكرة إطلاق يد الثورة دربًا من دروب المستحيل.

لكن لورانس العنيد الذي وهب نفسه لأم وحلم لم يعد بعيد المنال، بل قاب قوسين أو أدنى أبى أن يرضخ ويذعن لمثل تلك البرقية التي أرسلتها القيادة العامة دون عناية أو دراسة شاملة تدقق في حقيقة ما يجري على أرض الواقع وتفتقر إلى رؤية بعيدة نظرًا لندرة المعلومات الدقيقة والسليمة والصحيحة.

لذلك قرر لورانس المضي قدمًا في إتمام فكرته ومقترحاته وآرائه بغض النظر

عما سيترتب على إصراره وتمسكه وعناده واضعًا مصالح بلاده العليا فوق أية اعتبارات أخرى.

كان لورانس يرى أن الوضع العسكري التركي في الجزيرة العربية يميل بقوة لصالح القوات العربية، وربما كان ذلك للمرة الأولى، وهو ما ينبغي اغتنامه لا سيما، وأن الأوبئة باتت تجتاح الجنود الأتراك علاوة على تدهور معنويات القيادات والضباط والجنود جراء الانسحاب المهين واضعًا في اعتباره الروح العالية التي تجلت في نفوس فيصل وجنوده في الأيام الأخيرة عقب الانسحاب التركي، واستعادة العرب لقواعد التنظيم والالتزام والانضباط والانصياع وتنفيذ التوجيهات بدقة شديدة أضف إلى ذلك تلك الأنباء التي نقلها عملاء فيصل والمتغلغلين في صفوف الجيش التركي والتي تشير إلى تدهور معنويات القائد العسكري التركي فخري باشا بعد أن لاحظ تزايد وفيات جنوده وانهيار معنوياتهم الأمر الذي أفقده القدرة على ترتيب الأوضاع وتجهيز القوات المتوجهة إلى المدينة المنورة لا سيما وأن المؤن في طريقها إلى النفاد والمواشي تعرضت هي الأخرى لحمى وبائية كادت تهلكها جميعًا دون أن يستثني منها أحد.

من هنا كان لورانس يرى ومعه ويلسون الذي يشاطره الرأي أن الفرصة قد لاحت للهجوم على جيش بات منهك القوى كسير الإرادة استبد به اليأس وانخفضت روحه التي كانت تشق عنان السماء وخططه أضحت مرتبكة مهتزة مرتعشة وقادته لا هم لهم سوى كيفية النجاة من هذا الخطر الذي يحيق بهم ومؤن في طريقها للنفاد وعناصر بيئية وعوامل مناخية وكلها مقدمات من شأنها أن تلحق الهزيمة بهؤلاء الذين ساقهم حظهم العاثر لملاحقة قوات فيصل ودفعهم غرورهم لاصطياده أو هكذا توهموا.

كانت الخطة التي رسمها ويلسون بوصفه قائدًا محنكًا متمرسًا تقضي بأن تقوم قوات الأمير عبد الله بحركة سريعة تهدف إلى فرض حصار حول المدينة المنورة من

أجل تهديد سلامة خط الحجاز الذي كان هو الجسر الذهبي الوحيد والرئيسي الذي يربط بين دمشق والمدينة المنورة فيما تقوم قوات الأمير زيد بالزحف على مواقع البحر الأحمر في محاولة جادة للاستيلاء عليها والتمركز بداخلها فيما يتوجه الأمير فيصل على رأس قواته إلى ميناء (وجه) الذي يطل على ساحل البحر الأحمر والبعيد بنحو مائة وسبعين ميلاً من ميناء ينبع لاحتلاله.

لم تكن الخطة تقف عند هذه التعليمات فحسب، بل وضعت في اعتبارها أن هناك ست مدمرات بحرية بريطانية تحت تصرف القبطان «بويل» متجهة في البحر من ناحية الشمال بالقرب من الخط الذي كانت قوات فيصل تزحف عليه برًا كما كانت السفن الإنجليزية تتولى بدورها عمليات إنزال ضخمة للجنود الذين بلغ عددهم خمسمائة جندي عربي فضلاً عن عدد لا بأس به من جنود البحرية البريطانية.

كانت السفن الإنجليزية أيضًا تعمل على قدم وساق لتزويد القوات العربية بالماء والمؤن لندرة المياه في تلك المناطق الصحراوية والجبلية وما يمكن أن تحتويه مياه الآبار من مواد سامة قد تلقي بها القوات التركية.

كانت خطة لورانس وويلسون تعتمد اعتمادًا رئيسيًا على أهمية احتلال ميناء وجه الذي سيتيح الفرصة للقوات العربية لتطويق الأتراك رغم سيطرتهم على ميناء العقبة الأردني والذي يبعد عن ميناء وجه مسافة قد تزيد على خمسمائة ميل على وجه التحديد.

لكن الآمال معقودة على احتلال ميناء وجه كما سبق للعرب أن سيطروا على موانئ جدة وينبع ورابغ، وهو ما سوف يدعم قوات الشريف حسين التي ستضطر حال تطور الأحداث على النحو المستهدف إلى تلقي التموين بسهولة من أجل تحركها لتهديد حامية المدينة المنورة، وتخريب أو قطع خط الحجاز الحديدي مع دمشق.

وفي الثامن والعشرين من يناير بدأت المعركة حيث تحركت القوات العربية في

مقدمتهم «الأمير فيصل» الذي كان مختالاً بنفسه بين قواته التي تغنت بأمجاده وبطولاته ومآثر أسرته ورفعته إلى عنان السماء على أصوات الطبول والأبواق النحاسية المجلجلة والصاخبة والمدوية وكان لورانس يمتطي صهوة جواد يخطو برشاقة على يسار فيصل فيما كان الشيخ شرف علي يمينه في ثيابه البدوية، ومن ورائهم ثلاثة من الرجال يحملون بسواعدهم الأعلام الحمراء ويتبعهم فرق الطبول والذين ينشدون الأناشيد الوطنية الحماسية والثورية، وفي الخلف عدد هائل وغفير من الجنود المقاتلين الذين بلغ عددهم نحو اثني عشر ألف مقاتل.

كانت الأناشيد الحماسية تهز الجبال هزًا وتشق عنان السماء البعيدة وصداها يتردد في الوديان حتى كادت الرمال تتطاير كريح صرصر عاتية أتت عليها..

مضى الركب الرهيب الذي كان رائعًا ومثيرًا من فرط دقته ونظامه وحماسته وانضباطه والتزامه وحين بلغت الأمير فيصل أنباء عاجلة تشير إلى سيطرة قوات الأمير عبد الله على قافلة تركية محملة بنحو أقوية من الذهب بلغت قيمتها نحو عشرين ألف من الليرة الذهبية فضلاً عن زحف قوات الأمير زيد إلى خلف خطوط القوات التركية حتى أوشكت على الاقتراب من أبواب المدينة المنورة.

عمت الفرحة أرجاء قوات فيصل وتعالت الهتافات بحياة الشريف حسين وأولاده وزاد من غبطة القوات التي يقودها فيصل وقوع أشرف بك التركي الموالي للقوات التركية في براثن الأسر بعد حياة حافلة بالسلب والنهب والفساد والإفساد، وقطع الطرقات، وقتل الرجال، وخطف الأطفال واغتصاب النساء،وغير ذلك من التصرفات الهمجية التي انتهت إلى غير رجعة..

بدأ الهجوم على القوات التركية بهدف السيطرة على ميناء وجه بيد أن خلافًا حادًا وعنيفًا كان قد نشب بين لورانس وأحد القادة البريطانيين يرى فيكري الذي لا تروق له شخصية لورانس، ولم يكن على استعداد للتعاون معه أو التفاهم حول أي نقطة مشتركة بينهما.

كانت الغيرة قد اندلعت بين الرجلين حيث إن فيكري رأى أن أظهر وأبرع

وأكفأ وأعظم القيادة الإنجليزية نظرًا لخبراته الطويلة في المعارك الحربية داخل الصحارى العربية وانتصاراته التي حققها وخططه البارعة التي سبق وأن رسمها ونفذها وقدرته على توطيد أواصر الحب والود والتفاهم مع القادة العرب لدرايته وإجادته التامة للغة العربية.

لكن فيكري كان شديد الاعتزاز بنفسه فخورًا بمكانته لا يبالي بمن حوله مهما تعاظمت درجات كفاءتهم وعبقريتهم لا سيما وأنه كان يعلم أن لورانس دخيل على القوات المسلحة، وليس ابنًا من أبنائها ومجرد طالب آثار لا علاقة له البتة بما يجري في أرض المعارك وبونها الشاسع من المعابد الأثرية فضلاً عن أنه كان يضيق ذرعًا من شخصية لورانس التي تفرض نفسها على الأمير فيصل وتكاد تكون المحرك الرئيسي للقوات العربية.

أضف إلى ذلك أن فيكري كان يتشكك في شخصية لورانس ويرتاب في أمر وجوده بين القوات العربية المقاتلة مما زاد من مخاوفه أن يكون عميلاً لحساب القوات التركية أو الألمانية.

أما لورانس فقد كان يشعر بالغيرة على هذا الضابط المغرور، ومن ثم بات الخلاف بينهما لا يتجاوز الإطار الخاص حيث كان الشأن العام أبعد ما يكون عن خلافاتهما معًا.

كانت قوة الشخصية التي يتحلى بها الضابط فيكري خطرًا داهمًا يكاد يطيح بلورانس إذا لم ينتبه له ويتحرك لعرقلته وانطلاقه ولورانس لم يكن لقمة سائغة يسهل قضمها أو هضمها فقد كانت قادرة على كسر أنياب من يلوكها وتسميمه إذا لزم الأمر.

بدأ لورانس الداهية في تعكير صفو الضابط فيكري عبر الاستخفاف به أمام الجنود والتهكم عليه، والسخرية من أحاديثه، وتوجيه اللوم له نهارًا جهارًا أمام الجميع لعله يصيب كبرياءه ويحط من شأنه حتى تهدأ نفس لورانس، وترتاح بعد أن تأججت بها النيران.

ورغم أن لورانس كان على يقين من مهارة وبراعة وعبقرية وكفاءة الضابط فيكري إلا أن لورانس لم يكن من هؤلاء الذين تطيب لهم الحياة للعمل بجانب من يتميزون بمثل تلك السمات الحميدة خوفًا على مكانته ودوره وأهميته، ومن ثم لم يكن لورانس على استعداد لقبول الأمر الواقع مهما كانت العواقب حتى يظل مستأثرًا بلقب صانع الثورة العربية ومفجرها وقائدها الخفي.

كانت غيرة لورانس لا تتمثل في كفاءة فيكري العسكرية فحسب، بل تمثلت في طلاقة فيكري في التحدث باللغة العربية حتى يكاد المرء يحار في جنسيته فيما كان لورانس يجيد التحدث بلغة أهالي حلب، ويتعذر في إطلاق لسانه مما زاد من تعقيد الموقف بينه وبين فيكري، ومن ثم مارس لورانس أحط وأقذر الأساليب لتعجيز فيكري وإرهابه ودفعه إلى التراجع، والانسحاب من صفوف القوات العربية، وهو المخطط الذي تمكن منه لورانس وأدى بالفعل إلى أن قرر الضابط فيكري مغادرة المعسكر التابع لفيصل للحاق بالقوات البحرية للعمل تحت إمرة القائد بويل للتخلص من سخافات وحماقات ورذالات وإهانات لورانس الذي يكتوي بنيران الغيرة والحقد.

ومضت قوات فيصل في طريقها إلى قرية حبان البعيدة بمسافة تزيد عن خمسين ميلاً من ميناء وجه ليتواءم وصولهم وفق ما هو مرسوم مع وصول قوات البحرية البريطانية بقيادة بويل.

كانت قوات فيصل قد واجهت متاعب وصعوبات رهيبة أثناء سيرها في الطريق نظرًا لندرة المياه والأعشاب والأراضي الجرداء والجدباء الأمر الذي أصاب الجنود بالإجهاد والإرهاق.

كان الأمر عسيرًا على جنود فيصل حيث تراجعت الأناشيد الحماسية واندثرت أصوات الطبول واختفت الأبواق النحاسية وخفتت الأعلام والبيارق والرايات التي كانت خفاقة ترفرف محمولة بسواعد الأشداء الذين خارت قواهم

وضعفت حيلتهم وتضاءلت قامتهم أمام وعثاء السفر الطويل والمسالك الوعرة المحفوفة بالمخاطر والعقبات.

❁ ❁ ❁

وحين أرخى الليل سدوله بلغت قوات فيصل قرية حبان بعد مسيرة طويلة من الكفاح والعمل الشاق الصعب وقد توجه بعض رجال فيصل إلى الميناء لاستطلاع مصادر إطلاق بعض أصوات القنابل التي ترامت لمسامعهم حال وصولهم فضلاً عن تزويد قوافلهم بمياه الشرب من السفن الراسية على أرصفة الميناء وتبين بعد قليل أن أصوات القنابل إنما من تطلقها قوات القائد البحري (بوبل) الذي صب جام غضبه على القوات التركية فور وصوله رغم أن الخطة المرسومة تقضي بالبدء في الهجوم تزامناً مع قوات فيصل ولورانس اللذين شعرا بالضيق والأسى من هرولة القائد البحري غير عابئ بما تم الاتفاق عليه مسبقاً.

من جانبه أكد بوبل أنه لم يكن بوسعه تأجيل ساعة الهجوم على الأتراك حتى لا يدع لهم الفرصة للانقضاض على قواته، ومن ثم رأى أن الأمر يستدعي سرعة تحركه لإجهاض أية محاولة لردع قواته وهو التفسير الذي قوبل بغير استحسان من الرجلين الغاضبين.

ورغم أن علامات الانتصار تجلت على ملامح القادة البريطانيين والأجانب وإشارات الانكسار برزت على وجوه الأتراك، بيد أن الأمير فيصل بدا لمن حوله مكتئباً منكسراً مهموماً رغم أنه استغرق كل ما لديه من حماس وجهد في إعادة تنظيم قواته وترتيب أوضاعهم وتذكيرهم بواجباتهم وفقاً للخطط المرسومة.

لكن ورغم تباشير النصر القادم فقد أحس لورانس وفيصل بأن هذا النصر إذا تحقق فلن يضيف شيئاً لهما حيث إنه سوف يسجل في صفحات التاريخ باسم القائد البحري بوبل فيما كانت الطامة الكبرى التي نزلت على لورانس بما يشبه

الصاعقة حين نمت إلى مسامعه أن الضابط فيكري هو الذي دبر وخطط وأعد وجهز هذا الهجوم ومن ثم سيشير إليه الجميع بدءًا من أقل جندي إلى أعلى رتبة عسكرية أنه الرجل العبقري الذي أحرز هذا الانتصار الساحق والسريع والذي يتولى رسميًا قيادة الفرقة العربية.

كان الصراع بين لورانس وفيكري قد عاد إلى سابق عهده حيث اشتدت حدة المنافسة واشتعلت نيران الغيرة مرة أخرى بعد أن هدأت جذوتها برحيل فيكري بيد أن ما حدث قد أشعلها مرة أخرى وبالتحديد في صدور لورانس الذي يضيفه صدره لمحبة الأخريات ويتسع لنفسه فقط.

لكن الضابط العنيد فيكري كان هو الآخر ينتظر قدوم منافسة على صفيح ساخن حتى يقرأ ملامح وجهه لعله يثأر لنفسه من لورانس برؤيته وجهًا لوجه.

وحال وصول لورانس بين قوات الجيش العربي راح الضابط فيكري يستعرض في حركة تمثيلية مكشوفة بين الجميع بعد أن اعتلى منصة الخطابة يشرح كيف أتاحت له خبراته وتجاربه وعبقريته من إحراز نصر ساحق استغرق زمنًا قصيرًا للغاية فاق التنبؤات والتوقعات والحسابات أكد فيكري أن خطته كانت أكثر من رائعة وقد كان حديثه لا يخلو من نبرات الغرور والاستعلاء والصلف والكبرياء لإثارة أعصاب لورانس واستفزاز مشاعره لعله يخرج عن وقاره ليلقنه درسًا بليغًا وقاسيًا لاسترداد كرامته التي تلطخت في أوحال لورانس على مرأى ومسمع من جميع رجال جيش فيصل.

كان لورانس يتابع حديث غريمه باهتمام بالغ لعله يتصيد أية أخطاء قد يقع فيها فيكري لا سيما وأن حديثه سوف يتطرق إلى حجم الخسائر البشرية والتسليحية التي تعرضت لها قواته وهو ما سيتيح الفرصة أمام لورانس لتحجيمه وتصغيره وكسر غروره، وتحطيم إرادته بيد أن حجم الخسائر التي استعرضها فيكري لم تكن تستحق أن يتحفز لها لورانس ومن ثم تحلى بالصمت إزاء حديثه

الطويل تفاديًا للوقوع في خطأ يتحمل مسؤوليته أمام الجميع وقد يعصف بمكانته لا سيما وأن فيكري قد تحققت على يديه ما لم يتحقق على يد غيره من قبل.

لكن كانت نفس لورانس الحاقدة الكارهة التي تتشح بالسواد حزنًا على ما فاتها من إحراز مجد مبكر وأن ينسب لصاحبها قد أعوزت إليه أن يعكر صفو هذا الذي سلب منه أعز أمانيه وأغلى آماله ومن ثم وجد لورانس نفسه مندفعًا لإلحاق أي أذى بالضابط فيكري وإفساد فرحته.

راح لورانس يقول بلسان يقطر حقدًا وبغضًا موجهًا حديثه لفكري ويبدو أنك تظن أن الانتصار قريب الشبه من السلعة التجارية التي يمكن بيعها أو استبدالها بأرواح الجنود العرب الذين تسببت أنت في إزهاق أرواحهم.. ولكن جريمة إنسانية بكل المعايير القانونية ثم لاحظت في خطابك الممزوج بالزهد والغرور أنك تتجاهل هؤلاء الجند من العرب الذين قتلوا تحت رايتك بأنهم كانوا من جوقة الأصدقاء الذين أفرطوا ثقتهم في حكمة القيادة البريطانية وخبراتها الواسعة في توجيه وتسيير شؤون المعارك والحروب وإلا لما كانوا قد سلموا أرواحهم رهن أياديكم بصفتكم ضباط مشرفون عليهم..

ثم لاحظت أيضًا أنك في معرض خطبتك العصماء أنك تعمدت عن قصد وسوء نية جلية تجاهل وجود جيش الأمير فيصل مع العلم أنه لو أنك قد أرجأت موعد الهجوم إلى موعد لاحق..

وخلاصة قولي .. إنكم دخلتم في حرب ضد الأتراك كنتم في غنى عنها، وفي غنى عن تعريض الجنود العرب لموت مؤكد.. لا لشيء إلا أنكم استعجلتم الهجوم لأغراض تدور في عقولكم وتسكن نفوسكم.. وبناء على ذلك فإنني لا أعتبر هذه المعركة قد أهدرت وقتًا وقتلت أرواحًا وكبدتنا خسائر مالية جسيمة فحسب، بل أعتبرها جريمة كبرى لا يمكن بأي حال من الأحوال أن تغتفر لا من القيادات العسكرية،ولا من محاكمة التاريخ الذي سيسجل بحروف صادقة ما الذي ارتكبته

في حق هؤلاء الذين ضحيت بهم لمجدك الشخصي».

❀ ❀ ❀

كان أمرًا مفاجئًا أن يلوذ الضابط فيكري بالصمت طوال حديث لورانس الذي عقب فيه على ما ورد في خطابه الحماسي حيث استطاع لورانس بذكائه ومكره أن ينتقص من شأن الانتصار الذي أحرزه، وأن يلقي على كاهله أرواح الجنود الذين سقطوا في ميدان المعركة.

والواقع أن ضعف فيكري وخذلانه وانعدام ثقته وتقوقعه أمام طلقات لورانس الذي كان يلقى تأييدًا ساحقًا من فيصل ورجاله قد كانت من أهم العوامل التي أدت إلى نكوص فيكري وتقهقره وانكماشه بعد أن كان مزهوًا منفوشًا كالطاووس بين رجاله وقواته.

ويمكن القول إن لورانس لو كان قد أحرز مثل هذا الانتصار الساحق أو أقل منه وبخسائر فادحة تفوق أضعاف ما تكبدته قوات فيكري لكان قد سجل انتصاره بحروف من ماء الذهب على صفحات التاريخ.



الفصل الثامن

الصراع بين لوران وبريموند

حين بلغت أنباء النصر الساحق الذي أحرزته الجيوش العربية والبريطانية معًا إلى الجنرال الفرنسي بريموند تميز غيظًا وأحس بالأسى والأسف على ما تمكنت منه القوات البريطانية التي تجاهلت تقاريره وإرادته، ولم تلتفت إليها حيث رأت أنها تنفصل عن واقع ما يجري من تفاعلات وتطورات على الأرض الجارية.

ولأن موقف بريموند كان يبعث على السخرية من قبل القادة الإنجليز فقد تلقى إشارة عاجلة من قائد القوات الفرنسية فوش تصف عبارات شديدة اللهجة وقاسية بلغت حد التعنيف واللوم على تكاسله وتباطؤه في إدراك ما يدور في الجزيرة العربية بوصفه المبعوث الرسمي للحكومة الفرنسية.

لكن بريموند من جانبه كان يشعر أن آماله عريضة وإمكاناته محدودة، وأن بلاده كثيرًا ما خذلته أمام الإنجليز حيث كانت مغلولة اليد فيما يتصل بالأسلحة والمعدات التي كانت غير قابلة للاستعمال من رداءتها وسوء تخزينها وتاريخ

تصنيعها القديم الأمر الذي استعصى على العرب المجندين استعماله أثناء الحرب.

كان بريموند يعاني نقصًا حادًا في الفرق العسكرية الفرنسية التي كان تشكو من قلة المواد والإمكانات المادية فضلاً عن حاجتها الملحة لأصول وقواعد التنظيم العسكري وشؤون التدريب.

لكن على الرغم من المتاعب والصعوبات التي واجهت بريموند نظرًا لمحدودية إمكاناته بيد أنه كان معروفًا لدي القيادات البريطانية بصلابته وعناده واستبساله في الوصول إلى ما يصبو إليه حيث لم يكن من طراز هؤلاء الذين يتسلل اليأس إليهم ويتملك منهم ويعصف بآمالهم، ومن ثم تحلى كعادته بأعصاب حديدية مكنته طوال حياته من خوض غمار معاركه دون أن تتنازعه المخاوف، بل كان يملك القدرة والإرادة على نسج المؤامرات والمكائد والخطط الماكرة للإيقاع بأعدائه وخصومه في براثن شراكه المنصوبة لهم.

وأمام المستجدات التي طرأت على الموقف العسكري في منطقة الجزيرة العربية بعد سيطرة القوات العربية بمساعدة حليفتها البريطانية من احتلال ميناء (وجه) كان لورانس قد قرر السفر إلى القاهرة لوضع تقرير شامل وتفصيلي يشرح فيه التطورات التي أفرزتها الحرب الأخيرة مع الأتراك وما يمكن أن تواجهه القوات العربية مستقبلاً.

كان لورانس يهدف في رحلته إلى إبلاغ قادته بأن رهانه القديم على الجندي العربي في طرد القوات التركية كان أمرًا واقعيًا وأضحى بعدما أحرزته من انتصارات قرارًا صائبًا وحكيمًا يؤكد بما لا يدع مجالا للشك مدى براعته لورانس وعبقريته في إدارة شؤون الثورة العربية وانعكاسات حكمته البليغة على تقدمها وانتصاراتها ونجاحها.

وأثناء وجود لورانس في مقر القيادة العامة باغته الجنرال بريموند بوجوده حيث كان قد جاء هو الآخر لعرض بعض مقترحاته ورؤاه فيما يخص مسألة الدعم الفرنسي البريطاني للقوات العربية في منطقة الحجاز.

وحين التقى الرجلان الغريمان الدوران والخصمان العنيدان وجهًا لوجه في إحدى ردهات القيادة العامة بالقاهرة تمالك بريموند أعصابه وتحلى بالصبر وتذرع بالحكمة وهو يدنو من لورانس بخطوات ثقيلة كأن قدماه قد قيدت بأغلال من حديد ليصافحه بحرارة ومودة غير معهودة منه وراح يقدم خالص تهنئته على ما أحرزه من انتصارات عسكرية التي ذاع صداها في أرجاء المعمورة.

وقد أكد في مكر ودهاء :

«لا أخفي عليك يا عزيزي الميجور لورانس إنني كنت على يقين دومًا بأنك رجل يتسم بعبقرية عسكرية فذة يندر أن يجود الزمان بمثلها... وأنت تبرهن كل يوم على صحة هذا اليقين عبر انتصاراتك الساحقة.. الأمر الذي يسمح لي أن أبلغك بما يدور في رأسي من خطط أعتزم تنفيذها على أرضية الأيام القادمة حال أن تتعهد أمامي بمد يد المساعدة والمؤازرة وسوف تتأكد أن ما في حوزتي من خطط ستحقق لك مزيدًا من الانتصارات العسكرية والسياسية معًا على حد سواء!!

كان لورانس غارقًا في زهوه واستعلائه حيث لم يكن يتوقع بحال من الأحوال أن يتساقط كبرياء عدوه بهذه الصورة المروعة والذي كان يتفاخر ويزهو بنفسه وبتاريخه العسكري القديم وبمناصبه المرموقة وبثقة حكومة بلاده في أدائه وكفاءته ومهارته.

راح لورانس يستمع إليه في شماتة لمعت ملامحها في عينيه وهو يطوف بخياله على اللقاءات الساخنة والمشحونة بالتوتر والانفعال مع هذا الرجل الذي

بدا مستكينًا هادئًا وديعًا يقف متواضعًا بين يديه كأنه أحد جنوده الذي تقدم بالتماس ويرجوه الموافقة على ما جاء به.

في تلك اللحظة التي كاد يرقص فيها لورانس طربًا أخذ بريموند يشرح في حديث ممل كيف بنى خطته على ضرورة طرد الجنود الأتراك من ميناء العقبة الأردني الذي يبعد عن ميناء جوه نحو خمسمائة ميل تقريبًا وانعكاس ذلك على سير الحرب وتأثيرها الفادح على الألمان وإرباك خططهم وإفشالها.

كان بريموند يرى أيضًا أن لميناء العقبة أهمية بالغة فيما يتصل بشأن خطوط مواصلات القوات المتحالفة وإمكانية مدها بالمؤن والذخيرة والأسلحة وكافة صور الإمدادات وما يترتب على ذلك إذا تطلب الأمر شن هجوم واسع النطاق على سوريا ووادي الأردن من السويس.

كان لورانس ينصت بغير اكتراث إلى ما يتحدث به بريموند حيث كانت للورانس خططه وأفكاره ورؤاه التي لا يسمح لأحد كائن من كان أن يقفز عليها أو يزاحمها، ومن ثم كانت إحدى أذنيه من طين بينما كانت الأخرى من عجين إزاء حديث بريموند.

ربما كان لورانس يعرف أن بريموند لا يخلص النصيحة نظرًا لما بينهما من مشاحنات وأحقاد تجلت في نجاحات لورانس الأخيرة ويتعذر على ريموند قبولها وإن تظاهر بأنه ابتلع ما حدث من قبل وأسدل الستار أو أن يحمل في صدره قلبًا تضخه شرايينه بالحليب النقي الصافي وهو ما يصعب على لورانس الكاره لكل الناس أن يتقبل مثل هذا الأمر.

ولأن ريموند كان هو الآخر يتصف بالذكاء الحاد فقد قرأ تجاهل لورانس وعدم اكتراثه بما يقول، ومن ثم أوهمه بأنه في طريقه إلى الأمير فيصل لعرض تفاصيل خطته أمامه لعلها تجد لها صدى لديه ويتحقق ما يصبو إليه لخدمة

أوربا وإنهاء الخلافة الإسلامية على أيادي الفرنسيين والإنجليز والعرب معًا في أسرع وقت ممكن.

تلقى لورانس صفعة بريموند بهدوء وبرود فاق توقعات بريموند بيد أن لورانس كان قد قرر أثناء تلك اللحظة سرعة العودة إلى الأمير فيصل لتحذيره من مغبة الخطة التي سيعرضها عليه ريموند وما يمكن أن تسببه من كوارث وخسائر هو في غنى عنها فضلاً عن أن الأوضاع العسكرية لا تحتاج إلى وجود مثل هذه الخطة.

فكر أيضًا لورانس في دراسة تلك الفكرة التي اقترحها بريموند ومحاولة بحثها من كافة الأوجه وإذا تأكد مدى إمكانية تطبيقها من الممكن أن يزعم أنها نتاج عبقريته وخطته التي ولدت في رأسه أثناء اقترابه من العقبة عند عودته إلى مصر، وذلك لانتزاع الإعجاب من الأمير فيصل وإزاحة من أراد أن يزاحمه في السيطرة على فيصل واستمالته واجتذابه، ومن ثم التأثير عليه.

ولم يتردد لورانس في حزم أمتعته وأطلق ساقه للريح إلى ميناء السويس متوجهًا إلى ميناء (وجه) للقاء الأمير فيصل حيث عرض عليه مخاوفه وهواجسه من مشروع بريموند الذي ينطوي علي مكائد ودسائس يضمرها في نفسه إزاء الشريف حسين وأولاده وأخذ لورانس يشرح العواقب الوخيمة والأضرار التي سوف تنجم إذا استجاب ورضخ وأذعن لمقترحات بريموند.

كان فيصل ينصت إلى حديث لورانس باهتمام بالغ حيث إن لورانس قد أضحى عقله ومستشاره وضميره ومن ثم كان لا يرتاب إطلاقًا فيما يردده لورانس.

بعد مرور عدة أيام على لقاء لورانس وفيصل كان بريموند وصل لتوه إلى ميناء وجه في محاولة جادة منه للقاء الأمير فيصل وعرض مقترحه على مسامعه.

في أثناء هذا اللقاء المرتقب والذي أثار أعصاب لورانس وكاد يسعى لإفشاله على نحو أو آخر بادر ريموند بالحديث عن اعتزامه تزويد قوات الأمير فيصل بعدد كبير من المدافع الرشاشة كباب يستطيع أن يدلف منه إلى عرض ما في حوزته من خطة حملها في رأسه وقلبه لعلها تجد قبولاً وترحابًا لدى الأمير فيصل.

وحين قام رجال بريموند بعرض مدافعهم الرشاشة على الأمير فيصل أبدى الأخير امتعاضه واستياءه في تلك الصفقة حيث أعلن أنها صفقة لا معنى لها لا سيما وأن القوات التركية كانت تقاتل بمدافع عملاقة وحديثة فيما أن هذه المدافع التي أحضرها بريموند من النوع القديم الذي عفا عليه الزمن.

كان رفض فيصل بمثابة إبداء موقفه من الخطة التي سيعرضها عليه بريموند وربما كان لورانس قد لعب دورًا بارزًا وأسهم بجلاء في إفشال عقد هذه الصفقة التسليحية.

أمام الرفض المفاجئ الذي أبداه فيصل راح بريموند يفند في إسهاب ركيك مزايا تلك المدافع ومدى كفاءتها وقدرتها على إلحاق الأذى بالأعداء حال الاشتباك معهم.

ولم يكن فيصل راضيًا عما يشير إليه بريموند، ومن ثم نهض من مقعده قائلاً في ثبات وصلابة تعقيبًا على مزاعم بريموند وحججه الواهية التي عجزت عن اختراق عقل الأمير الصلب العنيد:

«الواقع يا عزيزي الجنرال بريموند إننا لسنا في حاجة إلى مثل تلك المدافع الرشاشة الخفيفة والقديمة والتي قد عفا عليها الزمن.. لكننا في حاجة ملحة إلى المدافع الفرنسية المخزونة في السويس.. ولست أرى ما يحول بينكم وبين تزويدنا بمثلها خصوصًا وأنت تعلم تمامًا أن القوات التركية قد تم تجهيزها

بمدافع ثقيلة مصنوعة في فرنسا ..».

واختتم الأمير فيصل حديث المقتضب قائلاً، وقد بدت ملامح صارمة لا تنفك خطوطها وهو يقول موجهًا حديثه لبريموند:

«من المفترض إزاء كل ذلك أن تكون قواتنا مسلحة بأحدث الأسلحة ومجهزة بأقوى المعدات وينبغي أن تتفق على مثيلاتها التي في أيادي الأتراك حتى تتمكن من النصر عليهم أليس كذلك أم ماذا ترى يا بريموند؟!!».

كان بريموند قد استسلم ليأسه عقب اللطمة التي وجهها له فيصل وقد أجاب على سؤال الأمير المباغت بقوله:

«إن الجندي العربي لن يحتاج إلى استخدام المدفعية الثقيلة ما دامت واجباته الحربية سوف تنحصر في عمليات تسلق الصخور كالأعنام وتدمير وتحطيم بعض قضبان السكك الحديدية».

كان بريموند في حديثه قد تخلى كليًا عن ذكائه المعهود واستبدله بغباء وكبرياء واستعلاء أثار من خلالهم أعصاب فيصل الذي ثار كالبركان المنفجر قائلاً:

«إن الجندي العربي كان وسيظل دومًا أشد بأسًا وأكثر قوة وأصلب عودًا وأوفر كرامة من الجندي الفرنسي».

فطن بريموند لغضبة الأمير وثورته وقرر إلقاء ماء بارد على الحوار الساخن الملتهب قائلاً بعد أن رسم شبح ابتسامة على وجهه قائلاً:

«كفاك يا سمو الأمير .. كفاك..

فلنتوقف عن الاسترسال في هذا الشأن وعفا الله عما سلف ألا تقولون ذلك في أثناء مناقشاتكم الحادة .

ومن جانبه احتاط الأمير فيصل لكلماته حيث أراد بدوره أن يتجنب تصعيد الأمر إلى أعلى المستويات بعد أن استطاع تلقين هذا الضابط الأرعن درسًا في كيفية التعامل مع العرب لا سيما إذا كان يقف بين أحد أبرز قادتهم وابن أهم زعمائهم على الإطلاق وأعدي أعداء الأتراك.

وعلى الفور استهل بريموند حديثه في عرض خطته التي دعا فيها إلى احتلال ميناء العقبة لأهميته القصوى على مجريات الأمور سواء السياسية أو العسكرية أو الاقتصادية وتأثير الانسحاب التركي على مسيرة الثورة العربية التي ستنطلق إلى الأمام بعد أن يصبح ميناء العقبة في حوزة الثوار العرب.

لكن فيصل قد ضاق ذرعًا من حديث بريموند بعد أن أوشى له لورانس وبعد أن تجاوز بريموند حدود اللياقة في حديثه مع فيصل الأمر الذي اضطر أن يبلغه بما يدور في رأسه قائلاً باستخفاف وتهكم من الموقف الفرنسي المتخاذل:

«لكن كيف تطلب مني يا بريموند أن أطالب الإنجليز بمساعدتي في احتلال العقبة ولا تزال أياديهم ممدودة لي في ميناء وجه حتى تلك اللحظة؟».

كانت ردود الأمير فيصل تثير إعجاب لورانس الذي تهللت أساريره وانفرجت بعد أن رأى بعينيه ما أصاب عدوه بريموند من طعنات ولطمات وصفعات كان لورانس يقف بالطبع وراءها رغم تظاهره بالحياد والالتزام بعدم الإفصاح عن رأيه حتى لا يتيح الفرصة لبريموند المتربص به.

وحين أدرك بريموند أن فيصل قد أدار ظهره لخطته راح يمارس سلوكه المعتاد الذي اشتهر به بين الجميع، ومن ثم قرر دق (إسفينًا) ربما يصيب جدار العلاقة المتينة بين فيصل ولورانس بشرخ قد يتعذر ترميمه ويصعب بناؤه مرة أخرى.

وعندما نهض لمغادرة خيمة الأمير فيصل رمق لورانس بنظرة قاسية ذات معنى فطن لها لورانس دون جهد أو عناء، بيد أن بريموند الذي بلغ باب الخيمة

التفت فجأة مخاطبًا الأمير فيصل قائلاً:

«عجبت لموقفك يا سمو الأمير.. وأنا أراك عاجزًا عن مطالبة أصدقائك الإنجليز بتزويدك بالأسلحة الثقيلة كالدبابات والمدرعات المصفحة المحمولة على سفنهم الراسية في السويس.

في أعقاب تلك العبارات اللاذعة تكهرب لورانس الذي نهض من مقعده ثائرًا وهو يقول في عصبية معقبًا على ما ذكره بريموند:

«يبدو أنك لاتعرف أن هذه الأسلحة التي شاهدتها بنفسك هي بالفعل في طريقها إلى الجزيرة العربية.

لم ينتظر بريموند سماع المزيد حيث كان قد أدرك أن رسالته وما تنطوي عليه من معان قد أصابت هدفها، ومن ثم أطلق ساقه للريح غير عابئ بصرخات لورانس العنيفة.

❁ ❁ ❁

بعد مرور ثلاثة أيام قرر لورانس العودة مرة أخرى إلى القاهرة لمتابعة تحركات بريموند وملاحقته حتى لا يتمكن من عرض خطته على القيادة العامة في القاهرة فتتبخر أحلامه وتذهب أمانيه أدراج الرياح.

على أية حال فقد تغير وجه الحياة حيث واجهت الأوضاع العسكرية متغيرات فاعلة ومؤثرة وخطيرة بعد أن أصبح ميناء وجه تحت سيطرة قوات الأمير فيصل ومن ثم رأت القيادة العامة الإنجليزية ضرورة إعادة تقييم الدعم العسكري إلى الثورة العربية بعد أن تنبهت لأهمية القوات العربية ومساهمتها في دحر القوات التركية..

رأت القيادة العامة أيضًا أن دعم القوات العربية ودفعها إلى خوض غمار المعارك مع الأتراك قد يؤدي إلى تفكيك الإمبراطورية التركية وقطع أطرافها في

الجزيرة العربية وهو ما سيوفر الوقت والجهد والدم والمال لهم فضلاً عن تخفيف أعباء مواجهة قد تدفع الألمان إلى الاصطياد في الماء العكر.

لذلك لم يكن لافتًا للنظر أو مثيرًا للدهشة التحرك العسكري البريطاني الداعم للقوات العربية الموالية للأمير فيصل الذي كان يستقبل يوميًا السفن المحملة بشحنات الأسلحة الثقيلة والمعدات وقطع الغيار والأجهزة الفنية الخاصة بتدشين محطة إذاعية لتنوير سكان الجزيرة العربية ضد الأتراك من خلال بث الخطب الرنانة والأناشيد الحماسية والأغاني الوطنية.

في تلك الساعات الحرجة كان لورانس منكبًا على أوراقه وأبحاثه لعله يتوصل إلى خطة رادعة مانعة قاطعة ناجحة يتمكن بواسطتها من تصفية الوجود التركي بصورة نهائية وذلك بطرده من ميناء العقبة الأردني بوصفه أهم وأخطر وأقوى مواقع التمركز التركي في المنطقة بأسرها.

وراح لورانس يتقمص شخصية جنرال عسكري ربما ينجح في رسم خطة دقيقة يتحقق النصر من خلالها ليبين لنفسه مجدًا وليصنع لنفسه اسمًا بين القادة العسكريين العظام.

كان لورانس يبحث ويتأمل ويفحص كتب التاريخ والمعارك العسكرية وعلى رأسها حروب نابليون بونابرت والمارشال فوش و الجنرال هينبعل بيد أنه يتبين له أن ميادين المعارك بالطبع تختلف وفق موازين القوة والطبيعة والجغرافيا والتاريخية والبشرية.

وعلى الرغم من إدراكه لعبقرية نابليون وذكائه في إدارة حروبه الطويلة وفتوحاته ومغامراته إلا أنه قد أدرك أن هناك بونًا شاسعًا بين قدرات وطبيعة المقاتلين واضعًا في اعتباره تعاظم قدرات الأتراك وافتقاد المقاتل العربي للخبرات الجادة في الحروب النظامية.

لذلك رأى لورانس أن حرب العصابات هي أهم ما يمكن الارتكاز عليه حيث إن هذه الحروب هي الأنسب لطبيعة المقاتل العربي الشرس ذي القدرات والإمكانات المحدودة كما أنها تستقيم مع قوة الأتراك واستفحال قدراتهم وخبراتهم الطويلة في ميادين المعارك.

أثناء ذلك كانت قوات الشريف حسين تفرض أدوات سيطرتها على مكة المكرمة والطائف وينبع ووجه ورابغ فيما كانت القوات التركية لا تزال تسيطر على المدينة المنورة إلى جانب مراكز قريبة نسبيًا من الخط الحديدي الرابط بين المدينة المنورة ودمشق.

إذن لم تكن القوات التركية أحسن حالا، بل كانت تواجه مأزقًا أثار حيرة قادتها حيث تنبهت مع الضربات المتوالية الأخيرة إلى فقدان ثقلها ومكانتها في الجزيرة العربية حيث لم يكن في حساباتها وخططها أن تجد نفسها قاب قوسين أو أدنى من الانهيار لا سيما وأن قواتها باتت محاصرة داخل المدينة المنورة، ولا سبيل أمامها سوى صحراء قاحلة مترامية وسواحل لم تعتد على الحرب في مياهها من قبل.

من جانبه اكتشف لورانس أن تدهور الوضع الاستراتيجي لتركيا في الجزيرة العربية بعد المستجدات التي طرأت على ميادين القتال قد تغري بلاده إلى احتلال سوريا وعدم الاكتفاء بطرد الأتراك.

كانت الأوضاع التركية بالفعل تثير الشهية وتحرك أطماع الإنجليز لا سيماوأن المعلومات المتوافرة تشير إلى أن الأتراك الذين يتمركزون على نطاق خطوط نار واسعة الأطراف والحدود تستدعي أن يتواجد ما لا يقل عن نحو نصف مليون عسكري في الميدان.

في حين تراوحت أعدادهم طبقًا لتقارير الاستخبارات البريطانية بين مائة

ألف ومائتي ألف جندي يحتشدون بطول جبهة لا تقل عن ١٥٠ ألف ميل مربع وهو ما أدى إلى شل قدرة الأتراك في صد حركات المقاومة، والتراجع الملحوظ في مواجهة الثورة.

وحين نقل لورانس خطته إلى فيصل فوجئ بأن فيصل لم يتردد في قبول الخطة والإسراع في تفعيلها قبل أن تتعرض المنطقة لأية تحركات أو تطورات قد تؤثر على سير الخطة مستقبلاً.

لقد تهللت أسارير لورانس الذي طالب الأمير فيصل بأهمية التفاوض مع زعماء وشيوخ القبائل والعشائر لوضع الأمر بين أياديهم حتى يتحملوا المسئولية في تضافر الجهود لتصفية النزاعات الناشبة بينهم وإنهاء الخلافات والوقوف صفًا واحدًا أمام الاحتلال التركي لطرده وتحرير بلادهم من احتلاله واستعماره.

من ناحيته راح الأمير فيصل يبارك خطة لورانس وتحركاته حتى إنه قرر تزويده ببعض رجاله الأوفياء لمرافقته في أثناء توجهه إلى زعماء القبائل لإرشاده من ناحية، وحمايته وحراسته من ناحية أخرى.

والجنرال هينجل من جانب لورانس بارتياح كبير وإن كان قد أنهى جهوده ودراساته وأبحاثه بضرورة تكريس مفاهيم حرب العصابات وتفعيل أدواتها وفنونها وعلومها على أرض الميدان لاسيما وأنها تتناغم مع جيش يتمتع بالصلابة والعناد فيما تفتقر الجيوش العربية إلى الخبرات والمفاهيم التي تدعم مقاومتها وصمودها.

❁ ❁ ❁

في تلك المرحلة الحرجة كانت قوات الشريف حسين تفرض سيطرتها على مناطق مكة المكرمة والطائف وينبع ووجه ورابغ في حين كانت القوات التركية تبسط جناحيها على المدينة المنورة فضلا عن مراكز لم تكن بعيدة من الخط

الحديدي الرابط بين دمشق والمدينة المنورة.

إذن لم تكن القوات التركية في وضع يتيح لها الشعور بالأمان بل كانت تشعر بالحيرة والارتباك بعد أن تنبهت أنها باتت بين مطرقة صحراء مترامية وسندان بحر لم يكن ضمن حساباتها وخططها.

أضف إلى ما سبق فقرها الشديد في فنون الحروب البحرية هذا إذا وضعنا في الحسبان حالة الانكماش التي تبدت أمام الجيوش العربية في تطور غير مسبوق.

للتأكيد على تلك التطورات الخطيرة هو أن القوات التركية لم تكن تجرؤ على أن تتحرك من مواقعها في المدينة المنورة إلى أي منطقة أخرى إلا بعد أن تحصل على إذن مكتوب من العرب.

من هنا ومن خلال الخريطة الجديدة للمنطقة بدأ لورانس يسعى جاهداً إلى الأخذ بأساليب وعلوم حرب العصابات على اعتبار أنها السبيل الوحيد لإحراز الانتصار على الأتراك أينما وجدوا.

كان لورانس يحاول قدر جهده استغلال عناصر القوة التي توافرت لدى القوات العربية مع ضرورة توظيف كافة نقاط الخلل والضعف التي كان يعلمها عن القوات التركية - لعل أهمها طول جبهة القتال - التي يتمركز عليها الأتراك وتتطلب توفير نحو نصف مليون جندي لتغطية جبهة يبلغ طولها حوالي مائة وخمسون ألف ميل مربع.

ولكن مهمة لورانس كانت تستدعي التحرك العاجل لإقناع زعماء وشيوخ ورؤوساء القبائل لتوحيد الصف فيما بينهم والعمل على قلب رجل واحد ريثما تتمكن الثورة العربية من إتمام مراميها وإنهاء السيطرة الفعلية للأتراك وإسدال الستار على استبدادهم.

وراح لورانس يستعرض تفاصيل تلك الفكرة لتفعيلها على أرض الواقع مع الأمير فيصل الذي انفرجت أساريره لهذا الطرح أو من ثم في دعم لورانس بتوفير كافة سبل الراحة له لإنجاح مهمته ووفق أوامر الأمير فيصل راح لورانس برفقة رجلين لإرشاده يتردد على مقار زعماء وشيوخ القبائل معلنا أنه مبعوث الأمير فيصل حتى يأمن شرورهم إذا ارتاب أحدهم في أمره.

كان لورانس يتحدث مع زعماء القبائل باللغة العربية الطليقة وهو يستعرض مشروعه الحالم بتوحيد الصفوف ونبذ الخلافات إما بتسويتها أو تأجيلها لحين إتمام الهدف المنشود...

كان لورانس يتعمد لقاء الزعماء عقب أداء صلاة العشاء في استغلال واضح لحالة الوقار والهدوء والسكينة والنفحات الإيمانية للحديث عن الجهاد ضد المستعمر ونصرة الأخ لرفع الظلم عنه حتى أنه كان يؤكد أن التعاون مع الشريف حسين تقربا لله والتخلي عنه يعيد خيانة لله ولرسوله ولدينه!!

فضلا عن أنه كان بارعا في استعراض البطولات العربية البعيدة وأمجاد المسلمين وتاريخهم الذي يأبى الخضوع والإذلال والمهانة ودينهم الذي يدعو إلى الحرية والمؤاخاة والمودة والرحمة مؤكداً أن الأتراك لا يؤمنون بمثل تلك المفاهيم حيث لا يتكاسلون في إذلال المسلمين وإلحاق الأذى بهم متى أمكن لهم ذلك.

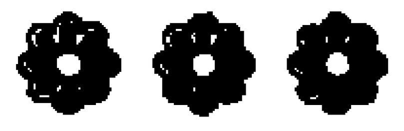
لكن على أية حال نجح لورانس في مهمته الخطيرة حيث توحدت القبائل العربية التي سرعان ما أعلنت تأييدها وولائها للثورة وزعيمها الشريف حسين لتسدل الستار فيما بينها على حقبة كانت تتدفق فيها سيول الدم وكثرت خلالها المجازر التي كانت تقترفها القبائل لبعضها بعضًا لأسباب كانت في مجملها أهون من خيوط العنكبوت من جانبها أخذت قبيلة حرب المتمركزة في إحدى المناطق الصحراوية الواقعة بين المدينة المنورة ومكة زمام المبادرة حتى تبعتها قبيلة تشتهر بكثرة أعداد رجالها وهي قبيلة جهينة المتواجدة على طول الطريق من ساحل

البحر الأحمر إلى مشارف المدينة المنورة ثم سرعان ما أعلنت قبيلة بلُّي التي كانت خيامها منصوبة على امتداد المنطقة المحاذية لميناء وجه..

في تلك الفترة كسبت الثورة العربية أبرز الرجال الذين أعلنوا تأييدهم وانخراطهم في صفوف قواتها وقد كان على رأس هؤلاء الرجال جعفر باشا الذي كان قد أبلى بلاءا حسناً ضد القوات البريطانية حتى أنه قد كسر قيوده عقب وقوعه في الأسر ولاذ بالهرب وسط حالة من الدهشة والذهول اعترت وجوه الإنجليز.

أما الزعيم المعروف نواف الشعلان ابن الزعيم نوري الشعلان وقد كان لهذا الزعيم الفضل الكبير في دعم فيصل ومساعدته في تهريب الأمير فيصل من دمشق

أضف إلى ذلك توافد الزعماء على مقر الأمير فيصل لإعلان تأييدهم ودعمهم لدوره البارز في إنجاح الثورة الوليدة ودحر الأتراك.



عودة أبو تايه

وبينما كان لورانس يتجاذب أطراف الحديث مع الأمير فيصل حول نتائج مهمته وكيفية إقناعه زعماء العشائر وسيطرته العاطفية عليهم تسلل قائد حرس الأمير فيصل يبلغه بوصول عودة أبو تايه حتى أن ملامح وجه فيصل قد تبدلت من حال إلى حال وبدا مشرقا طليقا سعيدا مأخوذا ثم أسرع يتحدث مع كبير حراسه قائلا: ماذا تقول؟

كبير الحرس: أقول يا سمو الأمير أن عودة أبو تايه قد وصل.

فيصل: عودة أبو تايه!!!

كبير الحرس: نعم يا سيدي هو نفسه.

فيصل: عليك أن تدخله هنا فوراً لا تتلكأ!

كبير الحرس: أمرك سمو الأمير أمرك.

وانطلق نحو الرجل ليشير عليه بالدخول فيما كان لورانس قد أحس من ناحيته بغبطة لم يكن قادراً إخفائها أو تعتيمها وفي التو وقبل أن يلحظ فيصل انشراح وجه لورانس كان عودة أبو تايه يقف على باب الخيمة ممشوق القوام بقامته الفارعة وجسده القوي المتين وملامحه التي هي أقرب إلى ملامح فارس قد أتى من الزمن البعيد.

كان فيصل يتأمل وجه عودة أبو تايه في ذهول وغير مصدق أن الذي يقف أمامه شامخا هو عودة الذي لاحت على شفتيه ابتسامة صافية قوبلت بأحسن منها حيث تجلت على ثغر فيصل الذي كان لايزال غارقا في دهشته!!

أخذ عودة أبو تايه زمام الحديث قائلا في ثبات: السلام على سيدنا وقائد جيش المؤمنين.

لم يكن عودة بمفرده بل كان يصطحب ابنه الذي كان في الحادية عشرة من عمره نفض فيصل من مقعده لمصافحته بيد أن عودة راح يمسك بيد الأمير ليقبلها كما كان معتاداً في تلك المناطق ثم انتحى الرجلان معا بعيد عن لورانس الذي راح يراقب ويرصد ما يجري أمامه بين الرجلين.

لم يكن عودة أبو تايه مجرد رجل بدري طويل القامة ضخم الجثة فحسب بل كان رجلا يتمتع بمكانة ومهابة بين أبناء قومه فقد كان أحد ألمع شيوخ وزعماء قبيلة الحويطات.

وقد اشتهر عودة أبو تايه بجسارته وشجاعته وصلابته في الحروب التي كانت يشنها على القبائل المجاورة وإن كان قدعرف بين تلك القبائل بحرصه الشديد على مهاجمة مواقع الجيش التركي.

لكن عودة أبو تايه الذي كان سريع الغضب حاد الطباع كان يتمتع بالقدرة على إخفاء مشاعره وكبح جماح غضبه إذا أدرك أنه قد يدفع حياته ثمنا له.

ورغم ذلك كان عودة أبو تايه يتمتع بشعبية جارفة لما يتميز به من صراحة وشجاعة وإخلاص وأمانة وبساطة وتواضع وذكاء اجتماعي وسياسي وبراعة في ميادين القتال قلما أن تجود القبائل بمثله.

الشاهد أن فيصل عاد إلى مجلسه وقد أمسك يد عودة أبو تايه في إشارة جلية للتعبير عن محبته وتقديره له أمام ضيوفه وقد راح يقدمه لهم على اعتبار أنه أحد أسود القبائل والذين ألهبوا بسياطهم جلود الأتراك.

من جانبه عبر عودة بعد التعارف عن أسفه وحزنه عن الخطوات البطيئة التي تتحرك بها الثورة وقد تطلع إلى إحراز انتصارات سريعة وساحقة حيث إنه يصبو

إلى شروق شمس الحرية في بلاده.

كان حديث أبو عودة مفعما بالأمل زاخر بالحماس يفيض حيوية تجلت على كلماته وملامحه وحركات يده آثار عاصفة من الإعجاب لدى الأمير فيصل ولورانس الذي تحمس لوجود هذا الرجل بجانب فيصل حيث أدرك لورانس مدى الجاذبية التي يتمتع بها هذا الرجل وإلى أي مدى يمكن توظيفها مقوماتها لصالح الثورة.

الواقع أن انضمام عودة أبو تايه إلى الثورة كان له أبلغ الأثر في نفوس فيصل ولورانس وأتباعهم لما للرجل من سيرة ورحلة طويلة قطعها في سبيل الحرية والاستقلال.

ولأهمية عودة قرر الأمير فيصل إقامة حفل استقبال كبير يليق بزعامة أبو تايه تضمن ذبح الولائم ودعوة العديد من الشخصيات المرموقة كان على رأسها الشريف ناصر ابن عم الأمير فيصل ومستشاره العسكري الخاص ونسيب البكري وفايز الدهيلان وشقيقه حمد الدهيلان وزعل الدهيلان

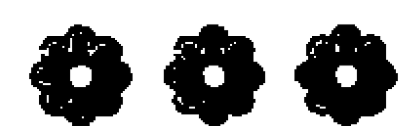
كان لورانس يتطلع إلى هذه الوليمة بوصفها اجتماع عسكري رفيع المستوى يضم النخبة الحاكمة من زعماء القبائل وشيوخها ومن ثم يجب استغلال هذا الحفل المهيب من أجل استعراض خططه المستقبلية الرامية إلى أهمية احتلال مدينة العقبة لما لها من مكانة جغرافية وموقع استراتيجي يمكن أن يؤدي إلى السيطرة الفعلية على ميادين المعارك الدائرة مع الأتراك.

كانت خطة لورانس تعتمد على موافقة الأمير فيصل ومجلس الحرب بالسماح له باصطحاب بعض الرجال للقيام بمهمة خاصة تهدف إلى بلوغ المنطقة الواقعة في حزام المناطق الخاضعة لقبيلة الحويطات والتي تبتعد عن العقبة بحوالي مائتي كيلو متر تقريبا ثم بعدها يتجه على رأس مجموعة مائلة من رجال الحويطات إلى المنطقة الشرقية للعقبة بالتحديد نظرا لتمركز القوات التركية في

جهتها الغربية المطلة على البحر وذلك لإدراك لورانس لمخاوف الأتراك من الهجوم على مواقعهم عبر البحر لصعوبة شن أية هجمات عليها من الصحراء للمسافة البعيدة التي كانت تفصل بين الجيوش العربية والعقبة.

من جانبه أبدى عودة أبو تايه ترحيبه وحفاوته لهذا الخطة التي عرضها لورانس وراح يطالب الأمير فيصل بضرورة توفير كافة أنواع الأسلحة لإنجاح هذه الخطة ثم سرعان ما انتصب بقامته الفارعة وسط القاعة ليقسم أمام الحضور أنه سوف يقدم جميع إمكاناته وقدرات وأدوات قبيلة الحويطات رهن الإشارة عند الهجوم المرتقب.

لم يكن الأمير فيصل أقل حماسة من أبو تايه حيث أبدى رضاه الكامل على خطة لورانس ومباركته لها وتعهد أمام الجميع على دعمها بشتى الوسائل.



الفصل التاسع

الطريق إلى العقبة

في فجر التاسع من شهر مايو كان لورانس يتقدم قافلة تضم الشيخ عودة أبو تايه ومحمد الدهيلان والشريف ناصر والشيخ نسيب البكري ونحو أربعين رجلا أغلبهم من قبيلة العجيلي.

كانت القافلة تحتوي على صناديق مكتظة بالبنادق والمؤن والمواد الغذائية وأكثر من ثلاثين ألف ليرة ذهبية كان فيصل قد زود لورانس بها قبيل مغاردته.

كان الشيخ عودة أبو تايه يقود القافلة لدرايته العميقة بأغوار الصحراء ومسالكها الوعرة ودروبها التي تتطلب أحد العباقرة الذين تربوا ونشأوا في تلك الرمال الناعمة.

كان أبو تايه يتحدث عند ساعات الراحة عن مآثره وأمجاده ومعاركه التي خاضها مع القبائل وجيوش الأتراك وكم عدد الذين أدركهم الموت وحصد أعمارهم على يديه وكيف أنه تمكن من تهديد القوات التركية ومن خلال قيام عناصره بشن هجمات عنيفة وموجعة.

أما الشريف ناصر فقد كان يروي على مسامعهم تاريخ عائلته العريق وأسباب الثراء الفاحش الذي تميزت به العائلة والعلاقات المتشعبة والمتينة مع أثرياء العالم العربي.

على هذا الحال كان الشيخ نسيب البكري لا يكف عن الإنشاد الصوفي والعزف على بعض الآلات الموسيقية وإلقاء الشعر الحماسي أحيانا والعاطفي في أغلبها فضلا عن حرصه الشديد للرد على تساؤلات عودة أبو تايه حول دوره البارز في إنقاذ الأمير فيصل من الموت والاعتقال وكيف أنه استطاع تهريبه من دمشق وهو ما أدى إلى اتهامه بالخيانة العظمى ومن ثم صدر ضده حكم بالإعدام تداعى هروبه على الفور.



مضت القافلة في مسيرتها تتبع خطى الشيخ أبو تايه الذي كان دائم النصح والشرح عند عبور الجبال والوديان والسهول والأراضي تحت لهيب الشمس الحارقة وخلال عرض بونارامي لمعاركه وصراعاته القبلية التي شهدتها تلك المناطق التي يحفظ دروبها عن ظهر قلب.

في أثناء تلك المرحلة التي كانت محفوفة بالأهوال والمخاطر راح لورانس وأبو تايه يمارسان هوايتهما في ضرب الخطوط التركية عبر زرع ألغام في مواقع السكك الحديدية وأعمدة الهاتف والتلغراف أدت إلى تخريبها وسط سعادة بالغة وفرحة عارمة احتضنت جميع أعضاء القافلة.

وبعد مرور ثمانية عشر يوما من انطلاقها من ميناء وجه حطت القافلة رحالها عند آبار رفحة بعد أن استبد بهم الجوع وتملكهم الظمأ بيد أن قبيلة تدعى شَمّر كانت قدجهزت بعض رجالها للاعتداء على القافلة لولا أن تصدى لهم محمد ابن عم عودة أبو تايه مع مجموعة من الرجال لكان لورانس قد لقي مصرعه.

وحين تنبه لورانس لخطورة الأمر أشار على الشيخ عودة أبو تايه أن يسعى قدر جهده لتوفير سبل الأمن والسلام ليبلغ الرحلة هدفها وغايتها وذلك بضرورة التفاهم مع زعيم منطقة وادي سرحان وأحد ألمع زعماء الجزيرة العربية والذي عرف آنذاك بين القبائل بأنه ثعلب الصحراء لذكائه ومكره ودهائه وقدرته الفذة على بسط نفوذه وسلطانه وربما لدوره العبقري في تهريب الأمير فيصل من دمشق.

كان الهدف من وراء الاتصال بهذا الزعيم الصحراوي هو الحصول على ضمان يقضي بتوفير سبل الأمن والراحة لقافلة لورانس حيث إن أبو تايه لم يكن يملك زمام الأمور في منطقة وادي سرحان ومن ثم باتت القافلة تتهددها الأخطار وأضحت في حاجة إلى من يتعهد لها بالأمان لاسيما إذا كان في حجم نوري الشعلان.

الواقع أن لورانس لم يكن يهدف من وراء الاتصال مع نوري الشعلان إلى تأمين القافلة قدر مساعيه إلى إقناع هذا الزعيم المهيب بضرورة وأهمية تأييده للثورة العربية أو بالأحرى تحييد قبائله في النزاع الناشب بين الإمبراطورية التركية والقوات العربية واستمرار متانة العلاقة بينها وبين قبيلة الحويطات التي يترأسها عودة أبو تايه الذي أصبح واحداً من أقرب رجال الثورة العربية.

على أية حال كان لورانس قد أعد الخطط اللازمة لمواجهة التطورات والتحديات الطارئة مدفوعا بحماس أشعلته القبائل العربية التي توافدت على مقر الأمير فيصل عقب إعلان عودة أبو تايه للانضمام للثورة العربية.

فكر لورانس في استمالة الشيخ نوري الشعلان على أن يظل الاتفاق بينهما في إطار من السرية كي لا يتسرب أمره إلى القوات العربية للانقضاض على قوات جمال باشا عنوة بعد ضمان تحييد قبائل نوري الشعلان وانضمام القبائل في صفوف الثورة.

صحيح أن الشيخ نسيب البكري كان يرى من جانبه أهمية شن هجوم واسع

وكبير على القوات التركية الرابطة في سوريا التي كانت تتشوق إلى قدوم الجيش الثوري العربي حيث إن الشيخ نسيب البكري لم يكن متحمسا للهجوم على العقبة.

كانت مبررات الشيخ نسيب البكري في هذا الطرح أن دمشق كانت أقرب إلى المنطقة التي حطت بها القافلة في حين أن العقبة بعيدة نسبيا فضلا عن أن الهدف في نهاية الأمر هو تحرير دمشق وقد تساءل الرجل في عصبية زائدة إذا كان ذلك كذلك فلماذا نصر على الالتفاف حول دمشق فيما هي تدعونا ونسمع نداءها وينبغي علينا تلبيته بدلا من أن نصم آذاننا ونرهق أعصابنا ونجهد أجسادنا للوصول إلى العقبة ثم دمشق!

لكن لورانس لم يكن ميالا إلى هذا الطرح خوفا من مغبة تلك الخطوة على الرجال وما يمكن أن تتسبب فيه من متاعب ومصاعب وخسائر في الأرواح والعتاد قائلا في حزم: «إن من العبث أن أوافق على القيام بالهجوم على دمشق في الوقت الحالي لاسيما وأن قوات الأمير فيصل مازالت محتشدة في ميناء وجه والقوات الإنجليزية تبعدنا عنها مسافات طويلة إذا افترضنا أنها في غزة أو سيناء في حين لايزال الأتراك يحرصون بين الحين والآخر على الدفع بقوات جديدة لتعزيز مواقعهم ومراكزهم ونقاطهم الحصينة في مدينة حلب.

والواقع أن العقبة كانت أسهل وأيسر من دمشق لاسيما وأن قوات لورانس إذا حطت في دمشق فسوف تكون في حاجة ماسة إلى العديد من البواخر لإنزال الجنود في شواطئ بيروت وهو ما يتعذر تدبيره في ذلك الوقت على وجه التحديد.

أضف إلى ما سبق أن لورانس كان يرى أيضا أن العقبة لها مكانتها التاريخية لدى الأتراك حيث كانت القيادة العليا في اسطنبول قد اتخذت من العقبة أحد أهم ممراتها الأساسية للوصول إلى قناة السويس بيد أنها اتخذت من منطقة بئر السبع كانت مقراً لها لوفرة الغذاء والماء.

ثم إن لورانس كان يدرك بحصافته أن السيطرة على العقبة جسر للعبور الآمن

والسريع إلى سيناء دون أية عوائق ومن ثم يسهل الوصول إلى القواعد البريطانية.

لكن رغبة نسيب وإصراره على الوصول إلى دمشق بدلا من العقبة أدى إلى إشعال نيران الفضول في رأس لورانس الذي اعتزم المسير إلى سوريا في مهمة استطلاعية يقف خلالها على حقيقة الأمور وهل يمكن تأييد وجهة النظر التي أبدها نسيب أم أن الأمر وفق ما سيكتشفه مجرد أمنية يتعذر إتمامها.

صحيح أن نسيب كان قد سلم ما في حوزته من أكياس الذهب التي كان فيصل قد زوده بها لضمان ولائه ودعم دوره البارز رافضا الاستمرار في تلك المنطقة بعد أن قرر الذهاب إلى جبل الدروز في محاولة جادة لدعوة زعمائه للانضمام إلى جيش الثورة ثم محاولة دفع جيش الدروز للوصول إلى دمشق لتنفيذ مخططه وهو الاقتراح الذي أثار المخاوف في رأس لورانس الذي كان يرى أن مثل هذه العملية العبثية سوف تفشل وأن مردوداتها سوف تؤثر بالسلب على الخطط المستقبلية التي وضعها لورانس من أجل السيطرة على دمشق في القريب العاجل.

الشاهد أن لورانس امتطى ظهر ناقته بعد الظهر وكان معه الشريف ناصر وعودة أبو تايه وقد قصدوا منطة «باير» التي تقع على بعد أربعين ميلا إلى الشرق من السكك الحديدية.

وسط ظروف مناخية قاسية ونفاد الماء والطعام أدى إلى إرسال بعض الحراس الذين يتبعونهم لتدبير موارد الطعام من بعض أهالي القرى التي تقطن في المرتفعات الجبلية المطلة على البحر الميت.

كانت قافلة لورانس تضم نحو خمسمائة رجل تعرضوا إلى متاعب وصعوبات شديدة أهمها ندرة المياه في تلك المناطق الجبلية والصحراوية حيث إن الجيش التركي قد قامت بعض وحداته بتخريب آباره المياه بواسطة الديناميت لإفشال

مهمة هذه القافلة وعرقلتها حتى لا تبلغ مراميها.

من جانبه تمسك لورانس على مواصلة السير مع البحث عن أحد الآبار الذي لم يتعرض للتخريب في تحدٍ واضح لمواصلة المهمة الخطيرة والكبيرة.

كان لورانس يتطلع إلى السيطرة المباشرة على منطقة «أبو اللسن» وهي نقطة ماء محصنة تبعد عن مسافه ١٦ ميلا من منطقة «معان» فضلا عن أمنيته في استسلام بقية المراكز قبل أن ينتهي الأسبوع وكان لورانس يعتمد على تنفيذ خطته وأحلامه في تحرك القبائل لدعمه ومساعدته بكافة الصور اعتمد أيضا على أن عدد الجنود الأتراك المرابطين في منطقة معان قليل ومن ثم لا يستطيع الخروج من نقاطها الحصينة للمقاومة ومن ثم تقع المنطقة في أيادي لورانس ورجاله وقد يدفع ذلك لورانس إلى الدفع بقواته للسيطرة على العقبة.

صحيح أن السرية لم تكن ضمن مخططات لورانس وإن كان قد تطلع إلى الارتكاز عليها حتى لا يتسرب نبأ تحركه إلى الأتراك بيد أنه قد أدرك أن تغليف تحركه بطابع من السرية أمر يتعذر حدوثه حيث كانت قافلته تجوب القرى وتبشر قاطنوها بأن إعصار الثورة قادم وأن الأتراك باتت أيامهم معدودة وكثيرا ما أعلنت قرى تأييدها وإن كانت هناك بعض القرى التي أطلقت بعض من رجالها لإبلاغ القوات التركية بالأمر.

على أية حال مضت القافلة صوب جسر يدعى «ضليل» ثم اتجهت صوب الشمال ناحية «منيفير» ثم بلغت تلال «مفيفير» وبالقرب من تلك المنطقة زرعت القافلة ثلاثة ألغام تحت الخط الحديدي أدت إلى إصابة العديد من الأتراك كما اعتادت المجموعة على ذلك طوال رحلتها الطويلة.

وبعد ذلك بلغت القافلة أودية «الضليلة» المتشعبة ومع شروق الشمس حطت رحالها في منطقة «الخو» التي تميزت بوفرة المياه حتى أن القافلة قد تمكنت من

تخزينها لسقاية الجمال.

وقبل مغادرة القافلة هذه المنطقة ظهر شاب شركسي يقود ثلاث بقرات إلى الحظيرة الأمر الذي أثار مخاوف لورانس فأصدر أوامره بتقييد حركة هذا الشاب حتى لا يعود إلى القرية ويفضح أمر القافلة لاسيما وأنها كانت بالقرب من منطقة «الزرقاء» تولى بعض شباب الحملة أمر هذا الشاب حيث تعمدوا إحداث جروح في باطن قدميه حتى لا يقوى على العودة إلى القرية سريعا فيضطر إلى العودة زاحفا الأمر الذي يساعد على الإبطاء في إبلاغه بأمر القافلة التي تكون قد ابتعدت بمسافات لا يمكن الوصول إليها.

وفي طريقها إلى منطقة «باير» سطت القافلة على مجموعة من العمال الأتراك الذين كانوا يشيدون أحد المباني وفي حوزتهم قطيع هائل من الأغنام فسال له لعاب لورانس وأبو تايه الذين تاقوا لتناول اللحوم.

ومن ثم استطاعت القافلة عبر طلقات النار التي أطلقتها على العمال الأتراك والذين سقطوا مضرجين في دمائها إلى الاستيلاء على قطيع الأغنام لذبحها وتناولها.

كان مثيرا أن تتزامن مع الاستيلاء على قطيع الأغنام وصول شحنة هائلة من الدقيق كان الشريف ناصر قد أرسل أحد أتباعه لاستجلابها قبل أن يتمكن الجوع من القافلة فيعيق سيرها وتفشل خططها كما أن الأخبار التي حملها أصحاب شحنة الدقيق تشير إلى أن القرى الدراوشة والدومانية والصيانة أعلنت دعمها ومساندتها للثورة.

في تلك الأثناء استقبلت القافلة رسول أوفده الشيخ نوري الشعلان حاملا رسالة تشير إلى أن حملة عسكرية تركية تتعقبهم وأن نواف بن نوري الشعلان هو الدليل للحملة وسوف يبذل قصارى جهده لتضليلهم أو تأخير وصولهم حتى

تتمكن القافلة من الوصول إلى بر أمان بعيدا عن عيون تلك الحملة.

عبرت القافلة سهل الجفر إلى قبيلة الرومانية لتدبير الماء واصطياد بعض جنود الأتراك الذين يرابطون في هذه المنطقة لتوفير الغذاء والشراب للوحدات العسكرية التركية وجرت معركة حامية الوطيس بعد إشاعة بقيام الجنود الأتراك بذبح أسرة كبيرة أثارت غضب أبناء قبيلة الدومانيون الذين قتلوا بعد ذلك اتجهت القافلة ناحية منطقة تسمى «غدير الحاج» وهي أول محطة لسكة الحديد المتجهة جنوبا ناحية «معابد» عبر طريق أبو اللسن كانت الخطة تهدف ضرورة تدمير الخط الحديدي بمنطقة غدير الحاج حتى لا يتمكن الأتراك من الوصول إلى مكان القافلة فيضطروا إلى اللجوء للخيول والجمال التي سيتعذر عليها اللحاق بأثر القافلة والتي حتما سوف تكون على مقربة من أبواب العقبة ومن ثم ستصبح في مأمن بعيدا عن الأخطار التي كانت تحدق بها من كل جانب.

وبالفعل قامت القافلة بتخريب الخط الحديدي كما هو مخطط ومرسوم إلى جانب نسف بعض الجسور وهو ما دفع جنود الأتراك لمواجهة القافلة التي فتحت نيرانها الكثيفة التي أسقطت العديد من القتلى وأجبرت الناجين منهم على الفرار.

وعلى أثر تلك المعركة التي انتصرت فيها قافلة لورانس راح جنود القافلة يسيطرون على مقر المحطة التي كان بها جهاز إرسال تلغرافي وهو ما أوعز إلى أبو تايه ولورانس أن أحد العاملين على هذا الجهاز كان قد أرسل إشارة استغاثة وربما سوف تأتي النجدة بين ساعة وأخرى وأمام هذا الظن قررت القافلة مواصلة سيرها حتى لا تداهمها القوات التركية في جنح الظلام وانطلقت نحو الغرب لتحط رحالها بعد أن قطعت نحو خمسة أميال لكي تنال قسطاً من الراحة والاسترخاء وقبل أن تفرغ القافلة من تناول الطعام كان ثلاثة من الفرسان قد أقبلوا لابلاغها أن كتيبة من الجنود الأتراك المزودة بالمدافع قد نزلت منطقة «أبو

اللسن» وأن قبيلة الدومانية تملكها الخوف وانطلقت هاربة لتنجو بنفسها وأن الكتيبة ترابط الأرض منطقة البتراء لشن هجمة شرسة على القافلة.

كانت هذه المعلومات الخطيرة والمتردية نذير شؤم دفع لورانس إلى اتخاذ قرار عاجل إلى الانطلاق بمحاذاة الكثبان الرملية وقبل أن يولد فجر اليوم الجديد كانت القافلة تحط رحالها على تل جبل يقوم بين «البتراء وأبو اللسن» إلى الغرب وكان الشيخ قاسم أبو دبيك يترقب وصول القافلة على رأس رجاله لدعمها ومساندتها.

وما من شك أن وصول الكتيبة التركية المزودة بالمدافع قد ألقى بظلال كثيبة على لورانس الذي راح يرسم ويجهز خطط جديدة تتناسب مع المستجدات والأوضاع الطارئة والتي لم تكن ضمن حساباته حيث إن وجود الكتيبة التركية في أبو اللسن لا يعني سوى عرقلة وصول القافلة إلى العقبة لإفشال الخطط الاستراتيجية التي صاغها لورانس.

❁ ❁ ❁

وحين أرخى الليل سدوله وبينما لاحظ رجال الاستطلاع الناس بعث بهم أبو تايه لاستطلاع حال الجنود الأتراك الذين كانوا قد غطوا في سبات عميق مما سنح الفرصة لشن غارة عنيفة ومفاجئة ودون تردد قامت القافلة بفرض حصار شديد حول الجنود فيما راح الشيخ «زعل» بصحبة بعض رجال القافلة إلى ناحية السهل بهدف تخريب الخطوط التليفونية والتلغرافية المتصلة بمنطقة معان.

كانت المنطقة معروفة بمنحدراتها وعورتها الشديدة وندرة المياه لم يكن لورانس قادراً على الصمود في تلك المنطقة لاسيما وأن درجة الحرارة كانت في أعلى مستوياتها الأمر الذي أرغمه على الهرب إلى مكان آمن بعيد عن محرقة الشمس العمودية وقد تبعه الشريف ناصر الذي كان قد استبد به الإجهاد ثم

سرعان ما أقبل أبو تايه الذي صاح فيهما يدعوهما لمواصلة القتال ولما أدرك أن الاجهاد قد فرض جناحيه على الرجلين صاح في رجال قبيلة الحويطات الذين هروعوا إليه فحثهم على مواصلة القتال بعد خطبة حماسية ألهبت حماسهم في استعراض واضح لإظهار قوته وقدرته.

وبعد دقائق كان رجال الحويطات قد ألقوا الرعب في قلوب الأتراك الذين سقط منهم العديد بين قتيل وجريح وهارب لا يدري إلى أين المفر؟!

حتى انتهت المعركة بإحراز انتصار ساحق لصالح القافلة حيث حصرت القافلة نحو مائتي أسير كانوا بالطبع من الجرحى ونحو ثلاثمائة قتيل فيما تجلى وجه الانتصار في وقوع القائد التركي الجريح أسيراً في قبضة رجال الحويطات البواسل فيما كان عدد قتلى القافلة نحو قتيلين فقط بعد هذه المعركة أرسلت القافلة بعض رجالها الفرسان إلى منطقة المريجة لاحتلالها ثم اتجهت بعدها إلى قواعيدة لبسط نفوذ القافلة عليها الأمر الذي أصاب تلك المناطق بالرعب ودفع بعض جيوب الأتراك للهرب إلى دمشق للنجاة بأنفسهم.

مضت القافلة في طريقها بأقصى سرعة خوفا من عودة الوحدات التركية للثأر فاجتازت القافلة المرتفعات حتى استقر بها المطاف في أحد الأودية لنيل قسط وافر من الراحة بعد عناء طويل.

في أثناء ساعات الراحة فكر لورانس في توجيه بعض المراسلات إلى القادة الأتراك الذين يتمركزون في مناطق قويرة وكثيرة وحدرة يدعوهم خلالها للاستسلام وتعهد بمعاملة كريمة وذلك من خلال القائد التركي الأسير .

بعد أن فرغ لورانس من تلك المهمة اضطر إلى معاودة السير على رأس القافلة والخروج بها من الوادي عبر تسلق أحد المنحدرات الخضراء وهو مكان يطل على سهل قويرة الذي يتميز بطبيعته الساحرة الخلابة واتجهت القافلة سيراً على

الأقدام ممر «الشتار» الذي كان مليئا بالأعشاب التي التهمتها جمال القافلة الجائعة ثم تبعت القافلة سيرها مرة أخرى وحطت رحالها بعد ١٥ ميلا في أطراف قويرة وقد استقبلهم على أبو أبها الشيخ ابن جاد الذي بادر بإعلان انضمامه إلى الثورة بعد أن أدرك أن الغلبة لها وأن الرهان على الأتراك قد يؤدي إلى مالا يحمد عقباه.

في تلك الأثناء كانت العقبة تبعد عن قويرة نقطتان حصينتان ينبغي السيطرة عليها حتى تستطيع القافلة دخول العقبة وكانت النقطة الأولى تدعى «كثيرة» وهي نقطة تميزت بالقوة والشدة حتى أن القافلة قد تكبدت خسائر عند فتحها الأمر الذي دفع لورانس لإسناد مهام فتحها للشيخ ابن جاد كبرهان لتأييده للثورة وللحفاظ على أرواح جنود القافلة.

وبالفعل تمكن الشيخ ابن جاد من اختراق تلك النقطة الحصينة لتتابع القافلة عبورها عبر وادي «اثم» الضيق وقد لاحظت عبور استطلاع القافلة أن جميع مراكز الوحدات التركية خاوية على عروشها حيث لاذ جنودها إلى منطقة «خضرة» للتمركز فيه بداخلها وتحصينها بوصفها أقوى القلاع التي ستدافع عن العقبة من أي هجمات بحرية!!

ولأن الأتراك كانوا قد استعدوا لأية هجمات تشنها القافلة عبر البحر فلم تلتفت بحال إلى إلى جهة البر التي كانت القافلة قد قطعتها وبعد مفاوضات مباشرة وغير مباشرة اضطر القادة الأتراك الذين هالهم كثافة عدد رجال القافلة إلى الاستسلام كانت القافلة قد تضاعف عددها بعد أن انضم إليها المئات من أبناء القبائل الذين بارك شيوخهم الثورة الوليدة ومن ثم أضحت القافلة مرهوبة الجانب رغم معاناتها من ندرة المؤن التي كانت خطراً يتهددها بين الحين والآخر.

وفي السادس من يوليو صباح هذه المعركة التي سقط خلالها حصن «خضرة»

بدأت القافلة تتجه مباشرة إلى العقبة التي أصبحت على مرمى أربعة أميال فقط بعد مسيرة ستون يوما على خروجها من ميناء الوجه.

والواقع أن اقتراب قافلة لورانس من العقبة قد أشاع موجة من التفاؤل سرت في عروق جنود القافلة حيث إن العقبة كانت هي الهدف الذي كانت القافلة قد انطلقت من أجل الوصول إليها وها هي قد أضحت على بعد أمتار منها.

كانت القافلة تضم أكثر من ألفان وخمسمائة رجل بعد أن انضم إليها متطوعون جدد فضلا عن وجود نحو أكثر من سبعمائة أسير تمركزوا جميعا في بساتين مزروعة بمحاذاة الساحل وبالطبع عانت القافلة من ندرة الطعام واجتاحت المخاوف لورانس الذي تنبه لخطورة ذلك على مصير هؤلاء الذين تطوعوا لإنجاح الثورة وفكر لورانس في ذبح الجمال لقتل عائلة الجوع التي بدأ شبحها يتراقص كالأفعى بيد أنه خشي من فقد وسيلة الانتقال الوحيدة وتداعيات ذلك على مسيرة القافلة التي أوشكت على بلوغ هدفها بعد عناء نحو ثمانية أسابيع عانت خلالها مالا يمكن تصور وقوعه على الاطلاق من معارك ومنحدرات ومرتفعات ودرجات حرارة عالية ورياح رملية عاتية وندرة دائمة في المياه ونضوب الغذاء ونفاذ المؤن وعقبات وصعوبات مختلفة واجهت القافلة.

في حين اجتاح الظلام منطقة البساتين المزروعة بأشجار النخيل كان لورنس قد راح يصوغ خطة جديدة بمشاركة الشريف ناصر لكي يضمن السيطرة على العقبة حيث رأى لورانس والشريف ناصر أن يعود عودة أبو تايه إلى منطقة قويرة وهي منطقة تتسم بالأمن حيث إنه سيتمركز بقواته بين منحدر «الشتار» ورمال «قويرة» ثم رأى الرجلان ضرورة اتخاذ الاحتياطات اللازمة لتوفير عنصر السلامة والأمن للقوات وذلك عبر تدشين مركز أمامي للقافلة يربط بين بتراء البنطية وبين عودة أبو تايه عبر مركز يتم تأسيسه في منطقة تدعى «لادعة» على أن يرسل أبو تايه رجاله إلى منطقة «بترا».

وتخلص هذه الخطة إلى شكل نصف دائرة مكونة من أربعة مراكز عند سفوح جبال عمان وتلالها المرتفعة لإغلاق كافة الطرقات التي تؤدي إلى العقبة وذلك بواسطة رجال قبيلة الحويطات التي يقودها عودة أبو تايه.

أضف إلى ذلك أن هذه المراكز الأربعة سوف تمتع كل واحدة منها بالاستقلالية.

وحين فرغ لورانس من وضع خطته راح يعاود التفكير مرة أخرى في كيفية تدبير الطعام والمياه لإشباع قواته ومقاومة العطش ومكافحة الجوع المفترس وقد توصل مع صديقه الشريف ناصر إلى أن يقود بعض من الرجال الأشداء إلى السويس التي يتمركز فيها الجنود الإنجليز لاستجلاب شحنات الطعام والسلاح والمياه لمواجهة الموقف ودون إبطاء انطلق لورانس في جنح الليل حتى اقترب من العريش مع شروق الشمس ومضى إلى منطقة خرائب النخيل ثم قرر أن يقطع بعض الوقت لنيل الراحة حتى يسدل الليل أستاره...

وعلى ضوء القمر اجتاز لورانس ومن معه جبال (ميتلا) ليجد نفسه بعد مسافة طويلة للغاية أمام أحد الحقول المزروعة بطيخا ثم عاود المسير مرة أخرى ليستقر به الأمر عند منطقة شاطئ قناة السويس حيث كانت المنطقة مكتظة بالمواقع والخنادق والتحصينات والطرق التي طالتها يد الخراب وأثناء اكتشاف لورانس لتلك المواقع عثر على جهاز تليفوني كانت القوات الإنجليزية قد خلفته وراءها وقد أجرى خلاله مكالمة هاتفية بالقوات البريطانية تبين على أثرها أن المنطقة قد اجتاحها داء الطاعون وأن الجنود غادروها بأوامر عسكرية صارمة.

كان لورانس يستمع إلى هذه الأخبار عبر الهاتف وحين أبدى لمحدثه رغبته في عبور القناة أخبره الطرف الآخر عدم تحمله مسؤلية الموافقة على ذلك وأن هذا الأمر بيد قادة آخرين ينبغي اللجوء إليهم وحاول لورانس وسعى جاهدا للوصول إلى من بيده الأمر حتى أضطر في نهاية المطاف إلى الكشف عن هويته حيث أنه

قد ضاق ذرعا ببقائه في هذه المنطقة لاسيما وأن الأمل يحدوه لإنهاء مهمته.

كان لورانس يتطلع أيضا إلى التخلص بضعة أيام من أدران هذه الرحلة وبعد عناء ١٤٠ ميل قطعها سيرا وراكبا على متن البعير صاعداً جبال ونازلا تلال يتصبب عرقا ويتضور جوعا وعطشا!!

بالفعل كان في حاجة إلى أن يقضي ثلاثة أيام يستطيع خلالها تناول أشهى الأطعمة ويتعاطي المشروبات الباردة والمثلجة ويستبدل ملابسه ويستحم لكي يتخلص من أدران السفر الطويل.

وحين أفصح لورانس عن شخصيته أرسلت القيادة الإنجليزية مركبا صغيرا حمله رغم أن ذلك يعد مخالفا لقوانين وأوامر قيادة القناة.

ذهب لورانس على الفور إلى أحد الفنادق وقد أخذ حماما ساخنا ثم تناول طعام العشاء ومشروبات مثلجة وسرعان ما ألقى بظهره على الفراش لينعم بأحلام الوصول إلى دمشق بعد أن أصبحت العقبة تقترب منه ويدنو هو منها.

كان الرجال الذين يقودهم لورانس قد ضربوا خيامهم عند الكوبري حيث تعذر على لورانس إدخالهم معه إلى السويس وقد أوصى رجال القيادة العسكرية بتوفير سبل الراحة لهم لحين عودته إليهم.

بالطبع كان لورانس قد أدرك من خلال تلك الرحلة التي قطعها للسفر إلى القاهرة عبر منطقة السويس أن ينقل تطورات الموقف إلى القيادة العامة بالقاهرة فضلا عن تلقي الأوامر الجديدة على اعتبار أنه أحد أبرز وأنشط رجال المخابرات البريطانية الذين لايألون جهداً في إنجاح الثورة العربية القومية وإنهاء دولة الخلافة الإسلامية وتصفية وجودها ونفوذها حتى يتوتر الإسلام ويتراجع دوره ولتسطع شمس القومية العربية إلى الأبد أو هكذا كانت الظنون التي سكنت لورانس ودفعته لممارسة هذا الدور الخطير عبر دعمه الغريب لهؤلاء العرب.

ناهيك عما يزعمه في مؤلفاته من أنه كان يحرص على دعم العرب لأنه قد أحبهم وبات واحداً منهم وأضحى نجاح الثورة أحد أهم أولوياته وقد يكون الشق الأخير صحيح لكن أن يتحول إلى عربي بدوي يعشق الصحراء وحياة البدو ويجتهد لمصلحة العرب فهذه فرية وأكذوبة أراد أن يمررها بذكائه المعهود.

لكن الواقع يبرهن على أن لورانس لم يكن يدخر وسعا لإنهاء الخلافة الإسلامية كرها في الإسلام متوكأ على عصا القومية العربية التي أصبحت فيما بعد أعدى أعداء الإسلام والحضارة الإسلامية ومن ثم لم يكن مستغربا أن تولد من رحم هذه الثورة العديد من الانقلابات والثورات القومية التي أنحت الدين جانبا وهمشت دوره باسم القومية العربية والبعث العربي والوحدة العربية.

صحيح أن الخلافة الإسلامية في ظل آل عثمان لم تكن على قدر المسؤلية حيال رعاياها حيث بتت سياسة أقرب إلى الجلافة والعبودية أساءت إلى الإسلام لكن على الجانب الآخر لم يكن العيش تحت مظلة القومية العربية وأخواتها أسعد حالاً منها حيث كان الاستبداد والطغيان والظلم والعبودية أحد أدوات الحكم في كلا النظامين!!!

على أية حال كان لورانس قد توجه في صباح اليوم التالي إلى القاهرة.

وفي محطة الإسماعيلية شاهد لورانس الأميرال «ويمس ودور مستر وينفل يتوسطهم جنرال ضخم فارع الطول ضخم الجثة قد هبطوا جميعا من إحدى عربات القطار المتوجه إلى الرصيف الآخر من أجل اللحاق بالقطار المتجه إلى القاهرة.

لاحظ لورانس أن الصمت قد خيم على المحطة التي كانت قبل ثوان تكاد جدرانها من هول الضوضاء والجلبة والضجيج وهو ما دفع لورانس لمعرفة ما الذي يدور من حوله..

كانت الملاحظة التي أدركها لورانس أن الضباط يحيون بأدب بالغ وحرص شديد وخوف تجلى على ملامحهم أحد العسكريين اللامعين والبارزين والذي كان آنذاك يتجاذب أطراف الحديث مع أحد القادة وقد بدت ملامحه تبرهن على أنه شخصية تتسم بالحزم والصرامة

في تلك الأثناء تقدم لورانس من القائد «بورمستر» وهمس في أذنه قائلا أنه ينوي أن يتحدث معه في أمر خطير ومثير ويحتاج أن يولي عنايته له لهذا الأمر من انعكاسات ومردودات في المستقبل،

وعلى الفور أرهف «بورمستر» السمع للورانس الذي راح يقص على مسامعه أسباب وملابسات الغارة العسكرية التي سوف يشنها على العقبة ومدى حاجة جيش فيصل إلى بعض شحنات الطعام والسلاح من جانبه أكد «بومستر» أن الباخرة «الدوفيدين» سوف تصل هذا اليوم وستفرغ حمولتها على أرصفة ميناء السويس ثم سرعان ما ستبحر إلى العقبة لتتولى القيام بمهام نقل الأسرى على متنها وشدد «بومستر» في حديثه على أنه يصدر الأوامر بذلك عن طريق مكتبه كي لا يعوق الأمور الأميرال أو الجنرال اللنبي لم يشأ بومستر أن يكمل عبارته حتى صرخ لورانس في وجهه مذهولا وهو يقول:

لورانس: ماذا قلت يا سيدي؟

مستر: قلت الأميرال أو اللنبي قد يعوق أي منهما الأمر

لورانس تقول اللنبي؟

مستر: نعم اللنبي وماذا في ذلك يا لورانس؟

لورانس: لماذا يوجد هذا الرجل هنا؟

مستر: ألم يبلغك أحد أنه أصبح القائد العام؟

لورانس: كلا.. لا أعرف بذلك ولكن أخبرني بربك ماذا عن القائد السابق موري؟

مستر: لقد عاد إلى لندن!!

مامن شك أن الجنرال اللنبي كان معروفا بقوته وصلابته وجمود حركته الأمر الذي أثار هلع لورانس حتى راح يتساءل وهو في داخل القطار عما سيصنعه هذا الرجل وماذا سيترتب على وجوده بالنسبة للثورة التي أصبحت هي شغل لورانس الشاغل وعند وصول لورانس إلى القاهرة اتجه من فوره إلى فندق سافوي من أجل أن يلتقي مع «كلايتون» الذي سلمه حال وصوله تقرير مبسط حول حاجة جيش مكة الذي يقف على أبواب العقبة ويتطلع إلى دعم الإنجليز في تلك اللحظات الحرجة والدقيقة والخطيرة.

لم يتردد «كلايتون» في تلبية ما ورد في توصيات تقرير لورانس حيث قام بإبلاغ مدير مكتبه بضرورة إعداد مجموعة من الرجال العسكريين لحراسة حوالي ستة عشر ألف ليرة ذهبية عبر القطار المتجه إلى السويس لدعم حركة الأمير فيصل.

تهللت أسارير لورانس أمام تلبية أهم مطالبه وراح يصافح كلايتون بحرارة وقد غادر مكتبه مبتهجا حيث راح يتبادل الحديث مع زملائه داخل الفندق لمعرفة ما وقع خلال وجوده في رفقة الأمير فيصل.

وعلم لورانس خفايا الجنرال اللنبي ومأساة موري التي أدت إلى إقالته من منصبه وتداعيات تلك الإقالة على أعصابه..

علم لورانس أيضا مسألة الهجوم على مدينة غزة الذي كانت لندن قد ألزمت نفسها به وأسباب الفشل الذريع الذي كان من نصيب هذا الهجوم الذي أدى إلى مقتل وإصابة أكثر من ستة آلاف جندي.

بعد مرور ثلاثة أيام تلقى لورانس استدعاء عاجل للقاء الجنرال اللنبي الذي

أطلعه كلايتون على تقريره وذلك للوقوف على حقيقة ما يجري في الشام ومستقبل الثورة التي يقودها الشريف حسين ويرسم خططها لورانس بمباركة إنجليزية.

وفي اللقاء الذي جمع لورانس بالجنرال اللنبي راح لورانس يروي في حديثه الأهمية الاستراتيجية لقبائل شرق سورية وكيفية العمل على تهديد المواصلات مع القدس وما ستجنيه السياسة البريطانية من جراء ذلك وهو الأمر الذي صادف هوى لدى الجنرال الوقور «اللنبي»

كان لورانس يشعر أثناء اللقاء بالحرج والخجل حيث كان لورانس يرتدي أزياء عربية غير أنيقة يرتدي قفطانا من الحرير فضلا عن أنه كان حافي القدمين الأمر الذي أثار دهشة اللنبي واستغرابه من هذا الذي يتحدث بذكاء وعبقرية عن أحوال الشام وجريات الثورة العربية ومدى اسهاماته في دفعها للأمام.

وكان اللنبي لا يكف عن توجيه الأسئلة على لورانس وقد أجاب لورانس باستفاضة مما أثار إعجاب اللنبي الذي تعهد بتلبية مطالب لورانس لإنجاح الثورة التي يتولى إشعال نيرانها حيث وعده قائلا سوف أبذل قصارى جهدي لدعمك يا لورانس.

وانفض اللقاء بين الرجلين على التعهد الذي قطعه الجنرال اللنبي بضرورة لدعم لورانس بقدر ما يستطيع.

وفي ساعة متأخرة في تلك الليلة التي شهدت اللقاء التقى لورانس مع كلايتون وراح يتحدث معه بشأن الموقف في العقبة وكيف استطاع لورانس أن يحقق هذا النصر الساحق رغم ضعف الإمكانات وصعوبة المناخ وجسامة التحديات ويبدو أن لورانس كان طامعا في منصب يعضد موقفه الجديد في العقبة.

من جانبه أبدى «كلايتون» امتنانه وتثمينه لدور لورانس البارز لكنه أكد أن القيادة الرسمية في القاهرة لا تستطيع أن تعتمد بصورة رسمية على ضابط صغير في حجم لورانس ومن ثم اقترح عليه أن يتولى «جويس» قيادة العقبة وقد وافق لورانس على مضض لكنه لا يقدر على إظهار امتعاضه حتى لا يفقد دوره ومكانته.

وأمام رغبة كلايتون في تعيين جويس راح لورانس يطلب منه موافقة القيادة العامة على نقل فيصل إلى العقبة ليكون هناك على رأس جيشه بيد أن القاهرة رفضت ذلك بحجة أن هذا الموضوع مازال قيد البحث والدراسة ومدى تأثيراته على أوضاع الجيش الإنجليزي وحين أخفق لورانس في الحصول على هذه الموافقة تقدم بطلب آخر يقضي بتحويل الدعم الممنوح من القيادة العامة كالمال والسلاح والعتاد والذخائر والخبراء إلى العقبة وهو مالم يكن مقبولا أو مستساغاً لدى القيادة العامة وهو ما أثار غضب لورانس.

ولم ييأس لورانس الذي أراد أن يؤكد للقيادة العامة أنه بات رجلا شديد الأهمية ينبغي الركون لرأيه والاعتماد عليه ومن ثم راح يطرح بعض من الأمنيات الأخرى التي تبرهن على مدى فهمه العميق للأوضاع وحرصه الشديد على إنجاح الثورة وطرد الأتراك وإنهاء الخلافة وتوسيع هامش التحرك الإنجليزي بعد أن تنسحب الأتراك كلياً بفضل قوة الثورة وصمودها.

لكن يبدو أن نفرًا قليلاً هو فقط الذي كان على دراية بما يصنعه لورانس لصالح بريطانيا دون غيرها فيما كان يرى عامة الضباط أنه مجرد رجل مشاكس يهوى المغامرات بغض النظر عما سيحصده من ورائها وهم الذين لم يكن يؤرقهم الوجود التركي قدر ما يشغلهم زمن وكيفية العودة إلى بلادهم للعيش بجوار أسرهم.

على أية حال طلب لورانس من القيادة العامة إلغاء قاعدة «الوجه» نظرا

لضخامة نفقاتها وهو ما وافقت عليه القيادة دون إبطاء أو تردد لما للفكرة من أهمية قصوى وحيوية.

طالب لورانس أيضا ضرورة انسلاخ فيصل عن جيش والده الشريف حسين وهو ما واجه استغراب من كلايتون على وجه التحديد متسائلاً عن السبب الذي دفع لورانس لطرح مثل هذه الفكرة في هذا الوقت بالذات.

من ناحيته أفاض لورانس في شرح فكرته ومغزاها قائلا إن العقبة أصبحت حاليا هي الجناح الأيمن لجيش اللنبي على بعد مائة ميل من قلبه في حين هناك مسافة شاسعة تبلغ نحو ثمانمائة ميل بين هذا الجيش وبين جناحه الحالي في مكة وأبدى لورانس ملاحظة في سياق كلامه تؤكد أن العرب مع نجاح ثورتهم سوف يقترب نشاطهم تدريجيا وبصورة قد تكون سريعة إلى منطقة فلسطين..

ومن ثم ينبغي وفق رؤية لورانس سلخ جيش فيصل عن جيش الشريف حسين لكي يصبح جيش فيصل على أثر ذلك مجرد كتيبة ضمن كتائب اللنبي!!

وهو ما يؤكد دهاء لورانس الذي أدرك الحماسة التي ثارت في صدور أبناء الجيش العربي ومدى انعكاسات ذلك مستقبلا على النفوذ البريطاني في المنطقة لاسيما وأن ضخامة الجيش العربي التي سوف تكون على بعد أمتار تفصلها عن فلسطين قد تكون حجرة عثرة أمام المخططات والأهداف الصهيونية التي يسعى إليها لورانس بدعم الوكالة الصهيونية.

كانت الوكالة الصهيونية تعمد سراً على إزاحة الوجود التركي من المنطقة العربية لتهيئة الأجواء لدعم الوجود اليهودي في فلسطين ولما للوجود التركي من أهمية قصوى في مواجهة هذا الخطر.

نهايته... كانت الفكرة التي طرحها لورانس تصب في مصالح الإنجليز والوكالة الصهيونية معا على حد سواء لكن كلايتون من جانبه بعث إلى الجنرال

«وينجات» لمعرفة رأيه في هذا الأمر وقد أكد «وينجات» عبر محادثة هاتفية مع كلايتون أنه لا يمانع ذلك إطلاقا مادام ذلك سوف يكون في المصلحة العامة لإنجلترا ولن يعرقل مهام اللنبي.

لكن كانت مشكلة إتمام هذه الفكرة تتمثل في موقف الشريف حسين الذي لم يكن يطيق سماع تقليص عدد جنود جيشه الذي كان يتفاخر بقوته وكثافته وضخامته وهو الأمر الذي كان يزعج لورانس ويخشى من إصراره على وجود جيش فيصل ضمن جيشه الكبير.

كان لورانس قد أبدى مخاوفه من الشريف حسين أمام «كلايتون» الذي أوعز إليه بالسفر لمقابلة الشريف حسين وضرورة إقناعه بالعدول عن آرائه الصلبة الجامدة إذا كان يريد دعم الإنجليز والمضي قدما في انتصاراته التي يحرزها فيصل يوما بعد يوم.

بعد يومين وجد لورانس نفسه على ظهر الباخرة «دفيرن» التي صدرت إليها أوامر عاجلة بنقله إلى جدة على جناح السرعة لتنفيذ مهمته الخطيرة..

وبعد ٤٨ ساعة من إبحارها رست السفينة في ميناء وجه وقد علم لورانس أن فيصل وجويس وينموكمب ومعهم جميع قوات الجيش في منطقة «جيدة» التي تقع على بعد مائة ميل وقد انتقل لورانس على الفور إلى جيدة عبر طائرة عسكرية بقيادة الطيار «رومي» الذي تلقى أوامر من القيادة العامة تلزمه بنقل لورانس في التو.

التقى لورانس وفيصل معاً وراح يشرح لفيصل ما اتفقت عليه القيادة وتوصلت فيما يتصل بشأن والده الشريف حسين وكيف سيتمكن من إقناعه وقد بادر فيصل بشرح أحوال والده ومن أين يمكن الدخول إليه حتى يتراجع عما يدور في رأسه لاسيما وأن فيصل أكد أمام لورانس أن والده يشكو ظنون وهواجس

وشكوك ترتابه إذا تعلق الأمر بما ينتقص من شأنه أو قدراته.

وفي الصباح انطلق لورانس إلى جدة لمقابلة الشريف حسين وقد رافقه الجنرال ويلسون الذي كان يحظى بثقة الشريف حسين الذي كان قد استقبلهما بحفاوة بالغة استبشر لورانس بها خيرا من نجاح مهمته وبعد تناول الطعام الفخم الذي قدمه الشريف حسين تعبيراً عن مودته وامتنانه لضيفيه راح الشريف حسين يتحدث بإسهاب عن الثورة والجيش والأتراك وكفاحه ودور الإنجليز وأبنائه وموضوعات شتى تطرق إليها بعد أن سيطر على مجريات الحديث.

ولما طال الأمر وبدأ التململ يتجلى على ملامح لورانس راح ويلسون يقاطع الشريف حسين بأدب جم لمفاتحته في مسألة انضمام جيش فيصل إلى جيش القائد اللنبي.

ظن لورانس أن الشريف حسين سوف يثور وأن الأمر سيطول وتوضح الموقف سيحتاج إلى شرح وافي كان متأهبا ومتحفزا ولكن كانت المفاجأة التي تمثلت في موافقة الشريف حسين الفورية على طلب ويلسون وهو ما أكد للورانس مدى جاذبية وقوة ويلسون وتأثيره الطاغي على الشريف حسين الصلب العنيد.

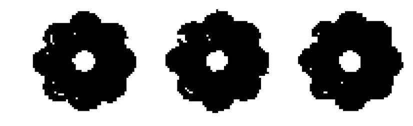
كانت برقية قد وصلت إلى مقر الشريف حسين تقصد لورانس أرسلتها القيادة العامة بالقاهرة وقد ورد بها أن الاستخبارات البريطانية تأكد لها أن الشيخ عودة أبو تايه عميلا للأتراك وأن خدعة كبرى يقوم بها عبر رجاله من قبيلة الحويطات الأمر الذي أصاب لورانس بالدهشة والذهول والخوف على مصير القوات الرابطة في العقبة.

أطلق لورانس ساقه للريح عائدا إلى ميناء العقبة لمقابلة عودة أبو تايه وفاتحه في الأمر بصورة مباشرة وهو ما دفع عودة لإطلاق ضحكة مدوية هزت أوتاد الخيمة وقد راح يشرح بصورة منطقية حقيقة الموقف الذي يتلخص في أن محمد

كان قد أخذ حاتم عودة وأرسل إلى حاكم «معان» وقد أرسل الحاكم التركي متوعدا بمكافأة مجزية وضخمة في أقرب وقت ولما علم عودة أبو تايه بالأمر أصدر أوامره لرجاله للتربص لرسول الحاكم التركي والاستيلاء على ما يحمله من هدايا وأموال بعد تجريده من ثيابه تماما وقد أكد عودة أن محمد قد ألح عليه بمنحه جزءاً من تلك الحمولة الضخمة وهو ما يرفضه عودة حتى الآن.

وانفجر الثلاثة في الضحك حتى تأكد لورانس من أن الاستخبارات الإنجليزية قد جانبها الصواب فيما يتعلق بشأن موقف عودة أبو تايه.

وبعد أن أطمأن لورانس من الأمر عاد إلى القاهرة على الفورلإبلاغ القاهرة بأن الأمور في العقبة التي استولت عليها قوات الثورة تمضي وفق ما هو مرسوم ومخطط لها وأن ما ورد في شأن أبو تايه مجرد تخمين لا يرقى إلى مستوى الحقائق وأنه قد تأكد من ذلك بنفسه لكنه في الوقت ذاته طلب من القيادة العامة دعم عودة أبو تايه بالمال والسلاح لاسيما وأن نجاح رجال قبيلته في الاستيلاء على العقبة كان يعد من أهم عوامل نجاح الثورة.



الفصل العاشر

الطريق إلى دمشق

كان احتلال العقبة مقدمة لتحقيق آمال فيصل ولورانس ومن ثم باتت دمشق هي الهدف الرئيسي الذي يتطلع إليه الجميع وينتظرونه سقوطه بين ساعة وأخرى حتى تتحقق أهداف الثورة ويقطف لورانس ثمار جهوده ونضاله وكفاحه وتحصد الصهيونية العالمية عناء انتظارها ونفقاتها ودعمها وجهودها السرية للورانس والقيادة العامة البريطانية.

كانت القومية العربية قد برزت وتجلت وانزوت أمامها المفاهيم الدينية، وكأنها قد أصبحت من تراث الماضي الذي ينبغي التخلي عنه والاستغناء عن دوره، ولعل ما ورد حول ابتهاج لورانس في هذا الشأن في أوراقه التي نشرها في كتابه الشهير «أعمدة الحكمة السبعة» ما يبرهن على ذلك، حيث يقول بالنص:

«كان لصالح الثورة العربية أن تغير من صفقتها وفقًا لمراحل نموها.. كنا قد عملنا جاهدين لحراثة أرض بور محاولين خلق قومية في أرض كان يسود فيها اليقين الديني».

المهم أن لورانس راح يتأهب ويجهز القوات للتوجه إلى سوريا على عجل.

كانت سوريا كما يراها لورانس ويرسم حدودها على الورق تمتد حدودها الشرقية نحو صحراء تعد أهم وأشهر مواطن البدو الرحل فيما يحدها من ناحية الغرب البحر المتوسط من غزة إلى الأسكندرونة، وفي الجنوب العقبة وقوات فيصل، وفي الشمال يحدها الأناضول.

وسوريا وفق الدراسة التي أعدها لورانس مقسمة داخليًا إلى أربعة أقسام بفعل الظروف الطبيعية وفق السلاسل الجبلية وهناك مناطق ساحلية تفصل بين القبائل والمعيشة والمعاملة والأزياء وطريقة تناول الطعام.

والجبال في تلك البلاد تفصل من الناحية الشمالية إلى الجنوبية المناطق الساحلية عن المناطق الداخلية حتى إن المناخ يختلف بين هاتين المنطقتين.

وفي الداخل كان للأنهار دورًا فاعلًا وبارًا في تقسيم السهل إلى العديد من الأقسام الجغرافية، ومن ثم كانت الأودية أجود الأرضي السورية فيما يعيش سكانها تحت الجفاف وفي مواجهة مع الجراد الذي يغزو أراضيهم.

لاحظ لورانس أيضًا عند إعداد دراسته حول التخوم السورية وحدودها الجغرافية وتركيبتها السكانية وهويتها الديمغرافية أن هناك شدًا وجذبًا وتباعدًا وتنافرًا واستعداء نفسي بين كافة الجماعات والقبائل المتواجدة في جهة الشمال وحتى ناحية الجنوب.

في ناحية الشمال البعيد وبالتحديد طريق - الأسكندرونة- حلب هناك خط بغداد الحديدي المتجه شمالاً حتى منطقة وادي الفرات والملاحظ أنه في جنوب هذه المنطقة تتمركز جماعات أرمينية تتحدث باللغة التركية وهم يعيشون في أطراف بعض القرى التركمانية المضروبة حول مدينة أنطاكية.

هنـــاك طائفة تدعى النصيرية تنبه لورانس لوجودها لاسيما وأن لهذه الطائفة عادات اشمأز منها لورانس حيث تتيح ممارسات الخيانة مع الآخرين

وتجريمها بين أنفسهم فضلاً عن وجود مستعمرات تتبع المسيحية السريانية، وعند منعطف نهر العاصي تتمركز جماعات أرمينية ناصبت العداء مع الأتراك طوال تاريخها.

أما في منطقة الداخل، وبالتحديد قرب «حارم» تنتشر جماعات الدروز التي تنحدر أصولها إلى منطقة قفقاس فيما ينتشر في الشمال الغربي الأكراد المستعربين.

وفي إحدى المناطق المجاورة تعيش طائفة قليلة العدد من اليزيديين وهم وفي الداخل السوري تعيش طائفة الإسماعيلية المستعربين رغم أصولهم العجمية وهؤلاء يتجنبون الاحتكاك مع المسلمين السنة فيما يوطدون صداقاتهم مع الإنجليز، ويسعى أبناء هذه الطائفة إلى التعتيم حول حقيقة ومظاهر معتقداتهم.

في الداخل أيضًا قبائل من المسيحيين العرب، وفي جهة الشرق تنتشر جماعات إسلامية ترعى الأغنام، وفي الأطراف تنتشر العديد من قرى الطائفة الإسماعيلية.

في الجهة الجنوبية من هذا القطاع الثاني الواقع بين طرابلس من ناحية، وبيروت من ناحية أخرى تنتشر طوائف من مسيحي لبنان على رأسهم الموارنة الروم والموارنة الأرثوذكس، وبين هذه الطوائف توجد عائلات مسلمة تتميز بنفس صفاتهم وعاداتهم رغم اختلاف الديانات.

وعلى قمم المرتفعات الجبلية الشاهقة تتجمع في الناحية الشرقية جماعات تسمى (المتاولة) وهم من الشيعة الذين تنحدر أصولهم إلى إيران حيث إنهم أحفاد أجيال هاجرت من إيران منذ مئات السنين، وهذه الطائفة منعزلة عن باقي الطوائف الأخرى حيث إن شيوخها وأئمتها يرفضون الالتحام مع أي من الطوائف الأخري، ومن ثم يحرم على أبنائها تناول الطعام والشراب مع من يختلف معهم من الطوائف الأخرى.

وفي أعلى الهضاب الجبلية تسكن قبائل مسلمة ومسيحية تعيش معًا في

توافق وتناغم غير مسبوق.

في المنطقة الشرقية يتجمع فلاحون جميعهم من العرب السنة ، أما منطقة القطاع الرابع ناحية الجنوب فيقع في أنحاء عكا.. وفي هذا القطاع يتكون السكان بداية من الساحل عرب سنيين، ثم دورز ثم شيعة (متاولة) وعلى ضفاف نهر الأردن ينتشر عدد هائل من المستعمرات التي تحتضن اللاجئين الجزائين وأمامهم شيدت قرى يسكنها يهود من مختلف البلدان بعضهم لا يزال متمسكًا بالعادات والتقاليد العبرانية والبعض الآخر تخلى عنها تماشيًا مع الثقافة الغربية عبر أدوات ووسائل لا تتواءم بحال من الأحوال مع الطبيعة الفلسطينية المعاصرة.

في قلب السهول من الجهة الشرقية يتمركز آلاف من العرب يقال إنهم من سلالة شعوب سوريا القديمة، وهم يعيشون في عشرات القرى بعيدًا عن الأتراك والعرب والبدو.

وتنفتح هذه المنطقة من ناحية جنوبها الشرقي على سهل حورات الخصيب مركز وقلعة الفلاحين العرب الذين اشتهروا بالبأس والشجاعة والجسارة والإقدام دون غيرهم.

وإذا اتجهنا صوب منطقة الشرق من تلك البقعة نلاحظ انتشار الطائفة الدروزية الذين يناصبون العداء للموارنة وقد شهد التاريخ ارتكاب العديد من المذابح الجماعية المتبادلة بين الطائفتين تحت سمع وبصر ورعاية الدولة العثمانية ولدى تلك الطوائف عائلات كبرى كانت ولا تزال إقطاعية تسيطر على أبعاديات واسعة من الأراضي.

أما القطاع الخامس فهو يبدأ من القدس ويشمل يهود ألمان يتمركزون عند الساحل وهم أناس اشتهروا بالتطرف الديني والعداء السافر للقرويين الفلسطينيين.

من ناحية الشرق وبالتحديد في الداخل يمتد وادي الأردن الذي يسكن على أرضه مماليك وأرقاء وبعد ذلك تنتشر بكثافة قرى مسيحية يتعاونون مع إخوانهم من أبناء المسلمين.

في المنطقة التي تمتد بين هذه القرى المسيحة وناحية الشرق يستقر عشرات الألوف من العرب الرحل وبعض المهاجرين من الشراكسة الأتراك الذي تشملهم الحكومة التركية بعطفها مقابل إخلاصهم وولائهم لها[١].

هذه خلاصة ورقة بحثية أعدها لورانس لعرضها على مجلس حرب الثورة لدراسة أحوال سوريا وظروفها وملابساتها وكيفية اختراقها، وربما ورد في هذه الورقة البحثية بما لا يمكن الأخذ بها بيد أن لورانس حرص على عرض هذه الرؤية الشخصية للديمجرافيا السورية وتشريحها على نحو يتحمل هو مسؤوليته أمام التاريخ.

❁❁❁

ما من شك أن العقبة باتت بعد احتلالها وطرد الحامية التركية منها وووقع أغلبها في براثن الأسد وحطت بها رجال جيش فيصل القادم من ميناء (وجه) تزامن معه وصول سيارات مدرعة بعثت بها القيادة العامة من السويس وتحمل على متنها عرب من مصر والجزائر وضباط بعضهم من بريطانيا والبعض الآخر من فرنسا تتبعهم مدافع وبنادق سريعة الطلقات وقنابل وأسلحة وذخيرة.

قرر القائد اللنبي في تلك الأثناء تدشين قاعدة جوية يمكن من خلالها شن هجمات مكثفة وعنيفة على الحاميات التركية التي لا تزال تنتشر بكثافة دفاعًا عن مواقعها في معركتها التي أوشكت على الانتهاء.

من خلال كل هذا تحولت العقبة إلى أهم عقبة أمام الأتراك ومن ثم أضحت

(١) نقلاً عن رؤية لورانس.

اسمًا على مسمى واقعي وحقيقي بالفعل.

من جانبهم لم يكن الأتراك على استعداد للتخلي عن العقبة وعلى ضوء هذا المفهوم راحت تركيا تدفع بالعتاد والسلاح والرجال على أمل استردادها مرة أخرى من بين قبضة الثوار العرب حتى تستعيد تركيا هيبتها ومكانتها بعد هزيمة العقبة المدوية وذلك خلال تعزيز قواتها بأحدث وأقوى ما لديها من أسلحة وذخائر.

على سبيل المثال تمكنت تركيا في الخامس عشر من أغسطس وردًا على ذلك من تعزيز حاميتها في منطقة (معان) بنحو ستة آلاف جندي من المشاة وفرقة من الخيالة وفرقة من الآليات وعدد لا بأس به من الطائرات التي تزودت بالقنائل الخارقة.

لم تقف التعزيزات التركية لحاميتها عند هذا الحد، بل واصلت تدشين قواتها عبر فرقتين من المشاة إلى «أبي لسان» التي كانت خاوية على عروشها بعد أن انسحب منها العرب طواعية أو بالأحرى تركوها بغير دوريات عسكرية ترصد وتراقب وتتابع تحركات الأتراك.

ما من شك أن القوات التركية التي احتشدت قد ألقت بظلال قاتمة على مشاعر وعواطف لورانس الذي تميز غيظًا وذلك خوفًا وفزعًا من اختلال موازين القوة التي تكاد تصب بعد هذه الحشود في خانة الأتراك.

على خلفية المخالف التي اجتاحت لورانس قرر تكسير عظام الأتراك حتى لا تستفحل قوتهم وتتعاظم قدراتهم، ومن ثم أرسل إلى القائد اللنبي يطالب بسرعة إرسال طائرات تتولى تدمير القوات التركية المحتشدة، ومن مطار العريش الجوي انطلقت أسراب طائرات قاذفة حطت عجلاتها في مطار العقبة الجديد.

وفي عصر الخامس والعشرين من أغسطس انطلقت أسراب من القاذفات

بقيادة الكابتن «شنت» وهو قائد اشتهر هو ومن معه من الطيارين بالمهارة والبراعة والكفاءة.. والاقتدار حيث كان هؤلاء الطيارون قد تميزوا بالقدرة الفذة في قصف القواعد والمواقع مع قدرتهم في الطيران المنخفض رغم ما يحيط به من أخطار جسيمة.

على أية حال بدأت القوات الجوية البريطانية في شن هجمات عنيفة على حشود الأتراك العسكرية في منطقة (معان) التي تعرضت لقصف بالقنابل العنيفة بلغت أكثر من ثلاثين قنبلة ألقيت على محطة السكة الحديد والمطار والقواعد، ومن ثم تكبدت القوات التركية خسائر فادحة سواء في الأرواح أو في العتاد.

وفي صباح اليوم التالي عاودت القاذفات البريطانية مهامها بقصف الجنود المحتشدين في منطقة (أبو لسان)، وقتلو المئات منهم وأضرموا النيران في الأخضر واليابس حتى إن الجنود الأتراك الهاربين قد تمكن منهم الرعب والهلع.

لكن هل لاذ الأتراك بالصمت إزاء ما يجري أمامهم؟ وهل كان بمقدورهم الانتظار والتحلي بفضيلة الصبر ريثما تأتي الرياح بما تشتهي سفنهم، وتهدأ الثورة العنيفة الجامحة الإنجليزية أم يجب التحرك الفعال والسريع لعرقة التقدم الإنجليزي العربي؟

بالطبع لم يكن الأتراك من هؤلاء الذين يرضخون لهذا الذي يحدث لما عرف عنهم طوال تاريخهم من عناد وإصرار وتمسك بالرأي، ومن ثم راح قادتهم يعدون الخطط للرد على تلك الغارات الرهيبة لإعادة ترتيب أوضاع القوات وتكريس الثقة التي تبخرت وتطمين الجنود على أن ما حدث لن يتكرر وأن بلادهم تملك من القدرات ما يدفعها للرد والصد وإلحاق الأذى بمن اعتدى عليها.

كانت مدينة (البتراء) هي التي وقع عليها اختيار القادة الأتراك وهو ما أثار

دهشة لورانس لما تتميز به تلك المدينة عن سواها بممراتها الضيقة وصخورها الضخمة المتلاصقة حتى اشتهرت بفعل طبيتها الجغرافية بالقلعة الحصينة.

وحين علم لورانس بنبأ تحرك الجيش التركي نحو مدينة البتراء لاحتلالها أرسل في التو فرقة عسكرية مكونة من أكثر من مائتي رجل مزودين بالأسلحة الحديثة يقودهم الشيخ مولود.

وشهدت البتراء معركة حامية الوطيس بين الجانبي أسفرت عن تدمير فرقة كاملة من قوات الجيش التركي فيما أبلى العرب بلاء حسناً أذهل من كان تبقى على قيد الحياة من ضباط وجنود الأتراك.

والواقع أن لورانس لم يكتف بهذا الهجوم الكاسح، وهذا الانتصار الساحق، بل تطلع إلى ضرورة المضي قدمًا في تضييق الوجود التركي نهائيًا حتى تتقدم خطى الثوار إلى الأمام.

وفي السادس عشر من سبتمبر أرسل لورانس مجموعة من الرجال يتقدمهم زعل ابن شقيق (عودة أبو تايه) نحو منطقة (المدورة) للهجوم على ثكنات القوات التركية بيد أن أزمة عنيفة كانت قد انفجرت بين زعل ومبعوث الأمير فيصل مع أفراد القبائل لأسباب ترتبط بالدعم وتوفير الأسلحة والأموال وضرورة الإنفاق على الرجال.

كانت المناقشة ساخنة تدور حول أطماع زعل وعمه عودة أبو تيان في جمع الأغنام والأسلاب والاستيلاء على حقوق القبائل لا سيما التي يبعث بها الأمير فيصل.

لكن لورانس استطاع بحكمته وذكائه نزع فتيل تلك الأزمة قبل أن تتصاعد حدتها وتتجه إلى مجهول لا يحمد أحد عقباه.

وانطلق لورانس بعد أن تصافح الجميع إلى محطة السكة الحديد لنسفها بيد

إن رجال الاستطلاع عادوا يحذرون من مغبة الهجوم نظرًا كثافة أعداد الجنود الأتراك الذين يتولون الحراسة مدججين بالأسلحة.

ولأن لورانس كان يدرك قلة العدد الذي يتقدمه ويخشى من إلحاق الخسائر الفادحة بها..

فكر لورانس في زرع لغم شديد الانفجار بعيدًا عن محطة السكة الحديد لنسف القطار القادم ليتمكن بعدها من اصطياد جنود المحطة الذين سيهرولون خوفًا من الانفجار.

وبعد نحو ساعتين على زرع اللغم أقبل قطار يحمل على متنه جنود من الجنس التركي وبعض المدنيين ثم سرعان ما عبر القطار على اللغم ليحدث انفجارًا مروعًا، وتبدأ في أعقابه قوات لورانس في إطلاق النار بصورة مكثفة وعشوائية حتى إن عددًا قليلاً للغاية هو الذي لاذ بالفرار من الجنود الأتراك سواء الذين كانوا داخل القطار أو الذين تولوا حراسة المحطة.

ما من شك أن تكرار تلك الحوادث على يد لورانس ورجاله أدى إلى تحطيم معنويات الأتراك لا سيما وأن سائق القطارات الأتراك أعلنوا تزمرهم وسخطهم حتى تحول ذلك إلى شعور عام أدى لإضراب وامتناع عن قيادة القطارات خوفًا من الألغام المزروعة على طول الطريق بين مدينة دمشق والحجاز..

وعلى أثر ذلك تراجعت حركة المواصلات وعانت تركية من قطع طرق المواصلات وتداعيات ذلك على نقل المؤن والمعدات والأسلحة والذخائر للجيش التركي المرابط في فلسطين.

في تلك الفترة كان الجيش البريطاني بقيادة اللنبي يتهدد وينتشر لإعداد وتجهيز حملة هجوم قوية على غزة الأمر الذي قوبل بغبطة وفرحة رقص لها لورانس وهو يمدح اللنبي ويشير بجسارته.

وأمام تلك التطورات والانتصارات الساحقة اتجه لورانس فرحًا مستبشرًا قاصدًا مكتب القائد اللنبي مرتديًا ملابسه البدوية المثيرة للدهشة والاستغراب.

وفي أعقاب المصافحة والسؤال عن الأحوال بين الرجلين بدأ الجنرال اللنبي يتحدث بلهجة عسكرية حازمة تشير إلى أن الأمور باتت في حاجة ملحة إلى الوقوف على حقيقة ما يجري بأقصى سرعة بعيدًا عن الحديث الودي المدني.

وراح الجنرال اللنبي يسأل لورانس عن أهدافه من شن غارات كبيرة على خطوط السكك الحديدية ، وهل تهدف تلك الغارات إلى إعلاء مكانة وشخصية فيصل أم ماذا؟

من جانبه أكد لورانس في أجوبته أنه يهدف في الأساس إلى تعطيل خط الحجاز لعرقلة وصول الإمدادات التركية إلى فلسطين فضلاً عن فرض حصار تجويعي على الجنود المرابطين في فلسطين أيضًا.

ويبدو أن الجنرال اللنبي لم يكن راضيًا عن هذه الأهداف حيث كان يطمع إلى ما هو أكثر من ذلك ومن ثم كان قد فرغ من وضع خطة دقيقة تشعل ثورة عربية كبرى في الشمال حال قيام قواته بشن هجوم واسع على خط غزة - بئر السبع.

من ناحيته لم يكن لورانس راضيًا عن تلك الفكرة التي طرحها اللنبي كما لم يكن متوقعًا الطريقة التي تناول بها اللنبي إدارة الحوار معه لا سيما وأن اللنبي كان يبدو متكبرًا متعاليًا أو إنه قد تظاهر بذلك في حين كان لورانس يظن أنه يستخفي ويكرمه كما سبق وأن كرمه من قبل بالأوسمة والنياشين.

وعلى الرغم مما حققه لورانس في تلك الفترة من انتصارات ساحقة أدت إلى قرب إنجاحه الثورة ضد الأتراك إلا أن الجنرال اللنبي قد أبدى معاملة غير لائقة بدوره عبر أسئلة بدت للورانس سخيفة لا تستحق عناء الرد.

الشاهد أن لورانس رفض اقتراح اللنبي بشن الهجوم على غزة حيث كان ذلك

يستدعي قيام الجيش البريطاني باحتلال مدينة الدرعة فيما أن الجيش البريطاني قد لا يكون مؤهلاً من وجهة نظر لورانس على إتمام مثل هذه المهمة في حين يري إمكانية القبائل العربية وقدرتها على تنفيذ ذلك ولا سيما وأن لورانس كان يرغب في الأساس باحتلال الدرعة بواسطة رجال فيصل حتى يشهد الجميع للورانس بدوره الخطير في إنجاح الثورة.

وبما أن القائد الجنرال اللنبي هو الذي سيبادر بشن الهجوم على غزة واحتلال الدرعة فسوف ينكمش دور لورانس ويتضاءل أهميتة، ومن ثم ينكمش دور فيصل بالتبعية ليلمع اللنبي الذي جاء لقطف ثمار يانعة كان لورانس وفيصل قد ألقيا ببذورها لترتوي فيما بعد بعرقهم ودمائهم ودموعهم.

وربما كان لهذا الشعور الذي اجتاح لورانس راح يقول في مذكراته:

«إنني شعرت بنفسي تكاد تتمزق بين اللنبي وفيصل»

على أية حال التقى لورانس مع فيصل عدة مرات أبدى خلالها لورانس رغبتة في إظهار القائدة اللنبي ولائه للعرب،ولثورتهم وذلك بتأييده وجهة لعملية حربية كبرى ضد خطوط السكك الحديدية التي يستخدمها الأتراك وهو الاقتراح الذي وافق عليه الجنرال اللنبي وقرر على أثره تزويد لورانس بأسلحة وضباط بريطانيين وبعض من حملة البنادق سريعة الطلقات يتبعون الجيش الهندي فضلاً عن أسلحة أخرى حرص لورانس على وجودها وقبل مغادرة الحملة بأيام كان قد أقبل الأمير حفيد الشيخ عبد القادر الجزائري للانضمام إلى الثورة وهو ما أطرب لورانس.

وفي الرابع والعشرين من شهر أكتوبر انطلقت حملة لورانس بمحاذاة جنوبي خط سكة حديد الحجاز في طريقها إلى معسكر (عودة أبو تايه) الذي أبدى رفضه للانضمام للحملة، وهو ما أصاب لورانس بالدهشة والاستغراب، وإن كان

على يقين من أطماع عودة وأن ما سلبه ونهبه في المعارك السابقة أدى إلى اكتفائه بهذا القدر من المعارك ومن ثم لم يكن يهدف من وراء انضمامه إلى دعم الثورة قدر سعيه الحثيث إلى تجميع الثروات والأموال التي تغتنمها الحملات العسكرية التي يقودها لورانس.

❁ ❁ ❁

في الطريق إلى الأزرق انضم إلى لورانس شيخين من قبيلة «زبن صخور» شيقفان هما (فهد وغضوب) عرفا عنهما الشجاعة والبسالة والإقدام ثم سرعان ما انضم إلى لورانس عدد هائل ينتمون إلى قبيلة (السيراحين) التي يترأسها شيخ يدعى «مطير» الذي أكد للورانس أن نسف الجسر أمر غير ممكن لكثرة الجنود الأتراك وعدم اطمئنانه من إخلاص القرويين الذين يتبعون الأمير عبد القادر، وتم نفيهم وأقاموا قسرًا في تلك المنطقة.

كان لورانس في ذلك الوقت يتميز غيظًا من عودة أبو تايه الذي خذله وجنود الجيش الهندي الذين ظهر ضعفهم وعدم قدرتهم على الصمود والخلاف الذي اندلع بين عبد القادر والأمير علي بن الحسين الذي استدعاه لورانس ليحل محل الشريف ناصر الذي كان في مهمة بعيدة كلفه بها لورانس.

أما سبب الخلاف بين الرجلين أن عبد الله ارتاب في نوايا الأمير القادر وقد تجلت شكوكه حين تهلل وجه لورانس وكاد يرقص طربًا عندما ترامى لمسامعهم طلقات مدفعية قوات اللنبي حيث أبدى الأمير علي هو الآخر غبطته وابتهاجه لمشاطرة لورانس مشاعره وهو الأمر الذي دفع الأمير عبد القادر ليهمس في أذن الأمير علي قائلاً:

«لا داعي لتلك الفرحة يا أخا العرب فإخواننا المسلمون هناك تقتلهم مدافع الكفرة».

والواقع أن هذه العبارة ألجمت الأمير علي الذي لاذ بالصمت المشوب بالقلق والاستغراب من هذا الذي يبدي تعاطفه للأتراك وعداءه الرهيب للأصدقاء الإنجليز.

المهم أن لورانس قد تحرك في جنح الليل لزرع الألغام في خط السكك الحديدية وإن كان القطار الأول الذي يحمل بداخله عدد غفير من الجنود الأتراك قد مر بسلام حيث أخفق لورانس في تفجير اللغم وهو ما أثار شجونه واجتاحته عاصفة من الغضب ولولا أن علم بقدوم قطار آخر لكان قد سقط مغشيًا عليه من فرط الحزن الذي احتواه.

وقبل أن يوشك القطار القادم على الاقتراب كان لورانس قد فرغ من وضع الألغام على قضبان السكة الحديدة وكان القطار القادم يجلس بداخله جمال باشا قائد الجيش التركي والذي كان متوجهًا إلى مدينة القدس لعقد اجتماع عاجل مع قادة الجيش لوضع الخطة اللازمة للدفاع عن مدينة القدس التي على وشك السقوط في أيادي اللنبي، ومن ثم أضحت فلسطين في خطر داهم يتهددها.

المهم أن لورانس وقف بعيدًا ينتظر وهو يتحرق شوقًا مرور القطار بعجلاته الساخنة على شريط القطار لكي تنفجر الألغام التي زرعها وسرعان ما تعرض المكان لدوي انفجار هائل ورهيب حيث إن قاطرة القطار تناثرت بمن فيها إلى أشلاء.

وعلى غير ما هو متوقع كاد لورانس يسقط صريع الرصاص الذي انهال عليه فور وقوع الانفجار حتى إن رجال قبيلة بني صخر أقبلوا يلتفون حوله للدفاع عنه وحمايته من وابل النيران المنهمر حتى اضطر لورانس للتراجع بعد أن تنبه للقوة المرافقة لجمال باشا.

كان لورانس قد مني بالفشل في هذه الحملة المشؤومة والتي لم تكن كغيرها من الحملات التي سبقتها في ذات الوقت الذي كان فيه الجنرال اللنبي يواصل انتصاراته وإنجازاته على أرض فلسطين.

في تلك الأثناء أحس لورانس بالمهانة حتى إنه كان غارقًا في حيرته من الهزيمة الساحقة التي لحقت به وبما سيبرر ذلك أمام الجنرال اللنبي المنتصر، أو الذي كان له الفضل في تطويق القوات التركية وكسر إرادتها داخل فلسطين عبر خطط خداعية لا تخلو من ذكاء وعبقرية ساهمت بدورها على دفع قوات اللنبي للتقدم داخل فلسطين.

واقع الحال أن اللنبي كان قد أوهم الأتراك أنه على وشك القيام بشن هجوم واسع المجال من الجهة الغربية ناحية غزة وهو ما دعا الأتراك للتأهب والاستعداد لمواجهته في الوقت الذي شن هجومه الضخم على أضعف المراكز التي يحتشد فيها الأتراك، ومن ثم كان الطريق مفتوحًا أمام مشاة الإنجليز والشاهد أن الهزيمة التي لحقت بقوات لورانس وتعرض حياته لخطر الموت قد دفعت لورانس للتراجع عن حماسه الذي كان يشتعل في رأسه حتى إنه بدأ يعاود دراسة الأمر من كافة جوانبه، ومن ثم أدرك أن ما ورد في أثناء لقائه مع الجنرال اللنبي حول ضرورة إحداث ثورة عارمة كانت فكرة رائعة ينبغي التمسك بها وهنا فقط أقر لورانس بعبقرية الجنرال اللنبي وأنه أراد من وراء إذكاء نار تلك الفكرة أو الفتنة تأليب الشعوب بأقل ما يمكن من خسائر.

واتضح للورانس أن الأمر بات بالفعل في حاجة إلى ثورة لا سيما وأن وفودًا هائلة يتزعمهم شيوخ وزعماء وقادة طائفة الدروز الذين كانت شعوبهم تتكاثر في مناطق الصحراء والجبال السورية فضلاً عن انضمام (طلال الحراديني) أحد ألمع زعماء القبائل العربية الكبرى التي تقيم بالقرب من منطقة (درعا).

إذن توافد شيوخ البدو وزعماء الدروز ولقاءاته الكثيفة معهم وانتصارات اللنبي

وانضمام (طلال الحراديني) أعاد لذهن لورانس معًا أهمية العملٰ العسكري بالتزامن مع العمل الثوري وهو الأمر الذي طال له واستقر عليه.

❁ ❁ ❁

من هنا تلك اللحظة التي بايعه فيها (طلال الحرادين) على مواصلة النضال فكر لورانس في إعادة المحاولة مرة أخرى لشن هجوم ساحق على منطقة درعا حيث تأكد بما لا يدع مجالً لشكر أن تقدم الجنرال اللنبي يستدعي التحرك العاجل والفعال، ومن ثم ينبغي توظيف قدرات طلال وتسخير طاقته لدعم هذا الهجوم المرتقب.

❁ ❁ ❁

وقرر لورانس التحرك الفعلي على أرض الميدان وانطلق بهدف احتلال درعا بعد أن تمكن من إقناع رؤساء ومشايخ القرى القريبة من درعا بالانضمام إليه.

ولأن طلال كان معروفًا لدى سكان درعا فقد اضطر لورانس إلى تنحية دوره جانبًا حتى لا يعرف أحد من عملاء الأتراك علاقته الوطيدة الوليدة مع لورانس، ومن ثم غامر لورانس باحتلال درعا بمفرده دون الاستعانة بقوات طلال.

وبما أن الفشل بات يلاحق لورانس أينما ذهب في الأيام الأخيرة فلم يكن مستغربًا وقوع لورانس في قبضة القوات التركية التي أرغمته على المثول بين يدي (ناهي بك) الحاكم التركي.

كان الأتراك لا يعرفون لورانس، بل يسمعون عنه فقط وعن دوره الخطير في الثورة العربية، ومن ثم استطاع لورانس توظيف جهل الأتراك لشخصيته وادعى أنه شركسي بيد أن الجنود الأتراك أصروا على مثوله بين يدي حاكم المدينة (ناهي بك) وترددت في هذا الشأن أنباء لا يعرف أحد مدى مصدقيتها حيث زعم بعض الناس أن لورانس وقع فريسة لشذوذ الحاكم التركي (ناهي بك) الذي

أجبر لورانس على الرضوخ لرغبته الجامحة، بيد أن هناك فريقًا يدعي أن إعلان ذلك الموقف يهدف إلى تلطيخ سمعة لورانس ونظرًا للنجاح الهائل الذي أحرزه.

هناك أيضًا فريق يشير إلى أن الإنجليز هم الذين أشاعو ذلك بهدف الإساءة إلى أبناء الخلافة الإسلامية وشذوذ قادتها وانعكاسات ذلك على من دون ذلك عملاً بالقول المأثور :

«إذا كان رب البيت بالدف ضاربًا إلخ.. إلخ...»

لكن على أية حال استطاع لورانس أن يتحرر من قبضة الأتراك ويعود أدراجه إلى حيث كان وهو يجر من وراء أذيال الخيبة والفشل المرير حتى قيل إن لورانس قد تعرض لصدمة نفسية جراء الإخفاقات المتلاحقة والهزائم المتوالية.

كان لورانس يشعر بالحنق على الأحداث المتوالية والتي أصبحت لا تبشر بقدوم انتصار قادم على المدى القريب أو البعيد فلفحته شمس اليأس وأسقطته مضرجًا في إعيائه وبكائه ونحيبه ينعى عثراته وما جرى له مؤخرًا.

لم يكن ذلك فحسب هو الذي يؤرق ويرهق لورانس، بل كان يحمل قدرًا من الهموم بداخله حال لقائه المرتقب مع القائد العام اللنبي الذي لا يتوانى في إحراز الانتصارات يومًا بعد يوم دون توقف وكأن ظهور اللنبي كان نذير شؤم يلوح أمام لورانس.

وحين عاد لورانس إلى مدينة العقبة أخبره الضابط أن القائد اللنبي تمكن من احتلال القدس وأنه يتطلع إلى لقاء غدًا وهو ما أثار عاصفة من الغضب اجتاحت مشاعر لورانس الذي راح يتسائل عن أي شيء سأحدثه عن هزائم أم عن انتصاراته؟!

وحين التقى لورانس بالقائد العام اللنبي راح يشرح له أسباب فشله في احتلال درعا بيد أن اللنبي الذي كان مبتهجًا لانتصاره الساحق لم يلتفت إلى حوار

لورانس حيث أشار عليه بألا يبالي بهذا الأمر وأن يستعد لحضور احتفالية القوات الإنجليزية باحتلال القدس على اعتبار أنه أحد ضباط الجيش البريطاني.

❁ ❁ ❁

لم يكن لورانس متأهبًا لحضور الاحتفال الذي تستعد له القوات البريطانية ولما لاحظ اللنبي علامات الوجوم والأسى قد ارتسمت على ملامح لورانس سأله عما به؟

فأجابه لورانس متسائلاً في هدوء:

«هل فقدت حماسك وإيمانك بأهمية الثورة العربية أيها القائد العظيم؟»

تأمل الجنرال اللنبي وجه لورانس قائلاً في حزم كعادته:

«إطلاقًا يا لورانس ما زلت أشعر بالأمل يحدوني في نجاحها ولا سيما أن انتصاراتنا سوف تعزز من مكانتنا وقدراتنا لتطويق الأتراك، ومن ثم سوف ننتصر عليهم ولكن دعنا نحتفل الآن ونبتهج لما أحرزناه.

لورانس: لكن سيدي القائد هلا ساعدتني في وضع خطة ملائمة لذلك .

اللنبي: بكل تأكيد.. ولا داعي للقلق يا لورانس.

لورانس: هذا تعهد منك يا قائدي العزيزي؟

اللنبي: هو ذلك فلن أدخر وسعًا لدعمك ومساعدتك.

لورانس: متى إذن يا قائدي المنتصر؟

اللنبي : في أعقاب الاحتفالية التي ستشهدها.

ما من شك أن لورانس قد استعاد توازنه وتفاؤله ولاحت تباشير الأمل تلوح

أمامه بعد عاصفة عاتية من اليأس.

وبالفعل أوفى اللنبي بما تعهد به أمام لورانس حيث استدعى قادة القوات لوضع خطة عسكرية في الوقت الذي كان فيصل من جانبه قد تأهب على رأس قواته للدفع بهم ناحية الطفيلية التي تقع بالقرب من الجهة الجنوبية الشرقية للبحر الميت..

ولأن لورانس يعمل في الأساس ضابطًا استخباراتيًا لحساب القوات البريطانية فقد اختفى أسبوعًا في القاهرة أغلب الظن أن قد ارتمى خلاله في أحضان المكاتب الاستخباراتية لعرض ما لديه وتلقي ما في حوزتهم من توجيهات وتعليمات ليعود بعدها مباشرة إلى العقبة لمتابعة خطة اللنبي التي حملها معه لتفعيلها على أرض الواقع.

كانت مدينة العقبة في ذلك الوقت قد شهدت تطورًا جديدًا في معدات الجيش العربي وأسلحته إمداداته.

لاحظ لورانس فور وجود مدافع وبنادق وأسلحة حديثة إلى جانب عربات مدرعة للقتال وأخرى لنقل الجنود، كما لاحظ أيضًا أن جيش فيصل الذي يتألف من ثلاثة آلاف من الجنود قد أصبحوا على استعداد لخوض غمار أية معركة قادمة بعد أن تلقوا تدريباتهم على يد نوري السعيد القائد الشهير الذي تولى بعد ذلك رئاسة حكومة العراق في عهد فيصل .

في تلك الأثناء تلقى لورانس تقريرًا يؤكد نجاح (مولود) في طرد القوات التركية من منطقة (أبو اللسان) ومن ثم أصبحت قواته على مرمى البصر من مدينة معان التي باتت مهددة فضلاً عن أن خطة سكة حديد الحجاز كان هدفًا لهجمات القوات العربية الليلية المباغتة.

من جانبه أرسل القائد اللنبي مساعدة الجنرال (دواني) إلى العقبة لتنفيذ

الخطة التي كانت في حوزة لورانس.

لكن تطورًا جديدًا طرأ على رأس لورانس حيث راودته الفكرة القديمة التي كان يؤمن بها حول أهمية حرب العصابات للبدو الذين لا يجدون نفعًا في الحروب النظامية، وعلى ضوء ذلك بذل لورانس قصارى جهده لمنع تنفيذ الخطة عبر مرسلاته للقادة الإنجليز وقد باءت مساعيه بالفشل.

وفي منتصف شهر يناير ١٩١٨م كانت الأمور تتحرك بقوة نحو احتلال منطقة الطفيلة الجسر الذي يقود من يعبره إلى البحر الميت.

في تلك الأثناء كان الضابط القومي الشهير نوري السعيد يتولى قيادة المدافع وتوجيهها ودفع رجاله إلى محطة الجرف للسكة الحديد لبسط سيطرته عليها فيما كانت قوات الشريف ناصر سوف تهاجم من الشرق لتصبيح المدينة بين فكي كماشة حتى سقطت الحرف.

أما الطفيلة فكانت تترقب ما يجري من حولها وقد تقدمت القوات العربية نحوها ثم سرعان ما انخرط (عودة أبو تايه) في صفوفهم.

كانت الطفيلة تحرسها فرقة عسكرية مكونة من مائة وثمانين جنديًا تركيًا إلى جانب بعض القبائل الموالية للجيش التركي والتي ناهضت الثورة العربية لأسباب ثأرية.

وحين تقدمت القوات العربية راحت هذه القبائل المالية للأتراك في إطلاق نيرانها ناحية قوات الشريف ناصر وهو ما أثار حنق عودة أبو تايه الذي تقدم قواته غاضبًا للرد على هذه الطلقات وهو يصرخ بأعلى صوته قائلاً:

«أنا عودة أبو تايه.. عودة أبو تايه أيها الكلاب... أتجهلونني أم أصابكم مس من الجنون»

وأمام تلك الصيحات التي أطلقها عودة حتى استسلمت القبائل بأكملها حيث

كانوا يقدرون مكانة عودة أبو تايه وزعامته الشامخة بين القبائل.

وفي أعقاب استسلام القبائل اضطرت الحامية التركية إلى رفع الرايات البيضاء بعد أوامر صدرت واضحة من مكتب الحاكم التركي.

في تلك اللحظة كان لورانس قد وصل إلى الطفيلة برفقة جعفر والأمير زيد الابن الأصغر للشريف حسين والذي كان قد عين قائدًا للحملة المتقدمة نحو البحر الميت.

من جانبها عادت القوات التركية مدعومة بإمدادات وتعزيزات هائلة لاستعادة الطفيلة التي وقعت في قبضة الجيش العربي وسرعان ما تمكن الجيش التركي من احتلالها مرة أخرى في الخامس والعشرين من يناير ١٩١٨ م.

وحيث إن القبائل العربية قد لوحت برايات الاستسلام لقوات عودة أبو تايه فقد انتاب الرعب هذه القبائل خشية الانتقام التركي عقابًا لهم على عدم إبداء المقاومة، ومن ثم لاذ الأهالي إلى تلال الجبال تفاديًا للغضبة التركية المرتقبة.

من ناحيته أصدر الأمير زيد أمرًا بسحب القوات العربية من القرية لتعود إلى وادي يقع جنود القرية بَيد أن لورانس كان قد أبدى معارضة شديدة لتلك الأوامر نظرًا لخطورة مردودها على القبائل العربية التي سبق لها أن ساندت القوات العربية إكرامًا لعودة أبو تايه.

لكن إصرار الأمير زيد على قرار الرامي للانسحاب قد ألقى بظلال كئيبة على القادة مما كان له أبلغ الأثر في أداء القوات، ومن ثم اضطر الأمير زيد إلى التنحي عن قيادة القواد ليتولى لورانس إعادة ترتيب الأوراق مرة أخرى على قدم وساق بغية طرد الأتراك وصد هجومهم العنيف ومن كانت قواتهم تتألف من ثلاث فرق من المشاة ونحو ألفًا من الخيالة ومائة فرس وسبعة وعشرون مدفعًا

سريع الطلقات فضلاً عن مدفعين جبليين.

الشاهد أن لورانس تمكن من تنظيم القوات في منطقة المرتفعات التي تطل على الطفيلة مستعيناً في ذلك بالقرويين المسلحين فيما تولى أحد حراسه قيادة رجلين يحمل كل منهما مدفعًا سريع الطلقات لتضليل القوات التركية.

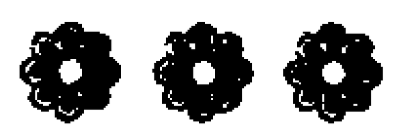
وأمام تلك التطورات فوجئت القوات العربية بكثافة هائلة من الطلقات أطلقتها القوات التركية التي واصلت زحفها وتقدمها دون توقف أمام تقهقر وتراجع عربي لا يقوى على التصدي للمدفعية التركية العنيفة أو هكذا تظاهر العرب وفق الخطة التي وضعها لورانس.

أثناء ذلك وصلت قوة عربية مكونة من مائتي قروي مسلح ومائة بدوي الأمر الذي ابتهج منه لورانس الذي كان ينتظر وصول تلك القوات حتى يتمكن من الانقضاض على القوات التركية من كافة الاتجاهات على أن تظل قواته داخل الطفيلة تدافع عنها ولا تتراجع قيد أنملة للوراء كما أراد الأمير زيد لتفعيل حصار شديد على الأتراك يؤدي إلى تصفيتهم.

من ناحيتهم راح رجال القبائل يفتحون نيران بنادقهم السريعة الطلقات وحصد أرواح المئات منهم في حين راح عدد لا بأس به من جنود القوات العربية بدك حصون الأتراك بالمدافع فتحطمت الميمنة والميسرة للقوات التركية وهو ما أثار حالة من الهلع لدى القوات التركية فسادت المخاوف فلاذ من استطاع منهم بالهرب ووقع نحو خمسين منهم في قبضة الأسر وبحوزتهم مدافعهم.

إذن كان النصر في هذه المعركة من نصيب لورانس وعلى ضوء ذلك بعث ببرقية عاجلة ومطولة إلى القائد اللنبي يروي له فيها تفاصيل خطته التي قادت قواته لإحراز هذا الانتصار الساحق.

ورغم أن نتـائج هذه المعـركة لم تكن ذا أهمـيـة إلا أنهـا أعـادت الأمل للورانس فضلاً عن أنها قد أدت إلى قطع خطوط مواصـلات الجيش التـركي عبر منطقـة البحـر الميت.



الفصل الحادي عشر

كيف سقطت دمشق؟

بعد أن فرغ الجنرال اللنبي من قراءة برقية لورانس التي بعث بها إليه عقب إحراز النصر الساحق أرسل اللنبي ببرقية مماثلة إلى لورانس يدعوه فيها للعودة من أجل التباحث في الأوضاع والشؤون العسكرية وكيفية مواجهة الموقف والاطلاع على ما رسمه وصاغه من أجل تطويق وتصفية الوجود التركي بالمنطقة وعلى أثر تلك البرقية طار لورانس على متن طائرة عسكرية إلى مقر القائد العام في القدس للتباحث معه بشأن الأحداث الجارية ومستجدات الوضع العسكري.

وجرى لقاء مطول جمع الرجلين مع تتضمن التطرق لمسألة دعم القوات العربية وتعزيز موقف الأمير فيصل ومحاولة الحفاظ على مكانته على اعتبار أنه الزعيم القادم الذي ينبغي تصعيده وتلميعه بين رجال قواته حتى لا يفقد مكانته وينزوي دوره أو يخبو بريقه ويختفي لمعانه.

وعلى ضوء تلك التحديات اضطر القائد العام اللنبي أن يتحمل كافة النفقات التي يحتاجها الأمير فيصل الأمر الذي أطرب قلب لورانس ومن ثم عاد مسكونًا

بالغبطة والبهجة قاصدًا مقر الأمير فيصل.

وقدم لورانس لصديقه فيصل مبلغًا ضخمًا من المال قُدر آنذاك بثلاثمائة ألف جنيه ذهبًا لشراء الأسلحة والمعدات وأكثر من سبعمائة جمل غير المؤن والمواد الغذائية وملابس الجنود ولوازمهم التي يحتاجونها.

وفي أثناء اللقاء بين فيصل ولورانس وبعد أن فرغ لورانس من رصد الأموال التي حملها إلى فيصل راحا يتطرقا إلى الأوضاع العسكرية وما الذي ينبغي القيام به في غضون الساعات القادمة حتى لا يتفاقم الوضع وتتدهو أوضاع القوات العربية إذا ما تحلى العرب بالصبر وانتظار رد الفعل وعدم توظيف الانتصار الأخير.

والشاهد أن لورانس راح يشرح أمام فيصل الخطة العسكرية التي صاغها ورسم خطوطها القائد العام اللنبي.

كانت الخطة تهدف إلى سرعة في شن هجوم بواسطة نهر الأردن وبالتحديد من بلدة أريحا على أن يكون ذلك صباح الخامس من مايو ١٩١٨م .

أما تفاصيل الخطة الأساسية فقد كانت تعتمد على العمل الدؤوب والفعال من أجل تشتيت القوات التركية الرابطة في نقاط حصينة للدفاع عن المنطقة المترامية بين مدينة يافا ومنطقة شمال البحر الميت فضلاً عن بسط السيطرة على مدينة السلط الواقعة على مسافة لا تقل عن عشرين ميلاً ناحية الغرب من عمان وذلك وفق ما هو مرسوم ومخطط يهدف إلى احتلال بلدة معان وتحطيم خط السكة الحديد من جنوبي عمان على أن يؤدي ذلك إلى التقاء القوات العربية بالقوات البريطانية في إحدى المناطق الواقعة شمالي أريحا.

من جانبه قام لورانس بتوجيه بعض التعليمات إلى نوري السعيد وجعفر لتهيئة القوات المحارية تأهبًا للحرب القادمة بين عشية وضحاها، ثم اضطر لورانس

إلى اللجوء لقبيلة بني صخر القاطنة في منطقة عمان لتأليبها على الجيش التركي وتضامنها للقوات العربية.

لم تنته تحركات لورانس عند هذا الحد، بل قام من فورة حماسه بالعمل على دفع الجنرال جويس وزميله دوناي للقيام بقطع خط السك الحديدية عند منطقة الدورة لا سيما وأن الخطة الموضوعة كانت تعتمد على وضع القوات العربية بطول خط السكك الحديدة المتجه ناحية الشمال بهدف تدمير جسور الصلة بين المدينة والقيادة التركية.

في تلك الأثناء وبعد أن بدأت القوات في طريقها لتفعيل الخطة تلقى لورانس برقية عاجلة وسرية تفيد بقيام القوات البريطانية بالسيطرة المباشرة والفاعلة على مدينة عمان بعد أن احتلت مدينة السلط الأمر الذي حض لورانس على توجيه الأوامر لقواته بتعقب القوات التركية المنسحبة لتصفيتها من أجل غرس بذور الثقة في نفوس مقاتليه واستثمار الزحف البريطاني لكن وقبل أن تشرع القوات العربية في تنفيذ أوامر لورانس كانت برقية عاجلة تسلمها لورانس تشير في مجملها إلى انقلاب مفاجئ وخطير في ميدان المعركة حيث استطاع الجيش التركي العنيد من استعادة مدينة عمان والسلطة حتى إن قوات القائد اللنبي قد أصابها الرعب واستولى عليها الفزع وقد راح كل رجل من رجال اللنبي يدور حول عقبيه لا يدري إلى أين المفر، ومن ثم لاحقت القوات التركية الفلول الهارية من جيش اللنبي عبر وادي الأردن الأمر الذي أدى إلى زعزعة الثقة في قدرة القوات الإنجليزية بالسيطرة على القوس حيث راجت أقاويل وتناثرت شائعات تتعلق بقرب سقوط القدس بين يدي جمال باشا القائد التركي الصلب والمناور والعنيد.

ولأن لورانس كان ضابطًا استخباراتيًا على أعلى طراز فقد أراد بدهائه ومكره وقدرته الفذة على قراءة ومعرفة ما يدور داخل عمان لمعرفة الحقيقة على أرض الميدان بعيدًا عن التقارير والشائعات والأقاويل.

إذن ما الذي صنعه ملك الجواسيس وداهية بريطانيا الرهيب لورانس إزاء تلك الفكرة التي تخمرت في رأسه وقرر القيام بها بغض النظر عن الأخطار التي تحدق به.

لقد تسلل لورانس بصحبته رجل يدعي فراج بعد أن ارتديا ثياب نسوة البدو حتى اخترق شوارع عمان ليتسنى له التأكد من سيطرة الأتراك وتقهقهر الإنجليز واستقرار الوضع بين الجميع لولا أن الأتراك قد عاثوا فسادًا في عمان لمحاكمة الخونة والعملاء الذين ساعدوا الإنجليز في اجتياح المدينة.

على أية حال تأكد لورانس أن العرب قد نجحوا فقط في تدمير خط سكة حديد الحجاز فيما فشلوا في كافة الخطط الأخرى لضعف إمكاناتهم لا سيما وأن المدفعية لم تكن قادرة على التصويب الدقيق .

وللتأكيد على أن الأوضاع من الممكن أن تتحسن على عكس ما هو شائع بعد الهزيمة الأخيرة التي منيت بها القوات العربية راح لورانس يستعين بالضابط دوناي لشن هجمة على منطقة (المدورة) وقد لحق بهما ضابطين بريطانيين أحدهما خبير بالمتفجرات وعلى متن بعض العربات المدرعة لتدمير محطة المدورة تدميرًا هائلاً.

بعد هذه العملية تلقى لورانس برقية عاجلة من القائد العام لاستدعائه للتشاور في أمر مهم وقد انطلق لورانس إلى مقر القائد العام وفي الطريق علم أن القوات البريطانية استعادت مدينة السلط مرة أخرى وانتزعتها من بين أيادي الأتراك، وأن شيوخ قبيلة بني صخر قد اتجهوا سرًا إلى أريحا من أجل إعلان ولائهم للقوات البريطانية من خلال إرسال نحو عشرين ألفًا من رجال القبائل في تأكيد واضح على استعدادهم للقتال والنضال لكن أخبار أخرى أفادت سقوط مدينة السلط مرة أخرى في أيدي الأتراك، وهو الأمر أثار عاصفة من الارتياح لدى لورانس وذلك لتبرير فشله وهزيمته التي مني بها من قبل وعدم قدرته على

حسم الأمر على أرض الميدان، ومن ثم لا يستطيع اللنبي تقريعه وتوبيخه وتحميله مسؤولية ما حدث للقوات العربية.

الشاهد أن لورانس التقى مع القائد العام الجنرال اللنبي وقد عرض أمامه ضرورة شن غارات جوية على معان وعمان وخط سكة حديد الحجاز بهدف تدمير مواقع الأتراك ودفعهم للهروب من خنادقهم لاصطيادهم.

ربما راقت الفكرة التي طرحها لورانس للجنرال اللنبي وعلى أثرها استدعى الجنرال «سالموند» قائد القوات الجوية لتنفيذ ما سوف يوكل إليه من أوامر وتعليمات وخرائط لمواقع سيتولى تدميرها ثم طلب لورانس الحصول على فرقة الهجانة، وقد استجاب اللنبي فطالب لورانس حيث أدرك اللنبي أن لورانس ضابط كفء جدير بالثقة والاحترام ومن ثم لم يكن هناك ما يبرر رفض مطالبه أو تسويفها لمجرد أنه حديث السن.

وما من شك أن لورانس قد لاحظ تقدير اللنبي له الأمر الذي حرضه على إعلاء شأنه وتعظيم مكانته لا سيما وأنه ما زال يشعر بضآلته أمامه الأمير فيصل الذي يملك بيده الحل والعقد، ومن ثم فقد لاحت الفرصة لإبعاد فيصل وإزاحته لكي يتبوأ مكانه.

❁ ❁ ❁

وعاد لورانس إلى معسكر الأمير فيصل الذي كان قد صافح لورانس بحفاوة بالغة نظير ما حمله معه من فرقة الهجانة والحصول على موافقة اللنبي على شن غارات جوية عنيفة وكثيفة على مراكز ومواقع الأتراك ، ومن ثم بات الطريق إلى دمشق مفروشًا بالورود في انتظار النصر الساحق.

كان لورانس مبتهجًا وسعيدًا من النتائج المثمرة التي تحققت على يديه ولم يعد هناك عقبات وعثرات تعترض طريق القوات المتجهة إلى دمشق حتى إنه بادر

بالقول محدثًا فيصل :

«إن لحظة النصر سوف تدفعه للعودة إلى بلاده بعد أن تحققت أحلامه وآماله».

الأمر الذي دفع الأمير فيصل للرد قائلاً:

«لكننا نريدك معنا دومًا».

الواقع لورانس كان يرى أنه قد جاهد قد وسعه لتحرير الجزيرة العربية من قبضة الأتراك لكي تهيمن عليه القوات البريطانية وأن مشروع الدولة اليهودية التي صاغه هرتزل قد بدأ في التحرك الفعلي بعد أن سقطت فلسطين في أيدي القوات الإنجليزية تزامناً مع اندثار وتقهقر النفوذ التركي في المنطقة بوجه عام.

كان لورانس يشعر بداخله أنه قد حقق ما لم يكن يستطيع غيره القيام به إزاء الدولة التي كانت حلمًا بعيد المنال فضلاً عن تفكيك دولة الخلافة الإسلامية التي سوف تشهد بعد سنوات قليلة تحرير شهادة وفاتها على يد الزعيم العلماني كمال أتاتورك الذي كان مدعومًا ومسلحًا بالقوى الصهيونية التي نصبته زعيمًا على تركيا لإنهاء دولة الخلافة وغروب شمسها.

المهم أن لورانس بدأ في التحرك الميداني واقترح على الأمير فيصل أن يبعث برسالة عاجلة إلى والده الشريف حسين لكي يرسل فرقة عسكرية لكي تنضم إلى قوات فيصل حتى تصبح أعداد القوات العربية تثير الرعب وتغرس الثقة في نفوس القادة.

كان لورانس يهدف من وراء هذه الفكرة تقسيم الجيش العربي إلى ثلاثة أقسام على النحو التالي:

القسم الأول: يتمركز للدفاع عن معان.

القسم الثاني: يتولى شن هجوم واسع على قطاع درعا ودمشق.

القسم الثالث: يتجه على الفور إلى قوات اللنبي في أريحا حيث يرى لورانس أن مسألة الهجوم على منطقة درعا - دمشق من شأنه أن يدفع الأتراك لسحب فرقهم العسكرية من فلسطين، ومن ثم يستطيع القائد اللنبي تعزيز ودعم القوات العربية عند هجومها الكبير ودخولهم دمشق.

علي ضوء تلك الخطة اتجه لورانس إلى مقر القائد العام الجنرال اللنبي لعرض الأمر عليه واستطلاع موقف الجيش الهندي الذي ينتظر قدومه للانضمام الى القوات العربيه وقد لاحظ لورانس متجاوب اللنبي معه وامتنان لخططه.

وبعد أن أنهى لقاءه مع اللنبي انطلق الى جدة لمقابله الشريف حسين ليعرض عليه الأمر في محاولة الى الحصول منه على موافقتة لدعم قوات فيصل التي توشك على احتلال سوريا وهو الأمر الذي أثار ضيق وحنق الشريف حسين ظن أن ابنه قد باع نفسه للإنجليز في سبيل الحصول على دمشق وهو ادعاء لا يخلو من الحقد حيث كانت العائلة بأكملها قد شيدت جسور المودة والصداقة مع الإنجليز من أجل السيطرة على الجزيرة العربية ودمشق والعراق ونهر الأردن وفلسطين إن أمكن ذلك.

وأمام هذه المستجدات التي يحملها لورانس اضطر الشريف حسين إلى التهرب منه متعللاً بالسفر إلى مكة للتعبد والاعتكاف في شهر رمضان وهو ما يتعذر على لورانس الوصول إليه حيث لا يجوز لغير المسلمين دخول مكة.

كان الشريف حسين يهدف إلى التنصل من دعم الأمير فيصل الذي لا ينصاع لسياسة والده كشأن أشقائه علي وعبد الله وزيد.

لم تقف الأمور عند هذا الحد فقد أجرى لورنس اتصالاً هاتفياً من حب مع الشريف حسين في مكة للوقوف علي حقيقة موقفه وما الذي سوف يصنعه مستقبلا لتعزيز ابنه فيصل بيد أن الشريف حسين أكد امتعاضه من سياسة فيصل

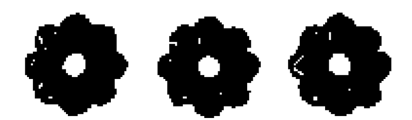
الجانحة الى الإنجليز الطامعين مع الفرنسين في السيطرة على الجزيرة العربية.

وتجلى موقف الشريف حسين في معارضته لسياسة ابنه فيصل حين أصدر قراراً بتعين جعفر باشا قائد للجيش العربي الشمالي بهدف تقليص نفوذ فيصل وتغريم دوره الأمر الذي أثر أعصاب فيصل وتميز منه غيظًا وغضبًا.

وأمام تلك العاصفة التي هبت من مكة وكادت تقتلع جذوره وأوتاد فيصل راح لورانس واللنبي في محاولات شاقة وحثيثة عبر أسلاك الهاتف والتلغراف لفض تلك الأزمة التي وصلت إلى حد تخوين الشريف حسين لنجله فيصل وتهديده من إعفائه وتجريده من كافة صلاحياته وسلطاته إذا دعت الأمور لذلك.

مع توارد البرقيات والمراسلات تلقى فيصل برقية تفيد عزله مما استدعى تدخل لورانس لإقناع الشريف حسين بالتراجع عن هذا القرار حرصًا على إنجاح الثورة العربية وحتى لا يكون ذلك سببًا في تفتيت الجبهة وتفكيك الجيش العربي، من ثم سينعكس بالسلب والمخاطر الجسيمة على مكانة الشريف حسين نفسه.

وبالتالي نجح لورانس في إقناع الشريف حسين الذي تراجع عن قراره الخطير.



قد تكون تلك هي المرة الأولى التي يجتمع فيها العرب جميعًا لخوض المعركة الكبرى التي باتت وشيكة الوقوع حيث شهدت منطقة الأزرق تمركزًا غير مسبوق للقوات العربية ولقد كان على رأسها الأمير فيصل الذي تقف من ورائه فرقة عسكرية تتألف من خمسمائة رجل يقودهم الثوري نوري السعيد، كما وصل عودة أبو تايه على رأس قواته لتلحق بها قوات الشريف ناصر ونوري الشعلان وفهد وطلال الفيلان وشقيق محمد، وغضوب، وآلاف الرجال الذين تجمعوا من كافة القبائل العربية هذا إذا وضعنا على رأس تلك القوات فرقة من أفراد الهجانة

المصريين الذين كان يتقدمهم «بيك» مع عشرات شيوخ وزعماء القبائل وبعض الدروز.

أضف إلى ذلك وجود طائرتان قاذفتان وعدد لا بأس به من الذين يحملون على أكتافهم بنادق سريعة الطلقات إلى جانب أربعين سائق إنجليزي.

اجتمع هؤلاء جميعا قبل قيام الجنرال اللنبي بشن هجومه الواسع والكبير حيث كانت خطة إسقاط درعا تعتمد في أهم عناصرها وأبرزها على القيام بثلاث غارات جوية تستهدف خطوط السكك الحديدية لكي تتوقف حركة سير القطارات لبضعة أيام من أجل عرقلة وصول القوات التركية إلى فلسطين حال الهجوم عليها.

والواقع أن القوات العربية لا سيما قوات فيصل كانت تتحسس خطاها كي لا تقع في قبضة القوات التركية حيث إن جبهة القتال التي تتمركز فيها قوات فيصل تصل إلى مئات الأميال التي تتداخل فيها السيادة التركية فضلاً عن كثافة القوات التركية المحتشدة في معان وعمان ودرعا على حد سواء.

في أثناء تلك التحركات كان لورانس يقود حملة صغيرة اتجه بها إلى إحدى المحطات الاستراتيجية لنسفها وتدميرها بعد أن تلقى إشارة تفيد بتقهقر القوة التي أوكل إليها القيام بمثل هذه المهمة المحفوفة بالمخاطر.

وواصل لورانس خوض غمار المعارك مع الأتراك حتى إنه قام بنسف جسر السكة الحديدية الواقع في منتصف المسافة بين درعا ودمشق وهو ما أثار ذهول الأتراك الذين لم يجول بخاطرهم أن يتعرض مثل المركز المحتشد بأكفأ جنود الجيش التركي لمثل هذا الهجوم المفاجئ الذي أباد جميع أفراد القوات التركية!!

كان لورانس يريد من وراء نسف هذا الجسر عزل درعا وتحييدها فضلاً عن تخريب الخط المؤدي إلى مدينة حيفا لقطع كافة الإمدادات والتعزيزات

والانتقالات التي تعتمد عليها تركيا في تلك المنطقة وذلك لتهيئة مسرح القتال للجنرال اللنبي الذي سيبادر بشن هجومه الواسع بعد يومين فقط.

وكان الهجوم الكبير المرتقب قد تحدد موعده في صباح التاسع عشر من سبتمبر ١٩١٨م وقد تناهت لمسامع الأتراك أنباء هذا الهجوم وتزامن ذلك مع نجاح لورانس في تخريب السكة الحديد الأمر الذي اضطرت معه القوات التركية لدفع بعض قواتها للتمركز في داخل قطاع درعا.

من ناحيته كان الجنرال اللنبي قد تنبأ بحاسة المقاتل تلك الخطوة التي قامت بها القوات التركية، ومن ثم أوعز إلى لورانس بسرعة تطويق درعا.

وكما هو متوقع انطلق لورانس مسرعًا على رأس قوات نوري السعيد لنسف جسر اليرموك وتدمير محطة البنزين وقد سقطت بعد مناوشات هادئة.

ولأن الجنود الأتراك كانوا يحتشدون في منطقة نهر اليرموك قرر لورانس زرع الألغام لتخريب الجسر تفاديًا لمواجهة مسلحة مع هؤلاء الذين روعه كثافة أعدادهم وخطوة ذلك على فرقته التي تحمل على ظهورها صناديق مكتظة بالألغام.

وهكذا استطاع لورانس نقل صناديق الألغام خلسة في جنح الظلام بمساعدة رجاله حتى تمكن من زرعها تحت أعمدة وقواعد الجسر الضخم الذي يعتمد عليه الأتراك اعتمادًا كليًا حتى إنه يعد واحدًا من أهم وأخطر الجسور الاستراتيجية وسرعان ما انفجرت الألغام لتنهار أعمدة الجسر وتتطاير قواعده في الهواء.

من هنا بات الطريق مفروشًا بالورد أمام الجنرال اللنبي الذي كان ينتظر ساعة الصفر على سطح صفيح ساخن التي أصبحت على بعد أربع وعشرين ساعة فقط لا غير.

وقد باتت درعا كأنها إحدى الجزر المنعزلة وعلى أثر النجاح الهائل الذي أحرزه لورانس قرر العودة إلى منطقة الأزرق لإطلاع الأمير فيصل على مستجدات الوضع وتطوراته الخطيرة والمثيرة والتقاط الأنفاس والاسترخاء لبعض الوقت التماسًا للراحة والنوم بعد أن أحس أنه لم يعد جديرًا بتحقيق آماله في إنجاح الثورة الكبرى بسبب الإعياء الذي أصابه وتحطيم معنوياته أو هكذا زعم وادعى بعد أن علم بنوايا بلاده في قطف ثمار نجاح القوات العربية.

وحين عاد لورانس إلى (أم طايع) تلقى تقريرًا من مكتب الجنرال اللنبي يفيد بتقدم القوات البريطانية وتوغل مدرعاتها داخل مدينتي حيفا ونابلس بعد تدمير الفرقة السابعة والفرقة الثامنة للجيش التركي.

كانت هذه الأنباء قد دفعت بعض شيوخ القبائل للهرولة نحو خيمة لورانس للتباحث معه بشأن التحرك الفوري صوب دمشق لتوظيف انهيار معنويات الجنود الأتراك بيد أن لورانس رفض هذا الاقتراح متعللاً بضرورة توفير غطاء جوي كمظلة يحتمي بها الجنود العرب حتى لا تحصدهم مدافع وطائرات الجيش التركي.

ومع إلحاح الشيوخ العرب وجد لورانس نفسه على متن طائرة عسكرية قاصدًا مقر القائد العام الجنرال اللنبي الذي كان غارقًا حتى أذنيه لمتابعة أنباء زحف قواته وانتصاراته الساحقة والاعتكاف في مقر القيادة العامة للتشاور مع قادة القوات والأسلحة لوضع خطط جديدة للمرحلة القادمة حتى تتحقق الأهداف كاملة وتامة.

كانت خطة لورانس في المرحلة الثانية تعتمد على شن ثلاث هجمات عنيفة ضد القوات التركية على أن تكون الأولى موجهة بصورة مباشرة إلى مدينة عمان عبر فرقة الجنرال «شايتور» التي تتبع الجيش النيوزلاندي والثانية تتولى القيام بها الفرقة الهندية بقيادة الجنرال «بارو» في منطقة درعا فيما يقوم الجنرال

شوفيل بشن هجمة مباغتة على رأس قواته الإسترالية على مدينة دمشق.

واختتم لورانس خطته بضرورة توفير الغطاء الجوي تجنبًا لخسائر فادحة في الأرواح لا سيما بعد أن تعرضت القوات العربية لنزيف هائل بسبب غياب الطيران في ساعات القتال مع الأتراك فضلاً عن أن تمركز قوات لورانس في أم طايع يشكل خطرًا جسيمًا حيث إن منطقة (أم طايع) تحيط بها مطارات وقواعد ومواقع الجيش التركي..

والحاصل أن براعة لورانس في عرض خطته العسكرية ومطالبة التسليحية واللجوستية قد أرغمت قادة الجيش البريطاني على تلبية مطالبه تقديرًا لعبقريته وذكائه العسكري ولذلك تلقى وعدًا أصدره الجنرال اللنبي بتعزيزه بطائرتين مقاتلتين وطائرة لنقل الجنود إلى مواقع القتال.

وعاد لورانس إلى معسكر فيصل فرحًا مستبشرًا بعد التعهد الذي قطعه القائد العام على نفسه فضلاً عن الأنباء السعيدة التي علم بها قبيل مغادرته مقر القيادة العامة والتي تشير إلى ارغام جيش جمال باشا الشهير بالجيش الرابع على التقهقر والانسحاب من شرق الأردن.

ووفق الخطة المرسومة أصدر لورانس أوامره إلى القوات العربية بسرعة التحرك للضغط على الجيش الرابع لإفساح الطريق للقوات النيوزلاندية لإرغامه على طرده من عمان ثم تصفيته بصورة نهائية عندما يقتر من طريق درعا- دمشق، وذلك بعد تدمير جزء كبير من خط السكة الحديدية حتى يتعذر على الأتراك استخدامه.

كان زعماء القبائل العربية أمثال عودة أبو تايه والشريف ناصر وطلال ونوري الشعلان والسياسي القومي نوري السعيد قد انضموا جميعًا في لواء واحد يتقدمهم لورانس الذي نجح في تخريب السكك الحديدية المؤدية إلى دمشق

وغرب درعا.

وفي أثناء زحف القوات العربية تصدت لهم حامية تركية لتنهي المعركة باستسلام جميع أفرادها وقد زاد الطين بلة في موقف الأتراك حين وقع الجنود الأتراك أسرى في براثن الفرقة الهندية.

ومع تقهقرها أمام الضربات الجوية القاسية اضطرت القوات التركية إلى التراجع والانسحاب ومن ثم كانت قرية «طفس» بوابة ينبغي المرور منها إيثارًا للسلامة فقد سقطت تحت سنابك خيولهم وأضرموا فيها النيران الأمر دفع طلال زعيم القرية إلى الإسراع لحمايتها من بطش الأتراك الذين كانوا قد غادروها بعد أن عاثوا بها فسادًا.

ولأن طلال قد أحس بأن جميع نساء قريته وأطفالها وشيوخها قد ذهبوا قتلى أمام العنف التركي فقد ألقى بنفسه على ظهر جواده للحاق بالقوات التركية بمفرده وحين أبصره أحد الجنود الأتراك فتح عليه نيران بندقيته ليسقط من على ظهر خيله مضرجًا في دمائه.

أدت حادثة طفس ومقتل زعيمها طلال إلى إثارة حنق شيوخ القبائل في طليعتهم عودة أبو تايه، ونوري الشعلان، وهو ما دفعهم جميعًا لتعقب القوات التركية وقد استطاعت القوات العربية تطويقها ودفعها للوقوع في شباك الأسد.

وللتدليل على تلك الفرقة التي شاء حظها العاثر أن تقع في **قبضة لورانس الرهيب الذي يضمر شراً وحقداً وكرهاً للإسلام التي تتعارض كلياً مع قتل أسرى عزل من الأسلحة.**

وهكذا لم يكن لورانس يحترم العهود والاتفاقيات والمواثيق التي تتعارض بنودها كليًا مع ما ارتكبه من مذابح يندى لها الجبين، ومن أسف فقد نفذتها القوات العربية بضمير بادر،وإن كنت لا أميل إلى إبداء التعاطف مع الأتراك إذا

كانوا بالفعل قد سفكوا الدماء في نساء وأطفال وشيوخ قبيلة (طفس).

حيث يتعارض ذلك مع أخلاق الفرسان وتعاليم الإسلام إذا كانوا حقًا يمثلونها على اعتبار أنهم رعايا دولة الخلافة آنذاك.

بعد تلك المذابح الرهيبة التي قام بها الطرفان راح لورانس يلقي على مسامح الشريف ناصر ما ينبغي عليه القيام به في الأيام القادمة لكونه الحاكم العسكري لمدينة درعا وجاءت برقية عاجلة تؤكد أن قوات الجنرال بارو تقترب من المدينة.

كان لورانس قد أحس بالدهشة من تلك المعلومات، ومن ثم أسرع إلى مقابلة الجنرال بارو للوقوف على حقيقة الأمر، وقد أخبره لورانس أثناء تلك المقابلة ضرورة انضمام جيش الحجاز بقيادة الشريف ناصر إلى جيشه بيد أن حالة من عدم الارتياح كانت تخيم على أجواء اللقاء الذي جمع بين الرجلين.

حيث أحس الجنرال باروا أن لورانس يعامله بجفاء وتكبر لا يتواءم مع فروق الوظيفة التي تميل لصالح الجنرال بارو.

من ناحيته أكد الجنرال بارو موجهًا حديثه للورانس أن قواته هي التي ستسيطر على المدينة وأجهزتها الإدارية دون أن يتطرق لموقفه من قوات الشريف ناصر.

لكن لورانس الذي أدرك أن الجنرال بارو يتعامل معه بترفع واستعلاء عاد يستفسر منه عن موقفه من جيش الحجاز وأين سيكون موقعه إذا قرر دخول دمشق.

أجاب بارو أنه بصدد مغادرة المدينة على رأس قواته للتنسيق مع قوات الجنرال (شوفيل) ،والقوات الإسترالية من أجل توحيد الصف وذلك لدخول المدينة في وقت متزامن ثم سرعان ما عرض على لورانس دون اكتراث أن يرافقه مع قواته العربية على أن تتمركز قوات جيش الحجاز على الجانب الأيمن لقواته،

لكن لورانس لم تطب له هذه الخطة حيث كان قد أعد خطته التي تتعلق بكيفية اجتياح دمشق ومن بين ما كان يجول في خاطرة أن ينتقل الأمير فيصل بقواته من منطقة الأزرق إلى قطاع درعا للوقوف على وضع الاستعداد النهائي انتظارًا لصدور أوامر تقضي بالزحف لاجتياح دمشق.

❁ ❁ ❁

كانت القبائل العربية قد لاحقت إحدى الفرق التركية التي لاذت بالفرادر من مؤخرة الجيش الرابع بهدف قتلهم والاستيلاء علي أسلحتهم، وقد استطاعت القبائل بالفعل محاصرة وتطويق تلك الفرقة التي بلغت نحو ألفي مقاتل تركي لتقع في أيدي العرب بين قتيل وجريح وأسير.

وعلى ضوء تلك المعركة التي اغتنم فيها العرب الأسلحة والعتاد راح لورانس إلى قرية (الكسوة) وهي قريبة وقد أحاط نفسه وقواته بسياج حديدي من الحذر كي لا يقع نتيجة إهمال أو غفوة قد تجتاح قواته فيما أنه بات على بعد أمتار من دمشق درة الشام وعاصمة الخلافة الأموية والعمود الفقري للخلافة العثمانية وسيفها وجدارها .

كانت أوضاع القوات العسكرية سواء العربية أو الإسترالية أو الهندية أو الهجانة المصرية والبريطانية تعمل جميعًا تحت لواء الجنرال اللنبي بما فيها قوات لورانس والأمير فيصل.

وكانت الخطة تقضي بتقدم الفرسان الإستراليين نحو مداخل دمشق الشمالية والغربية عبر الخطوط الحديدية قبل أن تبلغ القوات المتحالفة إلى جنوب المدينة فيما كانت قوات لورانس تتمركز ناحية الغرب تنتظر تقدم القوات البريطانية الهادئ حيث كان اللنبي يهدف من وراء ذلك إلى تواجد القوات العربية لتكون الطليعة الفاتحة لدمشق لأهمية تلك المدينة في عيون العرب.

كانت المشكلة التي تواجه القوات الإنجليزية تتمثل في مخاوف القائد اللنبي من غضبة الجماهير السورية ورفضها للوجود البريطاني الأمر الذي دفع لورانس لمفاتحة فيصل في كيفية إقناع أهالي دمشق للترحاب والالتفاف حول جنود الجيش البريطاني تقديرًا لدوره وإسهاماته البارزة في تحرير دمشق من قبضة الأتراك.

كانت المهمة شاقة وعسيرة على النفس حيث إن الثقافة العربية والخلافات العقائدية والأيدولوجية تمثل هوة واسعة بين الإنجليز وأهالي دمشق الذين كان يروق لهم الحكم التركي مهما كانت مصائبه وكوارثه، ومتاعبه وأهواله.

كانت لجنة فيصل في دمشق تتأهب لإدارة شؤون المدينة حال انهيار الحكم التركي وهي الأمل الذي راود لورانس لتذليل الصعاب التي يتحسب لها الجنرال اللنبي حيث إن هذه اللجنة بمقدورها أن تعرض أفكار الحلفاء وسياستهم تجاه بلادهم.

وقرر لورانس والشريف ناصر إرسال أحد رجال الشريف ناصر لفتح قناة أسرية للاتصال بين لورانس ولجنة فيصل.

وكان رسول الشريف ناصر هو حلقة الوصل بين لورانس من جهة ولجنة فيصل التي يرأسها علي رضا وشكري باشا الأيوبي من جهة أخرى لعرض حقيقة الموقف فيما يتعلق مستقبل البلاد وكيفية تقديم المساعدات والمعونات لدعم موقف لجنة فيصل حال نجاحها في تشكيل حكومة مؤقتة لإدارة شؤون البلاد تحسبًا لفراغ قد يؤدي إلى مشكلات لا حصر لها.

والحاصل أن مبعوثي الشريف ناصر قد فوجئ بأن (علي رضا) لم يكن موجودًا في دمشق حيث أسند إليه الأتراك قيادة جيشهم العائد والمنسحب من منطقة الجليل هربًا من ملاحقة قوات الجنرال (شوفيل) الإسترالية غير أنه

فوجئ بتشكيل حكومة وطنية في عصر اليوم السابق يرأسها شكري باشا الأيوبي.

كان شكري باشا قد تلقى دعمًا هائلاً من الأخوين الجزائريين عبد القادر ومحمد سعيد وعدد كبير من المواطنين الذين ناصروه حتى استطاع بدعمه رفع العلم العربي على أعلى جدارية البلدية وذلك أثناء تحرك القوات الألمانية والتركية للانسحاب إلى الوراء والتراجع لمغادرة دمشق.

كان الشريف ناصر يتطلع إلى دخول دمشق في بهيم الليل غير أن لورانس كان معارضًا ورافضًا هذه الفكرة المحفوفة بالمخاطر فضلاً عن أن لورانس كان يرى أن دخول الشريف ناصر في الصباح أمر يليق بدوره ويتناسب مع مكانته.

لكن الشريف ناصر ظل يترقب بزوغ الشمس على أحر من الجمر حتى إنه كاد يتسلل إليها خلسة دون أن يلفت إليه نظر لورانس .

وحين تنبه لورانس لما تعتلج به مشاعر الشريف ناصر راح يهدىء من روعه وذلك عبر قراره الرامي إلى إيفاد أربعة آلاف مقاتل عربي لدمشق.

ومع أول إشراقة لشمس دمشق انطلق لورانس على متن سيارة عسكرية صوب قمة الجبل المطل على ساحة دمشق وقد فوجئ لورانس بمبعوث شكزي باشا يتقدم نحو سيارته ليصافحه بحفاوة وليقدم له عنقودًا من العنب قائلاً في طرب:

«إن دمشق ترحب بك».

كان ناصر يمشي بجوار نوري الشعلان وقد لحق بهم لورانس حيث كانوا في طريقهم إلى سراي الحكومة المطلة على ضفاف بردي وسط استقبال شعبي كبير وأناشيد وموسيقى ورقص وأهازيج وخطب حماسية وورود متناثرة.

كان نوري الشعلان والشريف ناصر قد سبق لورانس إلى مبنى سراي الحكومة حيث جلسا الرجلان مع شكري باشا الأيوبي ومحمد سعيد وعبد القادر

الجزائريين للإشراف على شكل الحكومة الوليدة والعمل على تنصيب حاكم جديد للبلاد.

في تلك الأثناء كان لورانس قد بلغ مجلسهم حيث استبد به الدهشة عقب رؤيته للأخوين محمد وعبد القادر حيث كان لورانس يكرههما لتعصبهما وصلابتهما، وضيق أفقهما على حد تعبيره الذي أورده في مذكراته حيث وصفهما قائلاً:

«كان الجزائريان مشهورين بتعصبهما الديني وبقصر نظرهما وتصلب رأيهما».

الشاهد أن لورانس ومعه الشريف ناصر بنظرة قاسية ذات معنى لا سيما وأن عبد القادر قد صاح قائلاً حال وصول لورانس:

«لقد استطعنا بالأمس أنا وأخي أحفاد الزعيم الوطني عبد القادر الجزائري وشكري باشا الأيوبي سليل صلاح الدين تشكيل حكومة وطنية وقد نصبنا الحسين ملكًا على العرب، وذلك على مرأى ومسمع من الأتراك والألمان المنسحبين!!

بالطبع ثارت أعصاب لورانس وكاد يسقط مغشيًا عليه من فرط الجرأة التي يتعامل بها أحفاد زعيم الجزائر الذين أرادوا أن ينسبوا النصر لهم رغم أنهم كانوا يتعاونون مع الأتراك والألمان حين كانت الغلبة لهم في السابق.

وراح لورانس -كعادته- يبذل قصارى جهده لتدعيم نفوذ شكري باشا ودعم موقفه باعتباره الحاكم الفعلي للمدينة والممثل الرسمي للأمير فيصل، ومن ثم تعمد اطحابه معه في سيارة زرقاء وسط جمع الجماهير الغفيرة التي حاصرت العربة من كل جانب.

في تلك الأثناء علم لورانس أن الجنرال شوفيل قد بلغ بقواته جنوب دمشق

الأمر الذي دفع لورانس إلى مقابلته لإبلاغه ضرورة التريث والبقاء خارج المدينة لمدة يومين لحين ترتيب الأوضاع وتهدئة الأمور وترطيب النفوس.

كان لورانس يضع الأخوين الجزائريين في مقدمة أولوياته لتهيئة الأمور من أجل استتباب الأمن وتكريس قواعد الأمن والاستقرار بعيدًا عن المزاحمة على السلطة وإحداث الفوضى، من ثم أصدر قراره بتعيين شكري باشا الأيوبي حاكمًا عسكريًا ونوري السعيد قائدًا عامًا للقوات المسلحة وعزمي نائبًا له وجميل مديرًا للأمن. الأمر الذي دفع الشقيقان الجزائريان للحضور العاجل لمهاجمة لورانس ومحاولة اغتياله بالخنجر لولا أن تدخل نوري الشعلان وعودة أبو تايه وإعلانهما أنهما يحميان الرجل لحدث للورانس ما لا يحمد عقباه.

في صباح اليوم التالي استيقظ لورانس على صيحات رجل استولى عليه الذعر وحين استفسر منه لورانس عن علة ذلك صاح الرجل قائلاً:

لقد اندلعت ثورة كبيرة يا سيدي يقودها الأخوين الجزائريان.

لورانس: ماذا تقول؟ هل أنت على يقين من ذلك؟ هلا استدعيت نوري السعيد على وجه السرعة.

وأسرع الرجل قاصدًا نوري السعيد فيما راح لورانس يفكر في كيفية مواجهة هذا الموقف الطارئ والعصيب.

على الجانب الآخر كان عبد القادر قد استطاع تحشيد جماهير غفيرة من أهالي دمشق بعد أن نجح في إقناعهم بأن الحكومة الجديدة ما هي إلا عميلة جاءت لخدمة الإنجليز وللقضاء على الخلافة الإسلامية وناشدهم دعمه لإفشال هذا المخطط التآمري ضد الإسلام والمسلمين وهو ما صادف هوى لدى بعض أهالي سوريا من الذين يضمرون شرًا وكرهًا للإنجليز لإدراكهم مدى خطورتهم.

وفريق آخر يرى أن العيش تحت مظلة الاحتلال الإنجليزي سوف يكون أسعد

حالاً من العيش في كنف الأتراك، وإن كان هناك فريق بينهما يرى أن الاستعانة بالإنجليز لطرد الأتراك هي كمن يستجير من الرمضاء بالنار.

وراح نوري السعيد يصدر أوامره على الفور بتوزيع بعض فرق القوات العربية على المواقع الاستراتيجية بينما راحت بعض الفرق الأخرى تجوب الشورع والميادين للقبض على من يتظاهر ضد حكومة شكري باشا الأيوبي.

وعلى أثر ذلك هرب الدروز الذين كانوا قد باركوا الثورة الانقلابية ومارسوا أبشع ألوان السلب والسرقة والنهب على خلفيتها بحجة إشاعة الفوضى لإنجاح الثورة ليعود الهدوء إلى المدينة مرى أخرى.

❁ ❁ ❁

مرت الليلة هادئة ساكنة وقد سبحت دمشق في سبات عميق كأنها تنشد الراحة والاسترخاء بعد عقود طويلة من العناء والشقاء والقيود والعبودية والإذلال والظلم.

وفي الصباح عادت المدينة ترتدي أبهى ثيابها حيث راح عمال النظافة يغسلون شوارعها بعد تنظيفها وإعادة تجميلها، وبالتبعية عادت الأسواق تكتظ بالباعة وبالمواطنين كما راحت السيارات تقطع الشوارع والمتاجر تفتح أبوابها.

وأصر لورانس على ضرورة تشغيل خطوط الاتصالات الهاتفية التي تربط دمشق مع فلسطين وبيروت التي نجح العرب في الاستيلاء عليها ليلاً، وراح لورانس يلوم القوات العربية لاتخاذ مثل تلك الخطوة الخطيرة التي ستثير حفيظة الفرنسيين الطامعين في بيروت والذين ينبغي إرضاؤهم لضمان نجاح الثورة وتحقيق أهدافها.

وفي عصر اليوم التالي راح لورانس يجوب شوارع المدينة لاستطلاع الأمر ورصد أحوال الجماهير السورية وقراءة أفكارها.

وعند عودته إلى الفندق لاحظ حشود غفيرة من المواطنين تلتف حول سيارة رولزرويس أدرك من فوره أن الجنرال اللنبي بداخلها ومن ثم أسرع لمقابلته.

كان اللنبي يجلس في بهو الفندق ينتظر قدوم لورانس الذي أقبل نحوه فاتحًا ذراعيه وقد نهض اللنبي من مكانه لمصافحة لورانس وتبعه الجنرال كلايتون والجنرال كورنواليس وقد أظهروا جميعًا مدى امتنانهم للدور البارز الذي لعبه دورانس في نجاح الثورة العربية.

في أعقاب المصافحة وتبادل التهاني راح الجنرال اللنبي يؤكد أمام لورانس في نبرات قوية لا تخلو من أداء تمثيلي أنه لا يمانع بوصفه القائد العام للإجراءات والتدابير والقرارات التي اتخذها لورانس حال سقوط دمشق.

أكد اللنبي أيضًا في معرض حديثه مع لورانس قبوله تعيين شكري باشا الأيوبي حاكمًا عسكريًا لدمشق تحت قيادة فيصل القائد العام للقوات العربية ثم راح يحدد الدائرة العربية ودائرة نفوذ شوفيل إلى جانب أنه تولى بنفسه مهمة إدارة وتسيير قطارات السكك الحديدية فضلاً عن مسؤوليته في إدارة المستشفيات مما أضفى هدوءًا واطمئنانًا على لورانس الذي تأكد أن دوره قد انتهى.

وخلال الحديث بين فيصل واللنبي أكد أحد مساعدي لورانس يخبره بقدوم فيصل على متن القطار القادم بعد نصف ساعة وقد أرسل اللنبي ولورانس رسولاً يمثلهما لاستقبال فيصل على محطة القطار.

ثم سرعان ما اجتمع لورانس وفيصل واللنبي وسط فرحة غامرة وحشود غفيرة ترصد اللقاء التاريخي ليتنحى بعدها لورانس بالقائد العام اللنبي لكي يستأذنه في الموافقة على العودة إلى بلاده بعد أن أدى دوره في خدمة بلاده الأمر الذي رفضه اللنبي وأصر على بقاء لورانس بيد أن إلحاح لورانس وتمسكه كان

أقوى من إصرار القائد العام اللنبي الذي وافق على مضض ليرحل لورانس مسكونًا بالحزن والأسى أو هكذا زعم وادعى.

* * *

وعاد لورانس إلى لندن وقد نصحه أحد أصدقائه بضرورة كتابة مذكراته لا سيما وأنه كان القائد الفعلي للثورة العربية ضد الأتراك ومن ثم وهو يملك وفرة هائلة من المعلومات والبيانات والذكريات والمواقف والحكايات التي ينبغي عرضها ونشرها من أجل تثقيف الأجيال القادمة.

وفي عام ١٩٢٠ في شارع بوسطن بمدينة وستمنستر انكب لورانس على تسجيل كتابه الشهير «أعمدة الحكمة السبعة» الذي هز العالم بأسره واحتل أعلى الكتب توزيعًا وانتشارًا حيث أنهاه عام ١٩٢٥ .

ولروعة الكتاب وأهميته القصوى راح الأديب الكبير (ج - ب فيلادز) يقول عنه:

«إنه كتاب كان وسيظل قمة للكتب والأدب الكلاسيكي».

لكن ونستون تشرشل الذي كان شديد الإعجاب به له رأي آخر في أعمدة الحكمة السبعة حيث علق عليه بقوله:

«ليس هناك في هذا الكتاب من أثر بالغ... كل ما فيه مبالغ فيه، وشخصي وقد كتب في ظروف لا يستطيع الإنسان -كما يبدو- أن يعيشها.. ولكن لورانس كان -على أية حال- رجلا».

فيما قال لورانس نفسه:

«لقد بدأت كتابة مذكراتي لأكشف القناع عن حقيقة القصص والأشياء ولأقنع العرب القلائل الذين يعرفون مثلما أعرف، وفي هذا الكتاب أيضًا عنيت للمرة

الأخيرة أن أسجل حكمي الخاص على ما يجب أن يقال.

لكن لورانس نفسه قد اعترف لأحد أصدقائه قائلاً:

«إن كتابي قد بني على الأكاذيب ولأنني قد أصبحت بطلاً أسطوريًا فقد كان من الضروري أن أعيش هذه الأسطورة».

ولم يكن مستغربًا أن يبعث إلى صديقه إدوارد جارنت قائلاً:

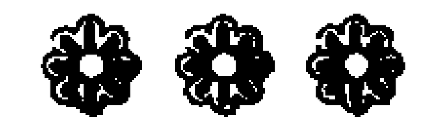
«إن همي أن أؤلف كتابًا ممتازًا»، وبعد أن انتهى من كتابته بعث إليه يقول في إحدى رسائله:

«إن كتابي مهزلة لا تستحق أن تقرأ .. فإذا ما أردت أن ترى بعينيك كيف تشوه الأفكار الجميلة والمادة والرائعة فارجع إلى أية صفحة من صفحات الكتاب ، إنني لا أعتقد بأن هنالك أي ناشر في فليث ستريت يرضى حتى بأن يحرق الكتاب فكيف بحق السماء تعتقد بأني قد جئت بعمل ممتاز..

لكن السير جون فيلبي صرح ذات مرة معلقًا على كتاب لورانس أعمدة الحكمة السبعة بقوله:

«يعتبر أضخم عمل كتابي صدر في هذا القرن».

وهكذا يظل كتاب أعمدة الحكمة السبعة الذي ألفه لورانس مثار جدل ولغط وحيرة شأنه في ذلك شأن صاحبه الذي كان وسيظل علامة استفهام وعلامة تعجب ورمزًا للحيرة والدهشة والاستغراب وسيظل مثارًا استفسار واستنفار لذوي العقول النابهة الواعية المتفتحة نظرًا لشخصيته التي يكتنفها الغموض وتحتويها السرية.



الفصل الثاني عشر

وفاة لورانس

قرر لورانس الانضمام إلى صفوف سلاح الجو الملكي تحت اسم مستعار حتى لا ينكشف أمره بوصفه غراب الثورة التي انتهت بنجاح ساحق أدت إلى تنصيب فيصل ملكًا على العراق بعد أن توصل لاتفاق تحت رعاية اللنبي لتنصيب عبد الله في شرق الأردن.

وقد استغرب أصدقاؤه انضمامه إلى سلاح الجو وقد علق كثيرًا على ذلك بقوله لصديقه ليونل كورنسي:

«أنت تعرف بأنني قد التحقت بسلاح الجو الملكي لأجعل من نفسي إنسانًا عاطلاً عن العمل.

وفي رسالة أخرى بعث بها إلى صديقه هوجارت قائلاً:

«إن الأمان كان رائدي بالدرجة الأولى ففي التحاقي بهذا السلاح ضمان سبع سنوات إن لم يعد لدي العقل الذي يستطيع أن يفكر لابد أن تدرك أنني قد

انتهيت من قصة لورانس الاستطرادية وأنني لم أعد أحب ما كانت تصفه الشائعات في من كان يسمى لورانس».

والواقع أن لورانس عانى كثيرًا بعد عودته إلى بلاده حتى ظن أن سيصاب بالجنون وأنه ينتظر إصابته بالانهيار العصبي بين ساعة وأخرى وربما كان ذلك هو وراء مقولته التي قالها لأحد أصدقائه :

«إنني أفكر أحيانًا كم أنا مجنون، وما إذا كان مستشفى المجانين سيكون لي المقر المثالي والرحيم بي».

وقد أجاب على ضابط التجنيد حين قدم أورقه للالتحاق بسلاح الجو معللاً رغبته بقوله:

«أعتقد أنني سوف أصاب قريبًا بانهيار عصبي عقلي».

وقيل إن لورانس عانى من أمراض نفسية حين هاجمه بعض العرب واتهموه بالخيانة والعمل لصالح المخابرات البريطانية، وأنه قد أصبح مطلوبًا لدى الثوار العرب المعادين لأسرة الشريف حسين التي نصبها لورانس ملوكًا على العرب رغمًا عنهم لخدمة بلاده ولتدمير الخلافة الإسلامية تلك التي كان يلتف حولها جميع مسلمي المعمورة.

المهم أن لورانس قضى ما تبقى من عمر في خدمة سلاح الجو الملكي حتى تعرض عام ١٩٣٤ إلى انهيار عصبي وضعف في قواه العقلية خاصة بعد أن تلقى إنذارًا بقرب إعفائه من الخدمة في سلاح الجو، وقد علق على ذلك قائلاً لصديقه جوهارت:

«إنني سوف أشعر ككلب ضائع عندما أترك سلاح الجو الملكي.. إن الأثر الغريب للحياة بين الملابس والعمل والزملاء والاتصال المباشر بالناس لا مثيل له في حياتي إجمالاً إنني أشعر شعورًا عميقًا بأن حياتي من حيث الشعور الفعلي

قد انتهت الآن».

وفي كوخ شيده لنفسه بالقرب من شمال معسكر بوفينجتون قضى لورانس بقية حياته ينتظر الموت ويتأهب له بعد أن داهمه اليأس وافترسه كالوحش الكاسر لتنكسر بين أنيابه إرادة رجل كانت ذات يوم مصنوعًا من الفولاذ.

في هذا الكوخ فرض لورانس على نفسه العزلة الجبرية هربًا من ملاحقات الصحفيين والإعلاميين والفضوليين لعله يهنأ بما تبقى له من عمر.

وفي أبريل عام ١٩٣٥ تلقى رسالة من صديقه هنري وليامسون يدعوه فيها بالقيام بدور الوسيط بين إنجلترا وألمانيا الهتلرية حيث رأى هذا الصديق أن لورانس هو أجدر من يتولى التفاوض مع الزعيم النازي أدولف هتلر.

وحين تسلم لورانس هذه الرسالة عبر ساعي البريد راح يقود دراجته البخارية متوجهًا إلى مكتب البريد ليبعث برسالة ردًا على اقتراح صديقه وقد أبدى خلال تلك الرسالة قبوله وترحابه للقيام بهذا الدور البارز لعله يعود للحياة مرة أخرى.

وفي طريق عودته إلى كوخه بعد أن بعث برسالته حاول لورانس أن يتجنب الاصطدام مع دراجتين كانا يقودهما شابين فانحرفت دراجته ليسقط منها لورانس مغشيًا عليه فاقدًا للوعي ليلفظ أنفاسه بعد أسبوع من استسلامه لغيبوبة كاملة».

وفي مقبرة (موريتون) التي تبعد قليلاً من مقر كوخه واري جثمانه الثرى بعد جنازة مهيبة شارك فيها عدد كبير من رموز المجتمع الإنجليزي الأرستقراطي تقديرًا ووفاءً لمن أسدى أعظم الخدمات لبلاده.

كان على رأس المشيعين ونستون تشرشل السياسي البريطاني الشهير ونيوكامب وستورز وكالينجتون وقد أصدرت الحكومة البريطانية في أعقاب

تشييع الجثمان إلى قبره وتخليد ذكراه عبر تشييد تمثال نصفي يتصدر كاتدرائية القديس بول في لندن لينتصب بجانب تمثال نلسون وكونستابل أبطال بريطانيا وعظمائها..

وهكذا أقرت بريطانيا بالدور الخطير الذي لعبه هذا الرجل في إعلاء شأن بلاده وتوسيع رفعتها **وطرد الأتراك وتدمير الخلافة الإسلامية تمهيداً لتأسيس دولة الخلافة اليهودية (إسرائيل الكبرى).**

من هنا وفي تلك اللحظة أسدل ملك الموت الستار على رجل ساهم وناضل وجاهد وتآمر من أجل مصلحة بلاده في أكبر وأخطر عمل تجسسي في التاريخ حتى أنه يتعذر أن يشهد العالم له مثيلاً في عبقريته ودهائه وذكائه ومكره، وحماسه، وشجاعته، وجسارته.

الجاسوس قد يكون مجرد ناقل وحامل وموصل للمعلومات ولا يقدر على أن يتجاوز ما هو مرسوم له ومعد مسبقًا لأدائه.

لكن لورانس لم يكن مجرد ناقل معلومات فحسب، بل كان وهذا هو الأهم مخططًا ومدبرًا وراسمًا ومعدًا ومنفذًا لأكبر ثورة شهدها العالم العربي في مطلع القرن الفائت بفضل لورانس الذي استطاع أن يحظى بتقدير الجميع ولا سيما عرب الجزيرة العربية رغم إدراكهم ووعيهم لخطورة دوره وأهمية وظيفته في استخبارات الجيش الإنجليزي لكنها مصالح القوى ولعبة السياسة لتي تقفز على كل القيم وتدهس جميع المبادئ وتخنق كافة المثل إذا كانت ستعوق انطلاقها وتألقها ونجاحها ليستحق لورانس في نهاية المطاف أن يحظى بلقب خلعناه عليه:

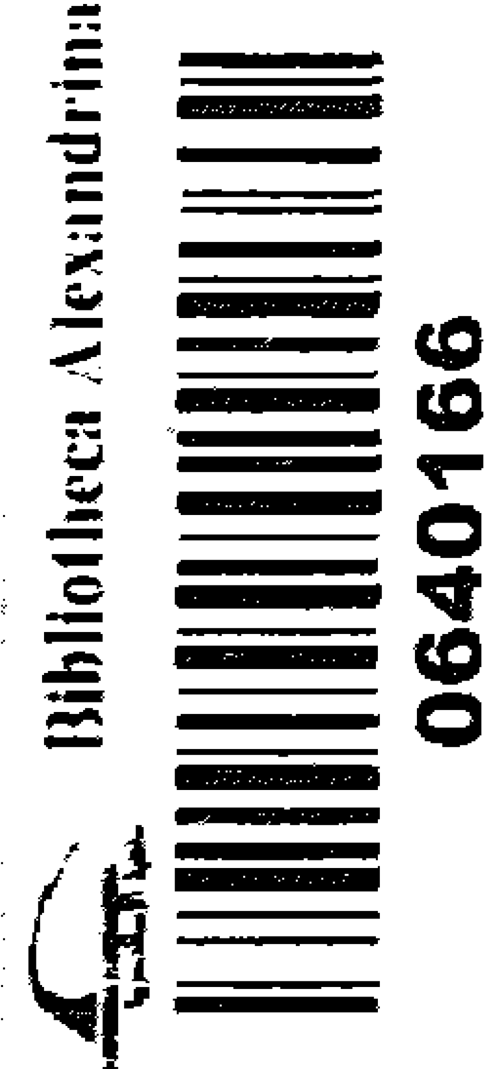
(ملك الجواسيس).

الفهرس

ن : 2302 تاريخ استلام : 7/2/2008

LAWRENCE OF ARABIA

لورانس العرب



دار مشارق